جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
لجنة القرآن والسنة

القصص الهادف

كما نراه في سورة الكهف

لفضيلة الشيخ محمد محمد المدني

القاهرة
١٤١٥هـ / ١٩٩٤م





بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ
بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ ﴾

(سورة يوسف آية ٣)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ
مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى
بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً
لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾

(سورة يوسف آية ١١١)

تقديم

أثار موضوع القصص فى القرآن الكريم فى نفوس بعض الكتاب المعنيين بالنقد القصصى بعض النقد لما ورد فى القرآن الكريم من قصص، فيراه البعض أنه غير خاضع لمعايير القصة،وبعضهم يراه أنه نوع من الخيال جيء تسلية وترويحا للرسول « صلى الله عليه وسلم » فهو ليس قصصا بالمعنى الفنى للقصة ــ كما يرون ــ لخلوه من مفهوم الحبكة القصصية ، وغير ذلك ممن يعتبرونه من خصائص القصة ، ولا نرى ذلك منهم الا نوعا من تزييف الأحكام واهمالا لشــأن القرآن ، فهو ليس كتابا قصصـــيا أو مسرحيا ، وليس كتابا للنثر الأدبى ، ولا ديوانا من الشعر العربى ، انما هو كما وصفه الله بقوله : « انه كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » فمن يصرفه عن معناه الذى نزل من أجله ، انما هو ممن لا يحسنون فهم القرآن ، ولا فهم الآداب اذ لا يستطيعون تمييزا بين كلام الله وكلام البشر ٠

من هنا جاء كتاب فضيلة الشيخ / محمد محمد المدنى « القصص الهادف كما نراه فى سورة الكهف » لبيان ما يشوب المواقف الأدبية من القصص القرآنى ، اذ القصص القرآنى ذا خصائص يمتاز بها عن سائر الأساليب ، وكان له فى المعنى وفى اللفظ ألوان من التوجيه ، وفنون من الايحاء والتعليم ، وكان له ما للقرآن كله من تلك الجده التى تبلى ، وتلك الروعة التى لا تزول ٠ وكما قال مؤلفه فضيلة الشيخ ٠

« ولقد حرصت على أن يكون هذا التفسير جامعا بين القديم فى أصالته

وعراقته، والحديث فى يسره وسهولته ، كما حرصت على أن أنفى شوائب الروايات الضعيفة والمدخولة ... الخ » .

ومن هنا حرص المجلس الأعلى للشئون الاسلامية على أن يجدد طبعته ليتزود بها طالب الثقافة وطالب الأدب وطالب فهم القرآن .

وبالله التوفيق ،

الأمين العام

دكتور / « محمد ابراهيم الفيومى »

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد النبى الأمين ، وعلى آله الطيبين الطاهرين ، وأصحابه الهداة الراشدين ، ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين .

أما بعد : فقد تضمنت سورة الكهف ثلاث قصص عجيبة ، ومثلين رائعين ، وكان لكل من هذه الخمسة دلالته على قدرة الله وعظمته ، وسعة علمه وعظيم حكمته ، وأن هناك أسبابا خاصة غير مألوفة ، وراء الأسباب العامة المألوفة ، وأن الهدى هدى الله « من يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا » .

أما القصص الثلاث فهى : قصة أصحاب الكهف ، وقصة موسى وفتاه والعبد الصالح ، وقصة ذى القرنين .

وكل منها يشتمل على أمر عجيب فوق السنن العادية :

فأصحاب الكهف : فتية آمنوا بربهم ، ولم يستريحوا لما عليه قومهم من الشرك واتخاذ الآلهة من دون الله ، ولم يجدوا مناصا من الفرار بأنفسهم وعقيدتهم ، وهجران قومهم وبيئتهم ، فقصدوا الى كهف سحيق ، فضرب الله على آذانهم فيه سنين عددا ، مرت بهم وهم نائمون لا يستيقظون ، ولا يأكلون ولا يشربون ، ثم بعثهم الله من نومهم كما يبعث الأموات من القبور ، ورآهم الناس ، وعلموا نبأهم ، فكانوا آية من آيات الله ، ودليلا على قدرته وواسع رحمته ، وعبرة لأولى الألباب تدل على أن لله عبادا يهجرون المتاع الحسن ، والشباب الغض ، والحضارة الزاهرة ، والمال الكثير ، والنعيم المقيم ، اذا تعارضت

والعقيدة التى آمنوا بها ، حتى ليفضلون سكنى الكهوف مع سلامة الدين وصحة الايمان ، على سكنى القصور فى ظل الشرك واتخاذ الآلهة من دون الله •

وقصة موسى وفتاه والعبد الصالح : هى قصة الرحلة فى سبيل العلم ، والاجتهاد فى كشف الحقائق ، وعرفان الأسرار ، وهى قصة الموازنة بين ما نعلم وما لا نعلم ، وما ندرك من الأسباب الظاهرة ، وما يغيب عنا من الأسباب الخفية ، وهى فى الحقيقة قصة الحياة ومن فى الحياة ، فكم من حادث يقع فى هذا الكون لا ندرك أسبابه ، ولا نعرف منطقه ولا حسابه !! فيأخذنا العجب ، وربما ثرنا كما ثار موسى حين رأى خرق السفينة ، وقتل الغلام ، واقامة الجدار ، ولو كشف الله لنا عن جانب من حكمته ، وآتانا من عنده رحمة ، وعلمنا من لدنه علما ، كهذا العبد الصالح الذى صحبه موسى ، لذقنا من لذة العرفان ما ذاق ، ومن ذاق عرف ، ومن عرف لزم •

وقصة ذى القرنين : هى قصة التمكين الالهى ، والفضل الربانى، والهداية الى الأسباب الصالحة الناجحة فى نواحى العمل ، والسعى والضرب فى الأرض ، والانشاء والبناء ، وكل ما من شأنه أن يقيم صروح المحبة والتعاون والاحترام بين الحاكمين والمحكومين ، والساسة والمسوسين •

وهى أيضا قصة مقاومة أهل الاصلاح لأهل الافساد • والحيلولة بينهم وبين أن ينشروا فسادهم وظلمهم باقامة السدود المانعة الحصينة، واذا كان سد ذى القرنين سدا ماديا هندسيا قام على الحديد والقطر ، فان هناك سدودا معنوية يمكن أن تقوم على الايمان والعمل الصالح فتحول بين الأمم وما يتهددها من الفساد والظلم ، ثم من الخراب والفناء !

وأما المثلان فهما :

مثل الرجلين اللذين جعل الله لأحدهما جنتين مثمرتين ، ورزقه مع ذلك ألوانا من المال ، وعددا من الأولاد والأعوان ، فأطغته النعمة ،

وأخرجته عن نطاق الايمان بالله واليوم الآخر ، وأعمته وأصـمته عن النصح الذى بذله صاحبه له وهو يحاوره ويذكره بالله ، فلم يكن يزداد الا اعراضا وشططا ، حتى حل به غضب الله ، فزالت نعمته ، وهلكت جنته : « **وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهى خاوية على عروشها ويقول يا ليتنى لم أشرك بربى أحدا** » •

ومثل الحياة الدنيـا ، اذ يشبهها الله فى نضرتها وبهائها اللذين يبهران الأنظار ، ويخلبان الألباب الى حين ، بماء أنزله من السماء ، فكان حياة للأرض حينا من الزمان ، حتى اذا نما نباتهـا ، وترعرع شجرها ، وطاب ثمرها ، واخضرت عيدانها ، أدركها بعد حين جفاف ويبس ، فاذا كل ذلك هشيم وحطام تذروه الرياح ذات اليمين وذات الشمال •

انه مثل للفناء والذواء ، بعد النضارة والبهاء ، وهو يمثل لنـا كل شىء فى هذه الحياة ، من النعيم الذى يبقى حينا ثم يذهب ، ومن الصحة التى تكون بها الأجسام كالأطواد ثم تتهدم ، ومن الشباب الذى يأتى بعده الهرم ، ومن العز يأتى بعده الذل ، والغنى يكون بعده الفقر ، فهذا شأن كل ما فى الحياة ، وهذا هو أيضا شأن الحياة الدنيا ذاتها ، لن تبقى الا الى أجل مسمى ، ثم تأتى من بعدها دار البقاء •

هذان هما المثلان اللذان ضربهما الله فى سورة الكهف ، وتلكم هى القصص الثلاث فيها •

* * *

ولما كان أسلوب القصص والتمثيل القرآنى ذا خصائص يمتاز بها عن سائر الأساليب ، وكان له فى المعنى وفى اللفظ ألوان من التوجيه ، وفنون من الايحاء والتعليم ، وكان له ما للقرآن كله من تلك الجدة التى لا تبلى ، وتلك الروعة التى لا تزول ، فقد رأيت أن أهدى تأملاتى فى هذه السورة الكريمة الى عشاق المعانى النبيلة ، والصور الجميلة ، والى

طلاب العبرة والتذكرة والتبصرة ، أولئـك الذين آمنوا بالله ربا ، وبمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ رسولا نبيا ، واتخذوا القرآن كتابا واماما ونورا مبينا **« يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السـلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم »** .

وان هذا فى الحقيقة لتفسير لسورة الكهف كلها ، فقد رأيت أن القصص الثلاث والمثلين قد استغرقت نحو الثمانين من آياتها ، والسورة كلها مائة آية وعشر آيات ، أى أنه لا يبقى منها بعد القصص والتمثيل الا نحو ثلاثين آية ، مع أنها وثيقة الصلة فى المعنى بما عالجته السورة ، فآثرت أن أكمل السورة كلها تفسيرا ، لتتم الفائدة بذلك ان شاء الله تعالى ، ولقد حرصت على أن يكون هذا التفسير جامعا بين القديم فى اصالته وعراقته ، والحديث فى يسره وسهولته ، كما حرصت على أن أنفى عنه شوائب الروايات الضعيفة والمدخولة ، وأن أخرجه اخراجا معجبا مونقا ، يوافق الأذواق والعقول السليمة ، فان أكن قد وفقت فذلك ما أبتغيه ، وان تكن الأخرى فالعذر عند كرام النـاس مقبول **« وما توفيقى الا بالله ، عليه توكلت واليه أنيب »** .

محمد محمد المدنى

التعريف بسورة الكهف




- ١ -

سورة « الكهف » احدى السور المكية ، والشأن الغالب فيما نزل من القرآن بمكة أنه لا يتحدث عن الأحكام وتفاصيل الشريعة من عبادات ومعاملات ، كما نزل من القرآن بالمدينة ، ولكنه يتحدث عن أصـــول العقيدة ، وأمهات الأخلاق ، لأنه يضع الحجر الأساسى لأمة يريد أن يبنيها ويجعل لها فى العـــالم شـــأنا ، والأمم لا تبنى الا على هـــذين الأساسين : عقيدة تطمئن اليها قلوبها ، وأخلاق تستقيم عليها شئونها ، فاذا ضاع أحدهما تزلزل بناؤها ، وانهدم كيانها .

عناية سورة الكهف بأمر البعث والآخرة

وأبرز ما عنيت به سورة الكهف من العقـــائد أمر البعث والدار الآخرة ، وهو أصل فى العقيدة طالما أعاد القرآن فيه وأبدأ ، وضرب له الأمثال ، وحكى فى شأنه القصص العجيب الدال على قدرته تعالى ، وأيده بالبراهين الدامغة ، ونظر له بما يشاهد من صنع الله فى الخلق، وآياته فى الآفاق، حتى يتبين لهم أنه الحق ، وأن الله على كل شىء قدير .

ولو أن ناظرا فى القرآن الكريم أراد أن يجمع كل ما ذكره فى هذا الشأن ، ويستوعب نواحيه المختلفة ، لأخرج من ذلك بحثا ضخما ، ولبين أن الله قد استقصى نواحى الأمر فيه استقصاء ، وأزاح عنه كل شبهة مما طرأ على الأذهان ومما قد يطرأ ، حتى أصبح العقل منه على بينة وتسليم ، كأنه أحد المحسات التى تبصرها العيون،وتلمسها الأيدى .

وقصارى القول فى ذلك أن انكار البعث أو الشك فى أمره يرجع فى ذهن المنكر أو الشاك الى أحد أمور :

اساليب القرآن فى الرد على منكرى البعث .

١ ــ اما مخالفته لما ألف من السنن ، حيث لم يعهد الأحياء أن ميتا

بعث من رمسه ، وعادت اليه الحياة كرة أخـرى ، حتى يمكن قياس ما لم يشهدوا على ما شهدوا .

٢ — واما استبعاده واستعظام أمره ، فان عودة الأجسام بعد تفرقها وتحللها وفسـادها ، وفنائها فى الأرض ، واختـلاط موادها بالتراب ، وتحولها الى جنسه ، أمر تستبعده العقول ، ولا تسلمه فى سهولة ويسر .

٣ — واما كونه أمرا لا تدعو اليه حاجة البشر ، ولا تقضى به حكمة الحكيم .

٤ — واما العناد فى أمره والاصرار على تكذيب الدعوى فيه ، بعد تبين الحجة ، وقيام البرهان كفرا ومكابرة .

وقد عالج القرآن ذلك كله ، ورد على كل فريق من المـكذبين بما يناسبهم :

١ — فقال للذين حسبوه مخالفا للسنن المألوفة : انكم قد غفلتم عن كثير من آيات الله التى تشاهدونها بأعينكم ، وقد صارت لديكم أمورا مألوفة لكثرة حدوثها وتكرر رؤيتها .

فهذه الأرض تكون ميتة هامدة ، فينزل الله عليها الماء فتصـبح مخضرة ناضرة بالزرع والنبات .

« وترى الأرض هامدة فاذا أنزلنا عليها الما ء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، ذلك بأن الله هو الحق ، وأنه يحيى الموتى ، وأنه على كل شىء قدير ، وأن السـاعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور » (سورة الحج الآية من ٥ — ٧) .

« ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد ، والنخل باسقات لها طلع نضيد ، رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج » (سورة ق الآية من ٩ — ١١) .

وهؤلاء هم الناس ينامون ويضرب الله على آذانهم مدة من الزمان

يكونون فيها كالموتى ثم يبعثون ، وذلك هو المعنى الذى صح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نادى به قومه أول مبعثه ، اذ يقول : « والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون » •

وقد جاء به القرآن الكريم فى قوله تعالى :

« الله يتوفى الانفس حين موتها ، والتى لم تمت فى منامها ، فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى الى أجل مسمى ، ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » (سورة الزمر آية ٤٢) •

وهذه هى الحبة الجافة يحولها الله بالانبات الى زرع نضير ، والنواة المتحجرة يصيرها نخلة فارعة مثمرة •

« ان الله فالق الحب والنوى ، يخرج الحى من الميت ، ومخرج الميت من الحى ، ذلكم الله فأنى تؤفكون »(سورة الأنعام آية ٩٥) •

الى غير ذلك من الآيات الكثيرة التى تلفت الى نظـائر البعث والنشر فيما ألف الناس •

٢ ـــ وقال للذين يستبعدون ذلك ، ويستعظمون أمره : ان الله لا يعجزه شىء ، وليس شىء عليه بمستبعد ، فهو القوى القادر الذى خلق الخلق وأنشأه من العدم :

« وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهـــون عليه ، وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » •

(سورة الروم الآية ٢٧)

« كما بدأنا أول خلق نعيده » (سورة الأنبياء آية ١٠٤) •

« وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا • قل كونوا حجارة أو حديدا أو خلقا مما يكبر فى صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذى فطركم أول مرة » (سورة الاسراء الآية من ٤٩ــ٥١)

« وهو الذى ذرأكم فى الأرض واليه تحشرون • وهو الذى يحيى ويميت وله اختلاف الليل النهار أفلا تعقلون • بل قالوا مثل ما قال الأولون • قالوا أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون • لقد وعدنا

نحن وآباؤنا هذا من قبل ، ان هذا الا أساطير الأولين • قل لمن الأرض ومن فيها ان كنتم تعلمون سيقولون لله ، قل أفلا تذكرون » •

(سورة المؤمنون آية من ٧٩ ـــ ٨٥)

« **وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم• قل يحييها الذى أنشأها أول مرة** » (سورة يس آية ٧٨ ، ٧٩) •

« **يأيها الناس ان كنتم فى ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب** »

(سورة المؤمنون آية ٣٦)

الى غير ذلك من الآيات التى تذكر قدرة الله ، وتذكر بنشأة الخلق وترد عليهم استبعادهم للأمر واستعظامهم اياه ، فى مثل قولهـــم :

« **أيعدكم أنكم اذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون • هيهات هيهات لمـــا توعدون • ان هى الا حياتنا الدنيـــا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين** » (سورة المؤمنون آية من ٣٥ ـــ ٣٧) •

٣ ـــ ويقول للذين يزعمون أنه أمر لا تدعو اليه حاجة ، ولا تقضى به حكمة :

« **ليجزى الذين أســاءوا بما عملوا ويجـــزى الذين أحســنوا بالحسنى** » (سورة النجم الآية ٣١) •

« **وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون** » •

(سورة التوبة آية ١٠٥)

« **أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم الينا لا ترجعون** » •

(سورة المؤمنون آية ١١٥)

« **يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم • فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره • ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره** » •

(سورة الزلزلة آية من ٦ ـــ ٨)

الى غير ذلك من الآيات التى تذكر حكمة البعث ورجوع الناس الى الله فى يوم مشهود ، ليحاسبهم ويجزيهم بالسوء سوءا وبالاحسان احسانا •

٤ ـــ أما المعاندون المكابرون فيجابههم بالدعوى ، ويكررها عليهم ، ويقسم عليها فى مقابلة قسمهم ، ويصور لهم يوم القيامة وأهواله كما لو كانوا يشاهدونه :

« وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى وعدا عليه حقا ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (سورة النحل آية ٣٨) .

« زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم »(سورة التغابن آية ٧) .

« وقالوا ان هى الا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ، ولو ترى اذ وقفوا على ربهم قال أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » (سورة الأنعام الآية ٢٩ ــ ٣٠) .

« وقالوا أئذا ضللنا فى الأرض أئنا لفى خلق جديد ، بل هم بلقاء ربهم كافرون ، قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ثـم الى ربكم ترجعون . ولو ترى اذ المجرمون ناكسو رءوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا انا موقنون » .

(سورة السجدة آية من ٩ ــ ١٢)

الى غير ذلك من الآيات التى تصور أهوال القيامة وحيرة الكافرين واعترافهم بعد رؤية العذاب .

سر عناية القرآن بتقرير أمر البعث :

وانما عنى القرآن الكريم هذه العناية بشأن البعث والدار الآخرة، لأنه شأن يترتب على الايمان به صلاح العالم واستقراره ، وللايمان به بركات على الأفراد والجماعات ، واذا عبرت هنا بكلمة « بركات » فلست أريد معنى خفيا سماويا يتلقاه المؤمن بالبعث ، ويتنزل عليــه بسبب هذا الايمان ، وانما أريد البركات العملية التى هى النتائج والآثار التى ربطها الله بأسبابها على سنة منه لا تتبدل ولا تتحول ، ذلك أنه اذا استقر فى العقول أن بعد هذه الدار دارا أخرى ، وأن كل انســان محاسب فى تلك الدار على ما اقترف من خير أو شر : **« فمن يعمل مثقال**

ذرة خيرا يره • ومن يعمل مثقال شرا يره » (سورة الزلزلة آية ٧ـ٨)

« والوزن يومئذ الحق » (سورة الأعراف آية ٨) كان ذلك عصمة للعالم ، ووقاية من كثير من الشرور والآثام ومدعاة للعمل الصالح والبر والخير وكل ما يعود على المجتمع خاصه وعامه بالصلاح والقرار • أما اذا شاعت فى الناس فكرة الملحدين المنكرين ، الذين يصورون هذه الحياة الدنيا على أنها تفاعلات من نفسها ومصادفات لا تنتهى ، وأنه لا غاية من ورائها ، ولا دار بعدها ، ولا حساب ولا ثواب ولا عقاب ، فان كل انسان يفعل حينئذ ما يشاء ، دون ضابط ولا خوف ولا استحياء ، وتسود القوة ، ويصبح القانون البشرى سواء هو وقانون الوحوش فى الغاب ، أساسه الناب والظفر والقوة الجسدية ، والعالم اذا سارت أموره على هذا الأساس يكون جحيما لا يطاق ، ولا يلبث أن يصير خرابا يبابا •

وها نحن أولاء ، نرى المادية والالحاد حين تفشيا فى الناس ، تفشت معهما الشرور والمظالم ، وأصبحت الأمم الأوربية ومثيلاتها طعمة للحروب ، يوقدون بأيديهم نيرانها ، ويجمعون لها المال والفن والعلم والصناعة والسياسة وفلذات الأكباد ، ثم يركسون ذلك جميعا فيجعلونه فى النار •

وها نحن أولاء ، نراهم فى أعقاب كل نكبة ، وعندما يذوقون الويل ويضنيهم العذاب ، يمدون أيديهم الى الدين ، ويلتمسون علاج أنفسهم بالعقيدة ، ويضعون أسس العدل والنصفة فى مواثيق أو عهود ، ولكنهم لا يلبثون حتى يخيسوا بعهودهم ، ويرجعوا الى ماديتهم وظلمهم وعتوهم الى أن تجتاحهم نازلة أخرى ، وهكذا دواليك • وصدق الله وعده اذ يقول : **« ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبا من دارهم حتى يأتى وعد الله »** (سورة الرعد الآية ٣١) •

لهذا يهتم القرآن الكريم بأمر البعث والدار الآخرة ، ويقرره على كل مؤمن عقيدة من عقائد الحق التى لا تقبل الشك ، ولا يقبل الله فيها تأويلا ولا شقاقا ، ويستقصى كل ما يدل عليه ، ويثبته فى القلوب ، ويزيل عنه الشبهات •

سورة الكهف بين ما نزل قبلها وما نزل بعدها

وقد نزلت سورة الكهف فى وقت كانت سهام **الأدلة** والبراهين فيه تصوب الى شبه المكذبين وباطل المبطلين فى أمر البعث ، وقد سبقها فى ذلك عدة سور نراها تهتم بهذا الأمر اهتماما بالغا .

فالسورة التى نزلت قبلها وهى سورة « الغاشية » تبدأ وتنتهى بحديث الساعة ، واياب الناس جميعا الى الله ليحاسبهم على ما قدموا . فتقول فى أولها : **« هل أتاك حديث الغاشية »** (سورة الغاشية آية ١)

وتقول فى آخرها **« ان الينا ايابهم ، ثم ان علينا حسابهم »** .
(سورة الغاشية آية ٢٥ ، ٢٦)

وتوازن بعد البدء وقبل الختام بين فريقين : فريق الكافرين ، وفريق المؤمنين ، مبينة ما لكل من الجزاء فى دار الجزاء فتقول :

« وجوه يومئذ خاشعة ، عاملة ناصبة ، تصلى نارا حامية ، تسقى من عين آنية ، ليس لهم طعام الا من ضريع ، لا يسمن ولا يغنى من جوع ، وجوه يومئذ ناعمة ، لسعيها راضية ، فى جنة عالية ، لا تسمع فيها لاغية ، فيها عين جارية ، فيها سرر مرفوعة ، وأكواب موضوعة ، ونمارق مصفوفة ، وزرابى مبثوثة » (سورة الغاشية الآيات من ٢ — ١٦) .

ثم تذكر دلائل قدرة الله فى الابل والسماء والجبال والأرض ، وتأمر الرسول بأن يذكر بهذا كله ، ويترك الناس بعد ذلك وما يشاءون، فانما هو مذكر لا مسيطر .

والسورة التى نزلت قبل « الغاشية » وهى سورة « الذاريات » تبدأ بقسم عظيم من الله جل جلاله ، ويكون المقسم عليه هو صدق الوعد الذى يوعدون ، وتحقق يوم الدين الذى ينكرون **« والذاريات ذروا فالحاملات وقرا فالجاريات يسرا فالمقسمات أمرا . انما توعدون لصادق وان الدين لواقع »** (سورة الذاريات الآيات ١ — ٦) .

ثم تذكر الخراصين الذين يتساءلون أيان يوم الدين ، فتجيبهم عن تساؤلهم بوصف هذا اليوم وما فيه من أهوال يصيرون اليها جزاء على تكذيبهم ، ومن نعيم يصير اليه المؤمنون المصدقون بأمر ربهم ، فتقول :

« يوم هم على النار يفتنون ، ذوقوا فتنتكم هذا الذى كنتم به تستعجلون ، ان المتقين فى جنات وعيون آخذين ما آتاهم ربهم ، انهم كانوا قبل ذلك محسنين » (سورة الذاريات الآيات من ١٣ — ١٦) .

ثم تمضى فى ذكر الدلائل على قدرة الله مما يشـاهد النـاس ومما يحفظ التاريخ من أخبار المرسلين وأقوامهم ، حتى تنتهى الى انذار للظالمين تنخلع له القلوب فتقول :

« فان للذين ظلموا ذنوبا مثل ذنوب أصحابهم فلا يستعجلون ، فويل للذين كفروا من يومهم الذى يوعدون » •

(سورة الذاريات الآيتان ٥٩ ، ٦٠)

وقل مثل ذلك فى السورة التى نزلت قبل « الذاريات » وهى سورة « الأحقاف » فانها تبدأ بقوله تعالى :

« حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ، ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما الا بالحق وأجل مسمى ، والذين كفروا عما أنذروا معرضون » (سورة الأحقاف آية ١ ، ٢ ، ٣) •

وهى بهذا ترد على فريق الزاعمين بأن الحياة الدنيـا ما هى الا وليدة المصادفات أو التفاعلات ، وأنه لا نهاية لها ولا دار بعـدها فتقرر أن خلق السموات والأرض ومابينهما انما هو بالحق وتقدير العزيز العليم ، وأن لها أجلا مسمى ، وأن الكافرين معرضون عما أنذروا ، مصرون على الانكار والتكذيب •

ثم تمضى فى بيان سنن الله فى الخلق والتصريف ، وتقليب الأمم والناس ، والتمكين لقوم واهلاك آخرين ، حتى تنتهى بهذا النـداء الجامع القوى على لسان نوع مما خلق الله :

« يا قومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لـكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم ، ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك فى ضلال مبين ، أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى ، بلى انه على كل شىء قدير ، ويوم يعرض الذين كفروا على النار أليس هذا بالحق ، قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » •
(سورة الأحقاف الآيات من ٣١ — ٣٤)

ثم يكون ختامها المقترن بهذا النداء تسلية وتثبيتا للرسول ، وانذاراً وتهديداً للمنكرين المكذبين « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا الا ساعة من نهار ، بلاغ فهل يهلك الا القوم الفاسقون » (الأحقاف آية ٣٥)

وقد نزل بعدها كذلك عدة سور تتحدث عن هذا الشأن الخطير ، مبينة وحدانية الله وقدرته ، وما كان من عقوبته للمكذبين وأخذه للظالمين.

فمن ذلك سورة النحل التى نزلت بعد الكهف مباشرة ، وهى تبدأ بهذا النبأ الخطير الذى تؤكد فيه مجىء أمر الله ، وتصوره كما لو كان قد وقع فعلا فتقول : « أتى أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون » (سورة النحل آية ١) .

ثم تذكر تنزيل الله للملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده ، وخلقه السموات والأرض بالحق ، وخلقه الناس والأنعام ، ونعمه الكثيرة التى لا تحصى ، ثم تعرج على منكرى الآخرة فتقول :

« الهكم اله واحد ، فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون » (سورة النحل آية ٢٢) .

وتمضى فى ذكر ما كان للسابقين من مكر ودهاء ، وما أصابهم من جزاء ، تصور حالة الناس حين الموت وبعد الموت ، واصفة حال الظالمين لأنفسهم . وحالة الطيبين ، وجزاء كل يوم الجزاء ، ثم تقول فى قوة وثقة ورد على المكذبين ، وبيان لحكمة الله من بعث الناس ، وقدرة الله على ما يريد :

« واقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى وعدا عليه حقا ولكن أكثر الناس لا يعلمون . ليبين لهم الذى يختلفون فيه ، وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين . انما قولنا لشىء اذا أردناه أن نقول له كن فيكون » (سورة النحل الآيات من ٣٨ ـــ ٤٠) .

وهكذا تمضى فى بيان نعم الله وعجائب تصريفه فى ملكوت السموات والأرض ، ويجىء فيها أمر البعث بين الحين والحين كما فى قوله :

« ولله غيب السموات والأرض وما أمر الساعة الا كلمح البصر أو هو أقرب أن الله على كل شيء قدير » (سورة النحل ٧٧) .

وقوله :

« ويوم نبعث من كل أمة شهيدا ثم لا يؤذن للذين كفروا ولا هم يستعتبون . واذا رأى الذين ظلموا العذاب فلا يخفف عنهم ولا هم ينظرون » (سورة النحل الآيتان ٨٤ ٨٥) .

وقوله :

« يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون » (سورة النحل آية ١١١) .

ومن ذلك سورة « نوح » وهى السورة التى نزلت بعد « النحل » وفيها انذاره عليه السلام لقومه ، وتكذيبهم اياه ، وتعديده لنعم الله عليهم ، وتذكيره اياهم بقدرته تعالى وخلقه السموات والأرض ، وقد جاء فيها :

« والله أنبتكم من الأرض نباتا . ثم يعيدكم فيها ويخرجكم اخراجا » (سورة نوح الآيتان ١٧ ، ١٨) .

وقل مثل ذلك فى سورة ابراهيم التى نزلت بعد سورة نوح ، وأولها قوله تعالى :

« الر كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور باذن ربهم الى صراط العزيز الحميد . الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض وويل للكافرين من عذاب شديد . الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاأولئك فى ضلال بعيد». (سورة ابراهيم الآيات من ١ — ٣)

وفيها :

« وبرزوا لله جميعا فقال الضعفاء للذين استكبروا انا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء قالوا لو هدانا الله لهديناكم سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص . وقال الشيطان لما قضى الأمر ان الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم

من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لى ، فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى انى كفرت بما أشركتمون من قبل ان الظالمين لهم عذاب أليم ، وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها باذن ربهم تحيتهم فيها سلام » .
(سورة ابراهيم الآيات من ٢١ — ٢٣)

وفيهـا :

« يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحـد القهار . وترى المجرمين يومئذ مقرنين فى الأصفاد سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار . ليجزى الله كل نفس ما كسبت ان الله سريع الحسـاب » (سورة ابراهيم الآيات من ٤٨ — ٥١) .

بهذا يتبين أن سورة « الكهف » قد نزلت فى وقت اشتدت فيـه الحملة على المنكرين المكذبين بيوم الدين ، وأن ما جاء قبيل نزولهـا وبعيده كان شديد العناية بهذا الشأن ، فلا عجب أن يكون أبرز ما عنيت به هو الاشتراك القوى فى هذه الحملة الشعواء .

* * *

أسلوب السورة فى الاحتجاج للبعث :

وقد كان أسلوب هذه السورة فى اثبات هذه القضـية والحجاج عنها ، جامعا لكثير من طرائق الجدل والاستدلال على حقيتها ، مبرزا ذلك فى صورة واضحة قد اكتملت فيها عناصر القوة والروعة والافحام.
ونستطيع أن نجمل مظاهر ذلك فيما يأتى :

١ — بدأت السورة بقوله تعالى :

« الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعـل له عوجا ، قيما لينذر بأسـا شـديدا من لدنه ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا ماكثين فيه أبدا » .

وهى تتحدث فى هذا البدء عن الدار الآخرة وما فيها من بأس شديد يصيب أقواما ، وأجر حسن يفوز به أقوام آخرون .

وختمت بقوله تعالى :

« قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى أنما الهكم اله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا » •

وهى تتحدث فى هذا الختام عن الدار الآخرة أيضا وعمن يرجو لقاء ربه ، وما يجب عليه أثرا لهذا الرجاء والايمان من عمل صالح ، وتوحيد لله لا يخالطه اشراك •

وهكذا يتلاقى أول السورة وآخرها : أولها يتحدث عن الآخرة بطريق التقرير لها ، وبيان مهمة القرآن فى اثبات ما يكون فيها من الجزاء انذارا وتبشيرا ، وآخرها يتحدث عن هذه الحقيقة التى تركزت وتقررت ويحاكم الناس اليها فى الايمان والعمل الصالح •

ومما يلاحظ أن آيات البدء قد ذكر فيها أمر الذين قالوا اتخذ الله ولدا ، من انذارهم وبيان كذبهم وتخليطهم وجهلهم على الله ، وذلك هو قول الذين يشركون بالله ، ويعتقدون ما ينافى وحدانيته وتنزيهه ، وأن آية الختام قررت **« أنما الهكم اله واحد »** وأن على من يؤمن به ، ويرجو لقاءه ألا يشرك بعبادته أحدا ، فتطابق الأول والآخر فى اثبات الوحدانية والتنزيه لله جل وعلا ، كما تطابقا فى أمر البعث والدار الآخرة •

أما فى أثناء السورة وما بين بدئها وختامها ، فقد جاء أمر البعث عدة مرات :

جاء فى مقدمة قصة أصحاب الكهف التى ساقها الله حقيقة من حقائق التاريخ الواقعية ، دليلا على قدرته ، وتنظيرا لما ينكره الكافرون من أمر البعث والنشور :

« أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا »
وفى ثنايا هذه القصة **« وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها »** •

فهى تقرر أن أصحاب الكهف آية من آيات الله ، وأنهم مع غرابة أمرهم لا يعدون فى جانب القدرة الالهية عجبا ، فانما هم فتية آمنوا بربهم ، وآووا الى الكهف فرارا بعقيدتهم ، فضرب الله على آذانهم فيه مدة من الزمن ثم بعثهم — واذن — فالله قادر على أن يضرب على آذان الناس جميعـا فى هذه الدار بالموت ، كما يضرب على آذانهم بالنوم ، ثم يبعثهم الى الدار الآخرة كما بعث هؤلاء الفتية ، وما ذلكم على الله بعزيز ، ولا هو فى قدرته بعجيب ، وتقرر أن العبرة من بعثهم والاعثار عليهم هى أن يعلم الناس أن وعد الله حق ، وأن الساعة لا ريب فيها .

وجاء أمر البعث مرة ثانية فى هذه السورة حين قررت أن الحق من الله ، وأن كل امرىء مخير فى الايمان أو الكفر « **وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر** » فهناك دار أخرى غير هذه الدار يحاسب فيها كل امرىء ، ويجزى بما يستحقه « **انا اعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها** » وللذين آمنوا وعملوا الصالحات « **جنات عـدن تجرى من تحتهم الأنهار** » .

وجاء أمر البعث فى المثل الذى ضربه الله للناس عن صاحب الجنتين وزميله ، وما كان من انكاره قدرة الله ، وشكه فى الساعة ، ونصح صاحبه له ، وتبرئه منه ، وأن الله قد أحال الجنتين صعيدا زلقا ، وحينئذ تنبه الكافر فقال : « **يا ليتنى لم أشرك بربى أحدا** » .

وجاء أمر البعث بعد هذا فى المثل الذى ضربه الله بالحياة الدنيا ، يكون فيها نبات وزينة ثم يصبح ذلك كله هشيما تذروه الرياح ، وتنتهى الدنيا وما فيها ، وقد عقب الله على هذا المثل بذكر الجبال وسيرها ، والأرض وبروزها ، والحشر وشموله ، والعرض على الله ، ووضع الكتاب ، واشفاق المجرمين مما فيه ، وقولهم : « **يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا** » .

وجاء فى السورة أيضا اشارة الى قصة آدم وابليس ، حيث طلب الله من الثانى أن يسجد للأول فأبى ، فتقررت بينهما العداوة منذ ذلك

اليوم الى أبد الدهر • وحذر الله أبناء آدم من أن يتخذوا الشيطان وذريته أولياء من دونه ، مع هذه العداوة المتأصلة ، ثم ذكر لهم أمرا من أمور الآخرة — بعد هذا التحذير من اتخاذ الأولياء أو الشركاء — حيث ينادى الشركاء فلا يجيبون ، ويستجار بهم فلا يجيرون ، وتبرز الجحيم فيراها المجرمون ، ويظنون أنهم مواقعوها ولا يجدون عنها مصرفا •

وفى هذا الأسلوب جمع بين المبدأ والمعاد ، ووضع لقضية الخلق والبعث مقترنتين بين يدى العقل ، ليدرك الانسان أنه منذ أول نشأته هدف لعدو مبين ، يحاول اضلاله ولفته عن الطريق المستقيم حسدا له وانتقاما منه ، وأن أخطر هذا الاضلال هو الوصول الى حد الثقة بالعدو المبين ، واتخاذه وليا من دون الله يتبع أمره ، وينصر هواه ، وأن هـذا العدو المخاتل سيكون أمره يوم الجزاء كسائر الشركاء ، يزينون الكفر والعصيان ما داموا فى الدنيا ، حتى اذا جاء أمر الله أعلنوا براءتهم ممن اتبعوهم وضلوا بسببهم : « **كمثل الشيطان اذ قال للانسان اكفر فلما كفر قال انى برىء منك انى أخاف الله رب العالمين ، فكان عاقبتهما أنهما فى النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين** (سورة الحشر الآية ١٦،١٧)

وجاء فى هذه السورة أيضا — مما يتصل ببراهين البعث — قصة موسى وفتاه والعبد الصالح ، وهى قصة عظيمة حافلة بالفوائد والمعانى الجليلة • وفيها يساق الحديث على نحو يشعر معه كل سامع شعورا قويا بأن لله علما فوق علم الناس ، وتصريفا للكون على سنن منها ما هو معروف ومنها ما هو خفى ، واذا آمن الناس بهذا واطمأنوا اليه ، لم يعد هناك مجال للعجب من أمر الساعة ، فما هى الا تغيير يحدثه خالق الكون ومالك ناصيته ، فاذا السنن المعروفة تحل محلها سنن أخرى ، ومن قدر على انشاء السنن قدر على تغييرها ، وبهذا يؤمن كل عاقل بصدق ما أخبر به المعصوم من كل أمر يبدو أمام العقول عجيبا ، وهو فى قدرة الله غير عجيب •

وجاءت السورة أيضا — بعد هذه القصة — بقصة أخرى عن عبد مكن الله له فى الأرض ، وآتاه من كل شىء سببا ، حيث سخر له العلم

والقوة والآلات والمواصل وأسبابا أخرى كثيرة ، ذلك هو «ذو القرنين» وقد لجأ اليه قوم ليحول بينهم وبين المفسدين ، فأنجدهم وأعانهم ، وجعل الله عمله فى ذلك رحمة للناس يبقى ما بقيت هذه الحياة ، فاذا جاء وعد الله ضاعت السدود والحوائل وأصبحت دكا ، وترك الناس مضطربين يموج بعضهم فى بعض ، ثم ينفخ فى الصور فيجمعون جميعا، وتعرض جهنم يومئذ للكافرين عرضا ، فيبصرون وقد كانت أعينهم من قبل فى غطاء ، ويسمعون وقد كانت آذانهم من قبل فى صمم • وهكذا نجد القصة قد انتهت الى أمر البعث والدار الآخرة وما فيها ، وتخلصت اليه فى براعة وقوة ، مذكرة به ، منذرة ما هنالك من الأهوال والشدائد•

ثم تأخذ السورة بعد ذلك فى تهديد الكافرين الذين اتخذوا من دون الله أولياء ، وما أعد لهم ، وتوازن هؤلاء جميعا بالذين آمنوا وعملوا الصالحات وما أعد لهم ، ويأتى ختامها بعد اثبات القدرة والعظمة لله، وأن كلماته لا تنفد ولو كتبت بماء البحار — والمراد آياته فى الكون وتصريفه وآثار قدرته — فتذكر رسالة الرسول ، وأنها عن وحى من هذا الخالق القادر الواحد ، وتتوجه بعد ذلك الى جميع الناس بصيغة من صيغ العموم ، هى لفظ « من » فتقول :

« فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا » •

بهذا يتجلى للناظر فى السورة أنها منتظمة النسق ، مطردة السياق، واضحة الغرض ، قوية الأسلوب ، متماسكة فى أولها وآخرها وأثنائها، يجول فيها معنى واحد تلتقى عليه الآيات والأمثال والقصص والوعد والوعيد والتذكير والبيان ، ولذلك يقول الله عز وجل فى آية من آياتها :
« ولقد صرفنا فى هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الانسان أكثر شىء جدلا » •

- ٢ -

القصص الثلاث التى جاءت فى سورة الكهف :

ساقت هذه السورة ثلاث قصص هامة لكل قصة منها مغزى واضح وعبرة خاصة مع تلاقيها فى المعنى العام الذى تركزه السورة .

تلك القصص الثلاث هى :

١ — قصة أصحاب الكهف .

٢ — وقصة موسى وفتاه والعبد الصالح .

٣ — وقصة ذى القرنين .

قصة أصحاب الكهف :

فأما قصة أصحاب الكهف : فيتجلى فيها ثبات الايمان وقوة العقيدة، والاعراض عن كل ما ينافيها اعراضا عمليا صارما ، لا تردد فيه ولا مواربة :فتية رأوا قومهم فى الضلال يعمهون ، وفى ظلمات الشرك يتخبطون ، لا حجة لهم ولا سلطان على ما يزعمون ، وأحسوا فى أنفسهم غيرة على الحق لم يستطيعوا معها أن يبقوا فى هذه البيئة الضالة بأجسامهم ولو خالفوها بقلوبهم ، فتركوا أوطانهم ، وتركوا مصالحهم واعتزلوا قومهم وأهليهم ، وخرجوا فارين متجنبين الشطط وأهل الشطط ، وآثروا كهفا يأوون اليه فى فجوة منه ، لا يراهم فيه أحد ، ولا يؤنسهم فى وحشتهم الا كلبهم .

ذلك هو مغزى القصة الخلقى ، وفيه ما فيه من ارشاد وايحاء وتمجيد لأخلاق الشرف والرجولة والثبات على العقيدة ، والتضحية فى سبيلها .

أما المعنى العام الذى تتلاقى فيه القصة مع غرض السورة ، فهو

اثبات قدرة الله على مخالفة السنن التى ألفها الناس وظنـوا أنهـا مستعصية عليه جل شأنه ، أن تبدل أو تحول كما هى مستعصية على كل مخلوق ، وشتان بين قدرة الخالق والمخلوقين ، وهذا ما تشير اليه القصة فى ثناياها ، اذ يقول الله عز وجل : « **وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها** » •

قصة موسى وفتاه والعبد الصالح :

وأما قصة موسى وفتاه والعبد الصالح : فلبابها ومغزاها ــ كما أشرنا الى ذلك ــ هو اثبات قصور الخلق مهما سمت عقولهم ، وكثرت علومهم ، أمام احاطة الله ، وعلم الله • وفى هذا المغزى نفسه برهان لمن تدبر على أن الذى له هذا العلم المحيط والتدبير المحكم لا ينبغى أن يناقض من أهل العلم المحدود ، والتتبع الناقص ، فاذا أنبأ الله أن وراء هذه الحياة حياة أخرى فيجب أن يصـدق ، وأن تقر العقول ، وتؤمن القلوب بأن نبأه هو الحقيقة الواقعة لا محالة ، وأن ما نعلمه من أمورنا وأحوالنا لا ينبغى أن يقاس به ما لا نعلمه مما غاب عنا ولم تتهيأ لادراكه عقولنا •

وقد جاءت هذه القصة فى ترتيب السورة بعد قوله تعالى : « **وربك الغفور ذو الرحمة ، لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب ، بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا** » وفى ذلك اشارة الى أن علم الناس واستعجال الناس لا قيمة لهما بجانب علم الله ، ولا تأثير لهما فى تدبير الله وجعله لكل شىء موعدا ووقتا لا تأخير فيه ولا تقديم •

قصة ذى القرنين :

وأما قصة ذى القرنين : فذات مغزى آخر ، هو تمكين الله لبعض عباده من العمل المجدى المثمر ، والاصلاح الذى يعم نفعه ، ويبقى أثره • فذو القرنين قد مكن الله له فى الأرض ، وآتاه من كل شىء سببا، وأقدره على أن يحول بين أهل الفساد وأن ينشروا فسادهم فى الأرض، فجعل عليهم سدا بقوة الله وتمكينه وتعليمه ومعاونتهم اياه بالقوة ، ولكن هذا سينتهى ــ أيضـا ــ كما ينتهى كل شىء فى هذه الحياة ، ولانتهائه وقت معلوم وموعد مضروب « **فاذا جاء وعد ربى جعله دكاء وكان وعد ربى حقا** » •

وضربت السورة فى أثناء هذا القصص مثلين : مثل صاحب الجنتين، ومثل الحياة الدنيا ، وقد بينا من قبل ما فى هذين المثلين من تأييد لعقيدة البعث والساعة ، بما لا نعود اليه ، وان كنا نرجو أن نفصل القول فيه حين نتكلم عليه فى التفسير ان شاء الله .

- ٣ -

مظاهر الثورة على الباطل والفساد فى سورة الكهف :

وفى هذه السورة يبدو طابع الثورة على الباطل والمبطلين فى صورة عنيفة ظاهرة العنف .

فالكتاب انما أنزل لينذر قوما ويبشر آخرين ، فهو فاصل بين فريقين ، مجابه للحقائق ، غير مكترث فى شأنها بأحد .

والذين قالوا اتخذ الله ولدا جهلة مفترون ، يقولون على الله ما لايعلمون هم وآباؤهم : **« كبرت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولون الا كذبا »** .

والنبى لا ينبغى أن يهتم بأمر هؤلاء ، سواء آمنوا بهذا الحديث أم لم يؤمنوا ، فان لأمر الله غاية ، ولهؤلاء مهما طال عليهم الأمد نهاية .

وأصحاب الكهف يثورون على الباطل ثورة تجعلهم يهجرون ديارهم وأهليهم ، ويؤثرون حياة التقشف والعزلة .

والله يأمر رسوله بأن يصبر نفسه مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، وألا يتجاوزهم بنظره واعتداده الى غيرهم يريد زينة الحياة الدنيا ، وتلك ثورة على الأقوياء والمستكبرين ، يعلن بها أنه لا هوادة ولا محاباة ، وأن الحق حق والباطل باطل ، ومن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر .

والرجل المؤمن يقاوم صاحب الجنتين الكافر ، ويعلنه فى وجهه برأيه فيه ، وأنه كافر بالذى خلقه من تراب ثم من نطفة ثم سواه رجلا ، ويباهيه لا بالمال ولا بالولد ، ولكن بالعقيدة فى الله الواحد الأحد ، القادر على أن يؤتيه خيرا من جنته وماله وولده ، وأن يرسل على الكافر حسبانا من السماء يأتى على ماله وثمراته .

والعبد الصالح متبرم بأسئلة موسى واعتراضاته التى هى نتيجة خفاء بعض الأمور عليه وقصور علمه • فهو زاهد فى صحبته ، مسرع الى الافتراق عنه ، مقرر أنه لا يستطيع معه صبرا ، وكيف يصبر على ما لم يحط به خبرا • وقديما قيل : (ويل لعالم أمر من جاهله) •

الى غير ذلك مما يسهل على القارىء تتبعه ، ليظهر له أن هـذه السورة تعلن الثورة فى كثير من جوانبها على الباطل والمبطلين ، والشرك والمشركين ، والظلم والظالمين ، والفساد والمفسدين ، حتى أنها لتعلن فى صراحة وقوة — قبيل ختامها — أن « الأخسرين أعمالا الذين ضـل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتى ورسلى هزوا » • فتضرب بهذا فى صدور كثير من المتعالمين المتفاخرين المتشدقين بأنهم أهل البصيرة والعرفان ، وانما هم أهل الجهل والعمى والضلال •

- ٤ -

هل فى سورة الكهف آيات مدنية ؟

المشهور بين العلماء أن سورة الكهف مكية كلها ، وأنها من السور التى نزلت جملة واحدة ، كما جاء فى الخبر الذى أخرجه الديلمى فى مسندالفردوس عن أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم ، اذ يقول : « نزلت سورة الكهف جملة » .

وقد روى ذلك أيضا عن بعض الصحابة واختاره الدانى ، ومشى عليه أكثر أهل التفسير والمتكلمين فى علوم القرآن .

وهناك روايات أخرى تخالف هذا المشهور ، فتقرر أن السورة مكية الا بعض آياتها فانه مدنى .

ثم اختلفت هذه الروايات فى تحديد هذا البعض المدنى . فقيل : انه من أول السورة الى قوله تعالى : « **وانا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا** » ، وقيل : انه من أول قوله تعالى : « **ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا** » الى آخر السورة . وقيل: السورة مكية الا قوله تعالى : « **واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى** » ومن أول قوله تعالى : « **ويسالونك عن ذى القرنين** » الى قوله : « **الذين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعا** » .

والقول الأخير هو الذى أخذت به اللجنة التى أشرفت على طبع المصحف الفؤادى بمصر ، وأثبتته فى رأس الصفحة التى بها هذه السورة من المصحف .

وينبغى أن يعلم أن كثيرا مما ذكر أنه مدنى تضمنته سورة مكية، أو مكى تضمنته سورة مدنية ، هو موضع خلاف بين العلماء ، لاختلاف الرواية فيه ، أو لانبناء الحكم فيه على اجتهاد واستنباط من القائل به .

وفى ذلك يقول ابن الحصار فيما نقله عنه السيوطى فى الاتقان ص ١٧ ج ١ : « كل نوع من المكى والمدنى منه آيات مستثناة ، الا أن من الناس من اعتمد فى الاستثناء على الاجتهاد دون النقل » .

والمراد بالاعتماد فى ذلك على الاجتهاد أن يستنبط الناظر فى رواية — ما — دليلا يدل على أن آية من الآيات مكية أو مدنية. كمااستدل على أن سورة الزلزلة مدنية بما أخرجه أبو حاتم عن أبى سعيد الخدرى ، قال : لما نزلت « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره » (سورة الزلة آية ٧).. قلت : يا رسول الله الخ . وأبو سعيد الخدرى لم يكن الا بالمدينة ، ولم يبلغ الا بعد أحد ، فدل ذلك على أن هذه السورة مدنية .

تحقيق فى شأن ما رواه ابن اسحق فى سبب نزول السورة :

وقد تناقل المفسرون فى سبب نزول سـورة الكهف رواية رواها محمد بن اسحق ، باسناد ذكره عن سعيد بن جبير وعكرمة ، عن ابن عباس جاء فيها أن النضر بن الحارث بن كلدة وعقبة بن أبى معيط ، أنقذتهما قريش الى أحبار اليهود بالمدينة ، وقالوا لهما : سلاهم عن محمد ، وصفا لهم صفته ، وأخبراهم بقوله ، فانهم أهل الكتاب الأول، وعندهم من علم الأنبياء ما ليس عندنا ، فخرجا حتى قدما المدينة ، فسألا أحبار اليهود عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وقالا لهم ما قالت قريش ، فقال لهم أحبار اليهود : سلوه عن ثلاث ، فان أخبركم بهن فهو نبى مرسل ، وان لم يفعل فهو رجل متقول فروا فيه رأيكم — وفى رواية : فان أجاب عن كلها أو لم يجب عن شىء منها فليس بنبى ، وان أجاب عن اثنتين ولم يجب عن واحدة فهو نبى — : سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ما كان أمرهم ؟ فانه قد كان لهم حديث عجب ، وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه ؟ وسلوه عن الروح ما هو ؟ فانصرفا الى مكة ، فقالا : يا معشر قريش ، قـد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد — وقصا عليهم القصة — فجاءوا الى النبى فسألوه ، فقال : أخبركم بما سألتم عنه غدا — ولم يستثن — أى لم يقل : ان شاء الله ، فانصرفوا عنـه ، فمكث خمس عشرة ليلة لا يحدث الله اليه فى ذلك وحيا — قال مجاهد : اثنتى عشرة ليلة ، وقال عكرمة : أربعين يوما — حتى أرجف أهل مكة ، وتكلموا فى ذلك ، فشق

على رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يتكلم به أهل مكة عليه ، ثم جاءه جبريل عليه السلام بسورة الكهف ، وفيها ما سألوه عنه من أمر الفتية والرجل الطواف ، وأنزل عليه : « **ويسألونك عن الروح** » الآية — وفى بعض الروايات : ثم نزل عليه جبريل بقوله : « **ولا تقولن لشىء انى فاعل ذلك غدا الا أن يشاء الله** »ونزل فى الفتية :« **أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا** » ونزل فيمن بلغ المشرق والمغرب : « **ويسألونك عن ذى القرنين** »ونزل فى الروح : « **ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى** » •

ويبدو لى أن هذه الرواية مصنوعة ككثير مما يذكر من أسـباب النزول فى كتب التفسير • فقد جاء فى أول سندها أن محمد بن اسحق يقول : حدثنى شيخ من أهل مصر قدم علينا منذ بضع وأربعين سنة عن عكرمة عن ابن عباس •• الخ • واذن فراويها مجهول لا يدرى من هو ولا ما حالته ، فهذا ضعف من حيث السند ، وأما من حيث ما تدل عليه فهى تفيد :

١ — أن السورة مكية كلها نزلت جملة واحدة، وفيها قصة ذى القرنين، وقد علمت أن ذلك موضع خلاف بين العلمـاء وأن هـذا هو الراجح فيه •

٢ — وأن قوله تعالى : « **ويسألونك عن الروح** » الآية مكية أيضا ، نزل جوابا عن السؤال الثالث من أسئلة المشركين التى أوعز بها اليهود • وهذا أيضا موضع خلاف • فقد أخرج الشيخان وغيرهما عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : كنت أمشى مع النبى — صلى الله عليه وسلم — بالمدينة وهو يتوكأ على عسيب ، فمر بقوم من اليهود ، فقال بعضهم لبعض : سلوه عن الروح ، وقال بعضهم: لا تسألوه ، فسألوه فقالوا : يا محمد ما الروح ؟ فمازال متوكئا على العسيب فظننت أنه يوحى اليه ، فلما نزل الوحى قال — وفى رواية — حتى صعدالوحى ثم قال — : « **ويسألونك عن الروح** » الآية • وأخرج أحمد والنسائى والترمـذى والحاكم وصححاه وابن حبان وجماعة عن ابن عباس قال : قالت قريش لليهود :

استطراد بشأن آية الروح ومعنى الروح فيها :

أعطونا شيئا نسأل هذا الرجل ، فقالوا : سلوه عن الروح ، فنزلت « ويسألونك » الخ •

وبهذا يتبين أن هناك خلافا فى سبب نزول هذه الآية ، ولذلك حاول بعضهم التوفيق بين الروايتين بأن الآية نزلت مـرة بمكة ومرة بالمدينة ، ولا أرى قبول مثل ذلك ، فانه لا دليل عليه ، وليس هو بمستقيم فى نفسه ، اذ يقال : ما الحكمة فى انزال آية بلفظها مرتين فى وقتين مختلفين ؟ وما فائدة ذلك ؟ والأولى أن يقال : ان آية الروح نزلت بمكة ، وان الروح هو القرآن • كما يدل عليه سياق الآية بين ما قبلها وما بعدها ، فان الحديث فى هذا السياق من قبل ومن بعد عن القرآن ، وقد كان أهل مكة يسألون عنه ، ويمارون فيه ، ويزعمون أن محمدا افتراه ، وأعانه عليه قوم آخرون ، فأنبأهم الله أن الروح من أمره هو ومن انزاله ، فليس لأحد فيه شىء ، لا محمد ولا غيره ، وان الله لو شاء لذهب بالذى أوحى به الى محمد ، فلا يستطيع محمد أن يفعل شيئا ، وان الانس والجن لا يستطيعون — ولو اجتمعوا — أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، وهذه هى الآيات نسوقها — كما جاءت فى سـورة الاسراء — ليتبين بتلاوتها صحة ما قلناه •

« وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين الا خسارا • واذا أنعمنا على الانسان أعرض ونأى بجانبه ، واذا مسه الشر كان يئوسا • قل كل يعمل على شاكلته ، فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا • ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم الا قليلا • ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا اليك ثم لا تجد لك به علينا وكيلا ، الا رحمة من ربك ان فضله كان عليك كبيرا • قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا • ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس الا كفورا » (سورة الاسراء من ٨٢ — ٨٩) •

وقد عبر الله عن الوحى الذى ينزله على أنبيائه بالروح فى

غير هذا الموضع ، اذ يقول : « ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا اله الا أنا فاتقون » ويقول : « رفيع الدرجات ذو العرش يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق » •

بل لقد سمى الله القرآن نفسه روحا اذ يقول : « وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا » (سورة الشورى الآية ٥٢) ولم يأت فى الكتاب العزيز تعبير بلفظ الروح عن الشىء الخفى الذى هو مدار البدن ومبدأ الحياة •

فمن هذا كله يظهر أن المراد بالروح فى قوله تعالى : « ويسألونك عن الروح » هو القرآن الكريم ، وأن الآية نزلت بمكـــة ، لأن المشركين هم الذين كانوا يتساءلون عن القرآن ، ويزعمون أنه ليس من عند الله • أما ما أخرجه الشيخان وغيرهما عن ابن مسعود فيحمل على أن ابن مسعود ظن أن النبى قد نزل عليه وحى على اثر سؤال اليهود ، واجابته بهذه الآية ، وقد فهم ذلك من قيام رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ متوكئا فترة ظنها فترة ايحاء ، وانما رد عليهم بهذه الآية بعد التأمل فى سؤالهم ، وهى مما نزل عليه بمكة •

٣ ــ بقى أن رواية ابن اسحق تدل على أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قد ارتكب خطأ ، فعوقب عليه بحبس الوحى عنه فترة من الزمان ــ حيث لم يقل : ان شاء الله ــ ، وأنه عوتب وأدب بقوله تعالى : « ولا تقولن لشىء انى فاعل ذلك غـــدا الا أن يشاء الله » •

ولم أجد خبرا يؤيد تلك الرواية فى هذا الأمر الخطير ، بل ان ابن جرير يقول فى تفسيره لهذه الآية : (فاحتبس الوحى عنه فيما قيل من أجل ذلك خمس عشرة ليلة الخ) فتنبىء عبـــارته بضعف هذا القول ، فلا ينبغى أن نعتمد فى هذا الشأن على تلك

الرواية الضعيفة فى نفسها ، وان كان بعض ما فيها قد صح رواية أو معنى بغيرها .

ولذلك نقول : ان قوله تعالى لرسوله عليه الصلاة والسلام : « ولا تقولن لشىء الآية . انما هو تعليم منه وارشاد لنبيه ، يستأنفه الله تعالى كما هو شأنه فى تخول رسوله بالموعظة وتعهده بالتعليم فى كل مناسبة ، وليس له صلة بمخالفة سابقة كما يزعمون .

وجوب التحفظ فى قبول ما يروى من أسباب النزول :

ويتلخص من هذا البحث أن هذه الرواية التى اعتمد عليها كثير من المفسرين فى بيان سبب نزول سورة الكهف تدل على ثلاثة أمور ، اثنان منها وردت بهما روايات غيرها مع قبولهما فى المعنى ، وهما نزول سورة الكهف وآية الروح بمكة ، والثالث لم ترد به رواية مؤيدة لهذه الرواية الضعيفة ، ولا سبيل الى القول به من غير علم .

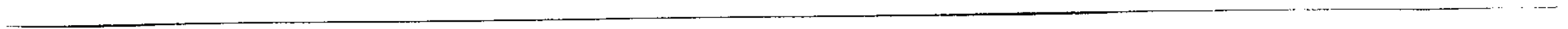
واذن فلا يصح الاعتماد على هذه الرواية فى معرفة سبب نزول السورة ، وليس يجب علينا فى كل سورة أو كل آية أن نعرف سبب النزول ، فان القرآن — وهو الكتاب العربى المبين — ليس فى حاجة الى أمثال هذه الروايات لكى يتلقى فى محيطها ، ويفهم فى دائرتها ، بل ان كثيرا منها — علم الله — لمدسوس على القرآن ، ليس له أصل صحيح ، ولكثير من المفسرين ولع بذكره والبناء عليه ، كأنه شىء ملحق بمعنى الكتاب الكريم لا يتم الا به . ومن الواجب على كل ناظر فى كتاب الله تعالى أن يتحفظ فى قبول ما يروى من مثل ذلك ، فلا يقبلمنه الا ماصح متنا وسندا ، لأن أثره فى كتاب الله بعيد ، ولأنه يقيد العقول فى فهم هذا الكتاب المبين ، فلينظر العاقل بأى قيد يتقيد ، وأى شهادة فى كتاب الله يتقبل .

والحقيقة أنه ليس هناك سبب خاص معين لنزول هذه السورة ، وانما هى قسم من كتاب الله ، أنزل تثبيتا للنبى — صلى الله عليه وسلم — وتبيانا وموعظة ، وقد كانت البيئة التى نزل فيها القرآن بمكة بيئة حجاج وجدال وسؤال وتعنت ، وكانوا يستعينون فى ذلك بكل شىء،

فكانوا يلتقون باليهود وبغير اليهود ، ويتساءلون فيما بينهم عن أمر هذا النبى وما ينزل اليه ، ويتبادلون الرأى فى ذلك ، فمن الطبيعى أن تشيع بينهم روح خاصة فى كل فترة من فترات علاقتهم بالرسول ، فتارة يتساءلون عن القرآن ، وهل هو حقا من عند الله ؟ وتارة يتساءلون عما عند أهل الكتاب من أخبار الماضين كأصحاب الكهف ، أو قصة موسى وفتاه والعبد الصالح ، أو قصة ذى القرنين ، وتارة يتحدثون فى البعث وما وراءه : الى غير ذلك مما تعودت البيئات أن تلهج بمثله ابان الدعوات والتغييرات الفكرية من دينية أو اجتماعية • فاذا كانت سورة كسورة الكهف جوابا لشىء من الأسئلة فانها جواب عن تلك الأسئلة التى لم تصدر من واحد بعينه ، أو عن جماعة فى مجلس مع الرسول ، ولكن تحدث بها القوم فيما بينهم أو تناقلوها على صورة ما ، فنزل فيها من الله قرآن •

أقول هذا بصفة عامة ولا أقصد جزئية بعينها مما عسى أن يكون قد صح نقلا ومعنى ، فينبغى قبوله والتعويل عليه وبالله التوفيق •





التفسير

١ ـ قال الله تعالى :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل
لَّهُۥ عِوَجَا ۜ (١) قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا
حَسَنًا (٢) مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (٣) وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ
ٱللَّهُ وَلَدًا (٤) مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ
كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (٥)
فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا
ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا (٦) إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا
لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (٧) وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا
صَعِيدًا جُرُزًا (٨)

« الحمد » هو الثناء بالجميل على واهب الجميل ، واثباته لله تعالى تقرير للواقع الحق فى شأنه عز وجل ، وتعليم لنا كيف نثنى عليه .

معنى الحمد واثباته لله :

أما كونه تقريرا للواقع الحق فى شأنه تعالى ، فلأن الله هو الواهب لكل نعمة على الحقيقة ، فما من شىء فى الوجـود الا ومصـدره الله جل وعلا ، فهو ذو الخلق والايجاد ، والرحمة والامداد ، واذا كان الله هو فاعل الجميل وواهبه على الحقيقة ، فهو المستحق للحمد فى الواقع، والحمد ملكه وحقه ، وسواء أحمده الحامدون أم لم يحمدوه ، فهـو المحمود أزلا وأبدا ، ولكنهم حين يعترفون بفضله ، وينطقون بحمده، تشرق قلوبهم بنوره ، وتمتلىء بعظمته وجلاله ، فترجع اليهم الفائدة لا اليه عز ثناؤه ، وجل علاه .

وأما كون ذلك تعليما لنا كيف نحمده ، فلأن القـائل لو قال : « أحمد الله » أو « حمدا لله » أو ما شاكل ذلك ، لما دلت عبارته على أن الحمد ثابت لله متقرر على نحو ما بينا ، ولما أفادت أكثر من أنه ينشىء الحمد لله ، وأدب العبد مع الرب يقتضى أن يكون ثناؤه اعترافا بالواقع، لا أن يكون فى صورة الانشاء والاحداث ، ولذلك نرى كل ما جاء فى القرآن الكريم جاريا على هذا النمط . ومن ذلك قوله تعالى :

« **الحمد لله رب العالمين** » (سورة الفاتحة آية ٢) « **الحمد لله الذى خلق السموات والأرض** » (سورة الأنعام آية ١) « **الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسماعيل واسحق** » (سورة ابراهيم آية٣٩) « **الحمد لله الذى هدانا لهذا** » (سورة الأعراف آية ٤٣) « **وهو الله لا اله الا هو له الحمد فى الأولى والآخرة** »(سورةالقصص آية ٧٠)
« **وله الحمد فى السموات والأرض** » (سورة الروم آية ١٨)
« **له الملك وله الحمد** » (سورة التغابن آية ١)
« **ويسبح الرعد بحمده** » (سورة الرعد آية١٣)
« **وان من شىء الا يسبح بحمده** » (سورة الاسراء آية ٤٤) .

ولم يأت فى شىء من القرآن الكريم : احمدوا ربكم مثلا ، كما جاء « استغفروا ربكم » ، « واعبدوه واشكروا له » لأن الشكر والاستغفار منشآن من الشاكر والمستغفر فى مقابلة نعمة خاصة ، أو ذنب واقع ، أما الحمد فهو له تعالى ، حتى لو تصورنا أنه لم ينطق به أحد لكان

ثابتا لله ، كما هو الشأن فى جميع صفات الجمال والجـلال ، فكما أن « سبحان الله » أى تنزهه عن كل ما لا يليق ثابت لله ، سواء وجد من ينزهه أم لم يوجد ، كذلك « الحمد لله » ثابت سواء أقرت به الألسنة أم لم تقر .

نعم جـاء الحمد مطلوبا فى القرآن الكريم ، ولكن بمثل قوله : « فسبح بحمد ربك » (سورة النصر آية ٣) وشتان بين هذا وبين طلب

ومما يوضح هذا المعنى ويزيده جلاء أنك قد تقول : حمدت فلانا ، وحمدت خلق فلان ، فتأتى بالفعل من الحمد ، كما تأبى به من المدح، وقد جاء من ذلك فى التنزيل العزيز قوله تعالى : « ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا » (سورة آل عمران آية ١٨٨) وتقول : فلان محمود الخلق ، أو محمود الرأى ، أو نحو ذلك فتأتى باسم المفعول ، وقد جاء فى التنزيل العزيز من ذلك قوله تعالى : « عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا » (سورة الاسراء آية ٧٩) لكنك لا تقول : الحمد لفلان ، ولا فلان له الحمـد ، حتى الملوك فـلا يقال : الحمـد للمـلك ، ولا للملك الحمد ، وانما يقـال ذلك فى جـانب الله فقط ، وما ذاك الا لاختصاص هذا التركيب بكمال فى معنى الثناء ، لا يصدق الا فى حق الكامل كمالا مطلقا ، من حيث الفضل والافضال جل ثناه ، كما جل علاه.

هذا هو معنى « الحمد لله » اعتراف بالواقع الحق فى جـانب الربوبية ، وهو أن الله مصدر كل نعمة وكل احسان ، وأنه المتصـف بجميع صفات الكمال .

سـورة الحمد فى القرآن

وقد جـاء فى القرآن الكريم سور خمس مبدوءة بقوله تعالى : « الحمد لله » احداها هذه السورة — سورة الكهف — والأربع الأخرى هى سورة الفاتحة ، وسورة الأنعام ، وسورة سبأ ، وسورة فاطر ، وفى كل سورة منها تتبع هذه الجملة بأوصاف الله عز وجل ، تدور حول نعمتين هما أساس النعم كلها مهما تنوعت وتعددت : نعمة التربيـة المادية ، ونعمة التربية الروحية ، وذلك أن الله جلت حكمته قد أفاض على هذا العالم فيض الخلق والايجاد ، فأوجد الناس ، وأوجد الحيوان والنبات والماء والأرض والسماء والشمس والقمر والنجوم والهواء ، وسخر ذلك كله للانسان على نحو يجعله سـيد هـذا الكون وعماده

وأساس عمارته ، ثم لم يتركه وحده بلا نور يضيء له السبل ، ويهديه للتى هى أقوم ، ولكنه أمده بالشرائع يرسل بها رسله وينزل بها كتبه ، ويبين فيها ما يكون به الصلاح والفساد ، والهدى والضلال ، والسعادة والشقاء ، ولو ترك الله العالم بدون هذه الهداية لاضطرب نظامه واختل بنيانه ، فان العقول متفاوتة ، والأفكار متضاربة ، والأهواء متشعبة ، ومن شأن ذلك أن يجر الى النزاع والخصام وتناحر القوى ، ويؤدى الى التفانى والخراب ، فلم يكن بد من هداية سماوية تكون ضابطا وميزانا تتحاكم اليه العقول ، وتهتدى بهديه ، وتلك هى نعمة التربية الروحية بعد التربية المادية •

وقد بدئت سورة الفاتحة بقوله تعالى : « **الحمد لله رب العالمين** » (سورة الفاتحة آية ٢) فانطوى تحت هذه الربوبية المعنيان جميعا : ربوبية الخلق والايجاد والامداد ، وربوبية الهدى والتعليم والارشاد •

وبدئت سورة الأنعام بقوله تعالى : « **الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون** » (سورة الأنعام آية ١) وتلك هى ربوبية الخلق والايجاد والتسخير •

وبدئت سورة الكهف بقوله تعالى : « **الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب** » وتلك ربوبية الهداية والتعليم ، والانذار والتبشير ، « **ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حى عن بينة** » (سورة الأنفال آية ٤٣)

وبدئت سورة سبأ بقوله تعالى : « **الحمد لله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض وله الحمد فى الآخرة وهو الحكيم الخبير** » (سورة سبأ آية ١) وتلك هى ربوبية المالك المتصرف المستحق للحمد بفضله وأفضاله ، ذى الحكمة والخبرة •

وبدئت سورة فاطر بقوله تعالى : « **الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد فى**

الخلق ما يشـــاء ان الله على كل شىء قدير » (سورة فاطر آية ١) وفى ذكر الملائكة ورسالتهم وأصنافهم اشارة الى نعمة التنزل بالوحى والكتب على الأنبياء والرسل •

وإذا تتبعنا كل سورة من هذه الســور الخمس ، وجــدنا أن موضوعاتها تتناسب مع فواتحها تمام التناسب ، وتجلى نعمة من هاتين النعمتين ، وفى هذه المعنى يقول الامام الرازى : (ان نعم الله مع كثرتها وعدم قدرتنا على احصائها منحصرة فى قسمين : نعمة الايجاد ، ونعمة الابقاء ، فان الله تعالى خلقنا أولا برحمته ، وخلق لنا ما نقوم به ، فقوله تعالى : « **الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور** » اشارة الى الشكر على نعمة الايجاد •• وقوله : « **الحمد لله الذى انزل على عبده الكتاب** » اشارة الى الشكر على نعمة الابقاء ، فان الشرائع بها البقاء ، ولولا شرع ينقاد له الخلق ، لاتبع كل واحــد هواه ، ولوقعت المنازعات فى المشتبهات ، وأدى الى التقاتل والتفانى)•

ويقرب من هذا ما ذكره الحافظ ابن كثير فى تفسيره اذ يقــول ما خلاصته :

وقد وجدنا القرآن الكريم يثبت الحمد لله تعالى عند فواتح الأمور العظيمة وخواتيمها ، فقد حمد نفسه فى أول كتابه اذ يقول « **الحمد لله رب العالمين • الرحمن الرحيم • مالك يوم الدين** » وحمد نفسه على انزاله الكتاب العزيز على رسوله الكريم اذ يقول : « **الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيما** » ، فانه أعظم نعمــة أنعمها على أهل الأرض ، اذ أخرجهم به من الظلمات الى النــور ، وحمد نفسه على خلق السموات والأرض اذ يقول : « **الحمد لله الذى خلق السموات والأرض ، وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون** » (سورة الأنعام آية ١) وكما افتتح خلقه بالحمد اختتمه بالحمد فقال بعد ما ذكر مآل أهل الجنة وأهل النار : « **وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين** » (سورة الزمر آية ٧٥) ولهذا قال تعــالى : « **وهو الله لا اله الا هــو له الحمــد فى الأولى والآخــرة له الحــكم**

واليــه ترجعون » (سورة القصص آية ٧٠) كمــا قــال تعــالى : « **الحمد لله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض وله الحمد فى الآخرة وهو الحكيم الخبير**» (سورة سبأ آية ١) فله الحمد فى الأولى والآخرة: أى فى جميع ما خلق وما هو خالق،هوالمحمود فى ذلك كله كما يقول المصلى: « اللهم ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ما شــئت من شيء بعــد » ولهذا يلهم أهــل الجنة تسبيحه وتحميده ، كما يلهمون النفس ، أى يسبحونه ويحمدونه عدد أنفاسهم ، لما يرون من عظيم نعمه عليهم ، وكمال قدرته ، وعظيم سلطانه ، وتوالى مننه ، ودوام احسانه اليهم • كما قال تعالى : « **ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بايمانهم تجرى من تحتهم الأنهار فى جنات النعــيم ، دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخــر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين** » (سورة يونس آية ٩ ، ١٠) •

سر التعبير عن الرسول بالعبودية

ذكر الله عز وجل فى مطلع هذه السورة بعد اثبات الحمد له نعمة انزال الكتاب على عبده ، والمراد بالكتاب القرآن الكريم ، وفى التعبير عن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بقوله : « عبده » تشريف له حيث نسب الى الله ، كما شرفه بهذه النسبة أيضا فى السورة التى قبلها حيث قال : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا » وفى هذه النسبة معنى آخر ، حيث بين بها أن هذا الرسول ما هو الا عبد الله كســائر عباده ، وقد جاء هذا المعنى فى ختام السورة حيث أمره صلى الله عليه وسلم بأن يقول : « انما أنا بشر مثلكم يوحى الى » أى فلا فرق بينى وبينكم الا هذا الفرق ، ولست أزعم لنفسى منزلة غير منزلة العباد بالنسبة الى رب العباد •

وصفان وغرضان للكتاب الكريم :

وقد ذكرالله للكتاب الذى أنزله على عبدهوصفين، وحدد له غرضين:

فأما الوصفان فهما قوله تعالى : « **ولم يجعل له عوجا ، قيما** » •

قالوا : ان « العوج » فى المعانى ــ بكسر العين ــ كالعوج فى الأشياء ــ بفتح العين ــ يقال : فلان فى خلقه عوج ، وفى عصاه عوج، والمراد أن هذا الكتاب مبرأ من الاختلاف والتناقض ، لا ترى فى معانيه اضطرابا ولا تفــاوتا ، ولا يخــرج شيء منــه عن دائرة الحكمــة

« أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » (سورة النساء آية ٨٢) .

والقيم فسر بمعنى الاستقامة ، وبمعنى القوامة والهيمنة ، والأخير أولى ، لأن المستقيم هو الذى لا عوج فيه ، فلا معنى لأن يؤتى بوصفين معناهما واحد ، وقد جاء القرآن قيما ومهيمنا على كل ما عداه « مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه » فالمعنى : أن القرآن حاكم يقضى على غيره ، ولا يقضى غيره عليه .

وفى الاتيان بهذين الوصفين للكتاب العزيز فى هذه السورة تمهيد لما سيساق فيها من آيات قدرة الله ، حيث ذكر أنواعا من القصص والأمثال ، يبين بها للناس ما هم فى شك منه من أمر البعث ، فكأنه يقول لهم : تلك آيات الله ليس فيها من اختلاف أو تفاوت ، وذلك كتاب الله هو الحكم الصادق فى كل ما يحكم به أو ينبىء عنه ، فاذا خالف فى أحكامه أو قصصه ما سواه فهو الصادق وهو القيم المهيمن .

وأما الغرضان اللذان حددا فى هذه الآية لانزال الكتاب فهما : الانذار والتبشير ، وهما أساس الرسالة فى كل ما جاءت به ، فمن كذب الرسول واتبع الهوى وآثر الباطل ، كانت رسالة الرسول له انذارا وتحذيرا مما يكون له من عاقبة ومصير فى الدنيا والآخرة ، ومن صدق الرسول وآمن بما جاء به ونزل على أمر الله وتشريعه ، كانت له البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، ويرجع الى الانذار والتبشير كل ما جاء من الترغيب والترهيب ، والجنة والنار ، والحلال والحرام ، والأمر والنهى ، والرجاء والخوف ، والقصص والأمثال ، وغير ذلك . فهما الأساس والعماد .

والانذار يتضمن المنذر والمنذر به ، فالمنذرون هم كل مكذب كافر خارج على أمر الله ، والمنذر به هو البأس الشديد ، وقد حذف الأول للعلم به من مقابله المذكور فى قوله : « ويبشر المؤمنين الذين يعملون

الصالحات » كأنه قال : لينذر الكافرين المتمردين على أحكام الله ، وفى حذفه فائدتان :

احداهما : أنه بذلك يعم جميع أصناف المتمردين المخالفين فى أية صورة من صور الخلاف والتمرد ، كفرا كانت أو عصيانا .

والثانية : أنه بذلك يعف عن ذكرهم ، ويترفع عن النطق بصفتهم، تصونا وتنزها عنهم ، واهمالا وتحقيرا لهم .

وقد وصف المنذر به بوصفين : أحدهما أنه شديد ، والآخر أنه « من لدنه » أى من عنده تعالى . وناهيك ببأس يصفه الله تعالى بالشدة وبأنه صادر منه .

بيان ذلك أن « الشدة » وصف يشعر فى نفسه بالهول والفظاعة، ولا سيما وقد وصفه بذلك الله القوى القادر العليم ، وكون هذا البأس صادرا من الله آكد فى اثبات شدته وهوله .

التعبير بـ (لدن) غير التعبير بـ (عند) فى القرآن :

وقد وجدنا القرآن الكريم لا يذكر كلمة « لدن » الا فى موضع يراد به الدلالة على معنى التمكن ، أى تمكن الصدور عمن أضيفت له ، وانما كان ذلك لأن « لدن » أقوى من « عند » فى افادة هذا المعنى . فاذا قلت : أصبت من عند فلان مالا ، فقد دللت بذلك على أن المال صادر عنه ، فيصح أن يكون مما يعتز به ويعتد بحفظه ، ويصح أن يكون مالا عاديا ليس له بالغ قيمة . أما اذا قلت : أصبت من لدنه مالا، فقد دللت بذلك على أن المال متمكن منه ، أى من حر ماله ومما يدخر ويعتز به ، ولا يبذل الا فى موضع يستحقه ويستأهله ، كالمال الذى يدخر للمهام ، وهكذا فى كل ما يراد فيه الدلالة على تمكن الصادر ممن

صدر عنه ، واعتزازه به ، وفى القرآن الكريم « **قد بلغت من لدنى عذرا** » كأنه قال : قد وصلت الى أقصى ما فى نفسى من قبولى لعذرك واقتناعى به ، وفيه أيضا « **ربنا آتنا من لدنك رحمة** » « **فهب لى من لدنك وليا** » (سورة مريم آية ٥) « **واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا** » (سورة الاسراء آية ٨٠) « **وعلمناه من لدنا علما** » ولا يخفى أن هذه المواضع كلها تفيد التمكن والاختصاص الذى ذكرناه ، فان الذى دعا بقوله تعالى : « **ربنا آتنا من لدنك رحمة** » هم فتية الكهف لما خرجوا من ديارهم ، وأووا الى كهفهم ، فى حالة تبين فيها شدة احتياجهم الى رحمة من الله فوق ما يعهد الناس ويألفون ، ولذلك أجاب الله دعوتهم برحمة من لدنه ، هى هذا الخارق العظيم الذى هيأه لهم ، وكذلك كانت دعوة زكريا طلبا لرحمة خاصة ، اذ هو يريد أن يهبه الله وليا بعد ما وهن العظم منه ، واشتعل الرأس شيبا ، وأصبحت امرأته عاقرا ، فلا شك أن اجابته الى ذلك لا تكون الا بخرق السنن العادية، وكذلك القول فى « السلطان » الذى أمر الله رسوله أن يطلبه منه ، وفى العلم الذى آتاه الله لصاحب الخوارق ، وهو العبد الصالح فى قصة موسى •

وبهذا يتبين أن وصف الله تعالى للبأس الشديد بأنه من لدنه يشعر بتأكيد شدته وهوله •

أما فى التبشير فقد ذكر الله الذين وجهت اليهم البشارة ، وذكر المبشر به ، فالمؤمنون هم الذين لهم البشرى ، وليسوا هم المؤمنين بمجرد القول أو الاعتقاد الذى لا تظهر آثاره ، وانما هم المؤمنون الذين يعملون الصالحات ، وما به البشرى هو الأجر الحسن • وقد أتبعه الله بما يدل على أنه الجنة ، اذ يقول : « **ماكثين فيه أبدا** » أى خالدين فيه لا ينقضى متاعهم ، ولا ينتهى ثوابهم •

وقد أعاد الله أمر الانذار على نحو آخر فقال : « **وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا** » فذكر المنذرين ولم يذكر ما به الانذار ، عكس

الأول ، فكأنه خص هؤلاء بالذكر من بين طوائف المنذرين ، لفظـاعة ما يقولون به وهول ما يفترون على الله •

وقد ذكر القرآن الكريم فى مواضع عدة أصناف هؤلاء المفترين والرد عليهم • فمن ذلك قوله فى شأن الذين زعموا أن الملائكة بنات الله:

« وجعلوا له من عباده جزءا ان الانسان لكفور مبين ، أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين ، واذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسودا وهو كظيم ، أو من ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين ، وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا أشهدوا خلقهم، ستكتب شهادتهم ويسألون » (سورة الزخرف آية ١٥ ــ ١٩) •

« فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون ، أم خلقنا الملائكة اناثا وهم شاهدون ، ألا انهم من افكهم ليقولون ولد الله وانهم لكاذبون ، أصطفى البنات على البنين ، مالكم كيف تحكمون » •
(سورة الصافات آية ١٤٩ ــ ١٥٤)

« أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة اناثا ، انكم لتقولون قولا عظيما » (سورة الاسراء آية ٤٠) •

ومن ذلك قوله فى النصارى الذين قالوا : المسيح ابن الله ، واليهود الذين قالوا : عزير ابن الله ، ومن كان قبلهم من قدماء الوثنيين فى الشرق والغرب القائلين بالتثليث :

« وقالت اليهود عزير ابن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون » (سورة التوبة آية ٣٠) •

« يأهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله الا الحق انما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه ، فآمنوا بالله ورسله ، ولا تقولوا ثلاثة ، انتهوا خيرا لكم ، انما الله اله واحد ، سبحانه أن يكون له ولد ، له ما فى السموات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلا ، لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم اليه جميعا » (سورة النساء الآيتان ١٧١ — ١٧٢) •

« لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة ، وما من اله الا اله واحد ، وان لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم ، أفلايتوبون الى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم • ما المسيح ابن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا ياكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون » •
(سورة المائدة الآيات ٧٣ — ٧٥)

الى غير ذلك من الآيات المتضمنة لأقوالهم والرد عليهم ، والمنذرة لهم بعذاب شديد •

وقد عقب الله عليهم فى سورة الكهف بقوله : « ما لهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولون الا كذبا » فقد نفى عن الحاضرين منهم والأقدمين أن يكون لهم به شىء من العلم ، وانتفاء العلم بالشىء قد يكون للجهل بالطريق الموصل اليه ، وقد يكون لأنه فى نفسه باطل لا حقيقة له ولا وجود ، ومعلوم أن اتخاذ الله للولد محال باطل ، ولكن الله عز وجل لا يرد عليهم فى هذه الآية ببطلانه فى نفسه أول الأمر، وانما يظهرهم على حقيقتهم قوما يقولون ما لا يعلمون، ويهرفون بمالا يعرفون ، وذلك أبلغ فى تسفيههم واثبات ضلالهم ،

وشتان بين أن تقول لانسان : ان هذا الذى تزعمه باطل وأن تقول له : أنت تصدر فيما تقوله عن غير علم ، فالأول أخف ، لأن الخطأ بعد البحث والنظر جائز ، وكثيرا ما يقع . أما أن يحكم الانسان بغير علم ولا نظر ولا روية فهذا يدل على سفاهته وضعف عقله وشططه ، وشبيه بهذا قوله تعالى :

« ومن يدع مع الله الها آخر لا برهان له به فانما حسابه عند ربه » (سورة المؤمنون آية ١١٧) وقوله فى الرد على من زعم أن الملائكة بنات الله : « أم لكم سلطان مبين . فأتوا بكتابكم ان كنتم صادقين » (سورة الصافات آية ١٥٦ ــ ١٥٧) فمن المعلوم أنه لا برهان على الشرك ولا حجة ولا سلطان على أن لله ولدا ، ولكنه ساق الكلام على هذا الأسلوب متحديا الكافرين بالبرهان والسلطان ، ليبين أن من زعم ذلك فقد رمى عن جهالة وعمى ، وقال ما لم يدر عن طريق الاستدلال والحجة والبرهان أنه خطأ أو صواب ، ولما كان زعم اتخاذ الولد كفرا عظيما شنيعا عقب الله على حكايته بقوله : « كبرت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولون الا كذبا » فوصف هذه الكلمة بأنها كبيرة : أى شنيعة فظيعة، وهذا مثل قوله تعالى : « وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيئا ادا . تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا . أن دعوا للرحمن ولدا . وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا » (سورة مريم ٨٨ــ٩٢) ووصف الكلمة أيضا بأنها « تخرج من أفواههم » اشارة الى تأكيد المعنى السابق من أنهم لم يحكموا فى ذلك عقلا ، ولا رجعوا فيه الى دليل ، وانما هو شىء تتلفظ به ألسنتهم ، ويخرج من أفواههم تقليدا وعنادا ، وقلوبهم تأباه ، وعقولهم تنفر منه ، وما ذلك القول منهم الا كذب وزور، لأنه لا يطابق الواقع ، ولا يحكم به عقل سليم ، ولا تعتقده نفس على الفطرة التى فطر الله الناس عليها .

تسلية للرسول :

وبعد أن بين الله الغرض من انزال الكتاب على عبده ، وأنه

محصور فى الانذار والتبشير ، أراد أن يخفف على رسوله ومصطفاه ما يجده من الحزن والألم على اعراض القوم ، وتوليهم عن الايمان بالكتاب ، فقال جل شأنه : **« فلعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا »** •

وأصل البخع : الجهد • يقال : بخعت لك نفسى : أى جهدتها ، وقيل : بخع الرجل نفسه : أى قتلها غيظا من شدة وجـده بالشىء ، والمعنى على الانكار والنهى ترفقا به ، واشفاقا عليـه ، أى لا تذهب نفسك عليهم حسرات ، ولا يضيق صدرك بتكذيبهم وعنادهم •

وقد جاء هذا الانكار والنهى معللا بعلتين ، علة من قبله ، وعلة من بعده :

فأما العلة التى من قبله فيشير اليها ربط الجملة بالفاء فى قوله : **« فلعلك »** فانه لما قدم له أنه أنزل الكتاب عليه لينذر ويبشر ليس الا ، كان ذلك بمثابة قوله فى الآيات الأخرى : **« انما أنت منذر ولكل قوم هاد »** (سورة الرعد آية ٧) **« فذكر انما أنت مذكـر • لست عليهم بمسيطر »** (سورة الغاشية الآيتان ٢١ ، ٢٢) **« كتاب أنزل اليك فلا يكن فى صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين »** (سورة الأعراف آية٢) **« ان الينا ايابهم ثم ان علينا حسابهم »** (سورة الغاشية آية ٢٥ ، ٢٦) **« فانما عليك البلاغ وعلينا الحساب »** (سـورة الرعـد آية ٤٠) والمعنى فى ذلك كله : أنك غير مسئول الا عن تبلغ الرسالة ، ولست مكلفا بأن يجيبوك اليها حتى تحزن عليهم أو تضيق ذرعا بتكذيبهم •

وأما العلة التى من بعده فهى قوله تعالى : **« انا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا ، وانا لجاعلون ما عليهـا صعيدا جرزا »** أى أن الأمر أمر ابتلاء واختبار ، فقد جعلنا كل ما على هذه الأرض من متاع وأموال وبنين وبنات وحيوان ونبات ، زينة لها

تسبى العقول ، وتخلب الأنظار ، وتستهوى الناس ، ليتبين أى النـــاس يثبت أمام اغرائها وفتنتها ، فيقف منها موقف العقل والرزانة ، ويؤثر أمر الله وطاعةالله ، وأيهم سيقع فى حبائلها وينسىدينه وعقيدته وما كلفه الله من عمل صالح فى سبيل ايثارها والتمتع بها ، وان لذلك لأجـــلا موقوتا ، فاذا جاء أمر ربك صيرنا ما عليها صعيدا جرزا •

والصـــعيد : كل ما صعد على وجه الأرض ، والجرز : المجروز يقال : جرزت الأرض ما عليهـــا : أى أكلته وأفنته وجرزها الجـــراد والشاء : أى أكل ما عليها ، وامرأة جروز : أى أكول •

والمعنى المراد من ذلك : أن الأمر أمر ابتلاء ، وأن لنا فى ذلك حكمة ومن ورائه غاية سوف نحققها ، فلا تبتئس اذن ولا تبخع نفسكَ حزنا وأسفا على من كشف الابتلاء معدنهم الخبيث وطبيعتهم الفاسدة، فتلك هى سنة الابتلاء •

٢ ـ قال الله تعالى :

أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ
وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى
ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا
مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ
سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ
لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾

بيان معانى المفردات :

أم حسبت :

أم هـذه منقطعة معناها الاضراب ، وتتضمن مع ذلك استفهاما انكاريا ، والمعنى : بل أحسبت ، ومثلها فى ذلك كأم فى قوله تعالى: « أم له البنات ولكم البنون » (سورة الطور آية ٣٩) فان تقديره: بل أله البنات ولكم البنون ، اذ لو قدرت للاضراب المحض للزم المحال ، اذ يكون التقدير : بل له البنات . والذى حسن هـذا الاضراب أنه مسبوق بقوله تعالى :« فلعلك باخع نفسك » وفيه معنى الاستفهام والانكار عليه ، فكأنه قال : دع هذا وقل لنا : أحسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا ؟ فهو انتقال من استفهام انكارى الى استفهام انكارى ، يربط بينهما فى المعنى أن الغاية منهما تثبيته صلى الله عليه وسلم ، وطرد أسباب الوهن عنه ، حتى لا يحزن ولا يضعف أمام أى تحـد واقـع أو متوقـع .

الـكهف :

الغار فى الجبل ، الا أن الكهف واسع ، فاذا صغر فهو غار .

الرقيم :

قيل : اسم مكان ، وقيل : هو من الرقم بمعنى الخط ، يقال : رقمت الكتاب أرقمه ، فهو فعيل بمعنى مفعول ، كقتيل وجريح ، وهذا الأخير هو اختيار ابن جرير ، وهو الأقرب ، فقد سـمى هؤلاء الفتية بأصحاب الكهف ، لأنهم أووا الى كهف فى الجبل. وسموا بأصحاب الرقيم لأن أمرهم وشأنهم قد رقم وكتب كما تكتب الآثار والغرائب على الأحجار ونحوها ، وهو شـأن كان يعهده الأقدمون ويألفون فعله ، وما زالت الحفـائر التى تحفر تكشف عن آثار عليها كتابات مرقومة ، ونقوش منقوشة .

وضربنا على آذانهم :

الضرب : هو ايقاع شيء على شيء ، ويختلف تفسيره باختلاف ما ورد فيه من الكلام ، فمنه الضرب المعـروف لايقاع الأذى بالجسم ، ومنه الضرب فى الأرض ، لأن السـائر فيها يضربها بقدمه ، ومنه ضربت الخيمة أو الفسطاط أو نحو ذلك : لضرب الأوتاد التى تقوم عليها بالمطرقة ونحوها تثبيتا لها ، ويقال : ضرب الأمير على يد فلان ، اذا منعه من التصرف ، تمثيلا له بحالة المضروب على يده حتى شلت وعجزت عن تناول الأشياء .
والمراد فى الآية : ألقينا عليهم النوم الثقيل فلم يعودوا يسمعون أو يتنبهون ، على تمثيل حالهم بحال من ضرب دون اذنيه بحائل يحول بينه وبين السمع ، كما مثلت حالة المنصرفين عن قبول الحق بالذين جعلت قلوبهم فى الأكنة ، أو أعينهم فى الغطاء ، ويصح أن يكون ذلك على معنى منع آذانهم من أداء وظيفتها ومن التصرف المعتاد لها ، وهو السمع ، فيكون من باب ضرب على يده : أى منعه من التصرف .

ومهما يكن فالمعنى واضح، وللآذان مزيد اختصاص فى هذا الشأن. وذلك أن النائم اذا سمع الصوت تنبه واستيقظ ، فاذا حيل بينه وبين الأصوات ظل مستغرقا فى نومه .

سـنين عددا :

معناه سنين كثيرة : أى ذات عدد أو تعد عددا ، قال الزجاج : (والفائدة فى قولك : عددا فى الأشياء المعدودات أنك تريد توكيد كثرة الشيء) ومعناه أنك اذا قلت : أقمت أياما فهمت الكثرة ، فاذا قلت : أياما عددا ، فهم توكيد الكثرة .

ثم بعثناهم :

أى أيقظناهم ، وايقاظ النائم يسمى بعثا كما يسمى ارسالا ، وفى الحديث : « أتانى الليلة آتيان فابتعثانى » أى أيقظانى من نومى، وتأويل البعث : ازالة ما كان يحبسه عن التصرف والانبعاث •

أحصى :

قيل : هو فعل ماض ، وتقدير الكلام : لنعلم أى الحزبين وقف على أمد لبثهم وعلمه وأحصاه ، وقيل : هو من باب أفعل التفضيل، وان كان هذا البناء من غير الثلاثى المجرد ليس بقياس ، وانما هو سماعى ، فقد ورد : ما أعطاه للدرهم وما أولاه للمعروف !! والتقدير : أيهم أدق احصاء لأمد لبثهم •

ومن أراد أن يتوسع فى معرفة ذلك من جهة القواعد فليرجع الى كتب التفسير ، وانما يهمنا أن نعرف معنى هذا الكلام ، فاذا جعلنا الكلام من باب التفضيل ، كان ذلك اثباتا لمعرفة مدة اللبث، وغاية الأمر أن أحد الحزبين عرفها بدقة أكثر من الحزب الآخر ، ولا يستقيم هذا المعنى فى نظرى ، فان الله لم يرد ببعثهم أن يتبين دقة علم هذا الحزب أو ذاك ، ولم يحصل ذلك من هذا البعث بالفعل ، وانما خرج الكلام مخرج الانكار على الناس أن يصلوا الى علم قاطع فى هذا الشأن • والتقدير : ليظهر هل أحد الحزبين أحصى ذلك وعرفه على اليقين ؟ أو بعبارة أخرى : ليظهر للناس أنه لا سبيل الى علم ذلك الذى اندرس وخفيت آثاره ومعالمه ، ولذلك يقول الله عز وجل بعد حكاية أقوالهم : **« قل الله أعلم بما لبثوا »** • وسيأتى مزيد ايضاح لذلك فى تفسير هذا الموضع من السورة ان شاء الله •

التفسير :

بعد أن تكلمنا عن المفردات فى هذه الآية وما يتصل بالمعنى فيهـا نتكلم عن المعنى العام فيها • والكلام فى ذلك يرجع الى ناحيتين :

أولا ــ قصة أصحاب الكهف فيما يرويه الرواة :

لقد ذكر الله جل وعلا قصة أصحاب الكهف فى كتابه الكريم على النحو الذى يفيدنا ، والقدر الذى تتحقق فيه مصلحتنا من الاعتبـار والعظة ، وليس من عادة القرآن الكريم أن يتتبع التفاصيل ، ويعنى بالجزئيات فيما يقص ، ولكن المفسرين وأهل الرواية هم الذين يعنون بذلك ، ويتوسعون فيه ، وقد يندس عليهم فى أثنائه روايات ضعيفة أو مصنوعة ، فيثبتونها كما هى ، ومنهم من يعلق عليها ، ومنهم من لا يعلق، اما تصديقا لهم بحسب ما يرى ، واما اعتمـادا على فكر القـارىء وتمحيصه ، وأكثر ما يذكر فى ذلك اسرائيليات ينبغى أن نتلقاها بالحيطة والحذر ، وأحسن خطة فى ذلك هى أن نلتزم ما ورد به الكتاب العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فنؤمن به كما هو ، ولا نهتم بما أعرض الله عن ذكره ، فاذا روى لنا خبر أو ذكر لنا تفصيل فلكل منا بحسب استعداده ودرجة تفكيره وطريقته فى البحث ، أن يأخذ فى ذلك بما يستريح اليه ، دون أن يلزم غيره فى ذلك بشىء ، أو يعده خارجا أو مارقا أو ما الى ذلك اذا لم يأخذ بمثل ما أخذ، ما دام لم يكذب خبرا جاء من طريق صحيح ، تثبت به المعرفة اليقينية عن الصـادق الأمين صلوات الله وسلامه عليه •

وأقرب ما ذكر فى شأن هـذه القصـة مستخلصا من الروايات باختصار : أن أصحاب الكهف كانوا فتية من المترفين وأبناء السـادة الذين يتمتعون بالعيش الرغيد والسعادة والنعمة ، وأن قومهم كانوا يعبدون الأصنام والطواغيت ، ويذبحون لها ، ويتقربون بها فنظر هؤلاء الفتية بعين بصيرتهم الى ما عليه قومهم فأنكروه ، وعلموا أن العبادة والسجود والتقرب لا تكون الا لله الذى خلق السـموات والأرض ، فتخلصوا من قومهم وما يعبدون من دون الله ، واعتزلوهم فى كهف بأحد

الجبـــال ، فتطلبهم قومهم وتفقدوهم فلم يجدوهم وعموا عنهم ، كما حصل فى حادث الهجرة ، حين لجأ النبى صلى الله عليه وســـلم هو وصاحبه أبو بكر الصديق رضى الله عنه الى غار ثور ، وجاء المشركون فى طلبهما فلم يهتدوا اليهما ، مع أنهم يمرون على الغـــار فى رواحهم ومجيئهم ، وقد جزع أبو بكر وقال : يا رسول الله ، لو أن أحدهم نظر الى موضع قدميه لأبصرنا ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ » فاذا كانت احدى القصتين أعجب من الأخرى وأغرب فهى قصة محمد صلى الله عليــه وســـلم وصاحبه ، حيث نجاهما الله من الطلب الحثيث ، ومن أعداء معروفين بالبراعة فى اقتفاء الآثار ومعرفة كل شبر من الطريق ، أما المعاصرون لأصحاب الكهف فلعلهم حين اقتفوهم ظنوهم قد ماتوا أو خرجوا من البلاد ، فلم يتتبعوهم تمام التتبع ، أو مروا بهم فلم يلتفتوا اليهم ، فضرب الله على آذانهم فى هذا الكهف مدة طويلة ، على الحـــالة التى بينها الله فى كتابه ، وليس عجيبا فى قدرة الله أن يفعل ذلك ، فهو خالق السموات والأرض ، وهو واضع السنن الكونية ، وهو الذى جعـــل بعض الأمور — لكثرة تكراره — معتادا مألوفا ، وبعض الأمور — لقلته وخفاء أسبابه — خوارق يعجب منها الناس ٠

وينبغى أن يعلم الناس أن أمر الخوارق فى قدرة الله ليس بعجيب، وليس فيه الا مجىء شىء من الأشياء على خلاف ما يعهدون ، وكم من أشياء لا يعهدونها ، بل كم من أشياء فيما يعهدون لا يعرفون سرهـــا الحقيقى وأسبابها التفصيلية ، وكل ما يصح لنا أن نبحث فيه فى أمر الخوارق والمعجزات التى تنسب الى الرسل أو الى عباد الله الصالحين انما هو : هل ثبتت من طريق يعتمد عليه ويوجب الايمان عن يقين ، أو لم تثبت عن هذا الطريق ؟ وفرق بين الاعتراف بالمبدأ فى ذاته ، والاعتراف بحادثة معينة تخضع لطرق الاثبات الصحيحة وتوزن بها ٠

وفى قصة أصحاب الكهف يجب أن نؤمن بالمبدأ وبالتفاصيل التى وقعت كما أنبأنا الله بها ، فنوقن أن هناك فتية،وأنهم لم يرضوا عما فيه قومهم ، وأنهم اعتزلوهم ، وأنهم أووا الى الكهف ، وأن الله ضرب على آذانهم فيه المدة التى ذكرها ، وأن الله بعثهم بعد ذلك ... الى آخـــر ما بينته السورة ، فانكار شىء من ذلك تكذيب للقرآن وهو كفر صراح.

الاسرائيليات فى سورة الكهف :

ولكن المفسرين يذكرون فى ثنايا ذلك روايات وأخبارا لنا أن نقابلها بالتحفظ والحيطة ، وليس علينا فى ذلك عيب ، بل هو الواجب على كل مؤمن ، وقد وصف الله النقاد البصراء بقوله : « **الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب** » .
(سورة الزمر آية ١٨)

فمن ذلك ما يتعلق بمكان الكهف ، واسم الجبل الذى كان فيـــه ، والوادى الذى فيه الجبل ، فبعضـــهم يقول : هو قريب من أيلة ، وبعضهم يقول : هو عند نينوى ، ومنهم من قال : هو فى بلاد الروم ، ومنهم من يقول : بل هو فى بلاد البلقان .

وفى ذلك يقول ابن كثير : (وقد أخبر الله تعالى بذلك وأراد منا فهمه وتدبره ، ولم يخبرنا بمكان هذا الكهف فى أى البلاد من الأرض ، اذ لا فائدة لنا فيه ولا قصد شرعى) .

ومن ذلك ما يتعلق بأسماء هؤلاء الفتية ، واسم الملك الجبار الذى كانوا على عهده ، واسم الكلب الذى كان معهم ، وهل كان كلب صيد أو كلب طباخ الملك ؟ فنسمع فى ذلك ألوانا من الأسماء الأعجمية : فاسم الملك دقيانوس ، واسم المدينة التى كان فيها أفسوس ، واسم أكبر الفتية مكسلمينا ، واسم الذى انطلق بورقهم الى المدينـــة تمليخا ، والباقون منهم هم : مرطونس ، وكشطونس ، وبيرونس ، وديموس، وبطيوس ، أما الكلب فاسمه قطمير ، ويروى كعب الأحبار أنه كلب تبعهم

فطردوه فأبى ، ففعلوا ذلك مرارا حتى قال لهم الكلب : (يا قــوم ما تريدون منى ؟ لا تخشوا جانبى فأنا أحب أحبـــاب الله ، فناموا حتى أحرسكم !) •

ومن الطريف أيضا ما رووه بهذه المناسبة عن الحسن البصرى من أنه قال : (كان اسم كبش ابراهيم عليه الصلاة والسلام : جرير ، واسم هدهد سليمان عليه السلام : عنفز ، واسم كلب أصحاب الكهف : قطمير ، واسم عجل بنى اسرائيل الذى عبدوه: بهموت، وهبط آدم عليه السلام بالهند ، وحواء بجدة ، وابليس بدست بيســان ، والحيــة بأصفهان) •

ومن طريف ما ذكروه أيضا أنه ليس فى الجنة من الدواب الا كلب أصحاب الكهف ، وحمار بلعم ، وناقة صالح ، وكبش اسماعيل •

وهذه ـــ كما ترى ويرى الحذاق ـــأقوال لا حاصل لها، ولا طائل تحتها ، ولا دليل عليها ، ولا حاجة اليها ، بل هى مما ينهى عنه ، فان سندها رجم بالغيب كما يقول ابن كثير ، وقد أردت أن أضعها أمام القراء لأعطيهم لونا من توسع الرواية ، وتهجم الأخبار ، وأنصحهم أن يتلقوا مثل ذلك بكثير من الحيطة ، وأن يمروا بما يقرأون منه مرا ، غير معولين عليه ، ولا متهمين به ، ولا متناقشين فيه ، فأولى من ذلك النظر والتأمل فيما ساقه الله فى كتابه من العبرة والموعظة الحسنة لمن شاء أن يتدبر ويعتبر ويتعظ ، أما الذين يتخذون أمثال هذه الروايات مشغلة لهم ، ولهوا يعبثون به ، وعلمــا يتباصرون بحكايته وترديده وسؤال الناس عنه ، فهم أصحاب الأفئدة الهواء والقول الهراء •

ثانيا ـــ قصة أصحاب الكهف كما يرويها القرآن :

لقد أتى القرآن الكريم بمجمل لهذه القصة على سبيل الاختصار فى الآيات التى بدأ بها ، وجعل هذا المجمل كالعنوان عليها ، ثم أتى بعد ذلك بما أراد من تفصيل ، وذلك كما جاء فى قصة قارون حيث بدئت

بجملة تضمنت خلاصة القصة وهى قوله تعالى : « **ان قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم** » (سورة القصص آية ٧٦) ثم جاءت بعدها القصة مفصلة بالقدر الذى أراده الله ، ورأى فيه الفائدة لنا والعبرة والموعظة ، وهنا أيضا قد بدئت القصة باجمال ، فذكر الله لنا أن الأمر فى شأن أصحاب الكهف يتلخص فى :

ليس أمر أصحاب الكهف بأعجب آيات الله

١ ـــ أنهم وان كانوا آية من آيات الله ، فليسوا بأغرب هذه الآيات وأعجبها، فان الله الذى خلق الشمس والقمر والسموات والأرض والبحـــار والأنهار وغير ذلك من مخلوقاته العظمى ، لا يعجزه شىء ، ولا يعد أمر أصحاب الكهف بجانب قدرته وعظمـــة مخلوقاته شيئا غريبا ، وهذا هو أحد مواطن العبرة فى القصة ، واذا تدبره العاقل حق التدبر لم يسعه الا الايمان المطلق بعظمة الخالق ، والتسليم المطلق لأمر الخالق : من ذا الذى يتدبر فى الشمس وبديع صنع الله فيها ، ولا يسلمه ذلك الى الايمـــان بالله الذى خلقها ؟ كوكب لا حياة لمخلوق بدونه ، وبينه وبين الأرض بعد هائل شاسع يحتاج العلماء فى تقديره الى مقاييس غير ما يعهد ، وتارة تقرب الأرض منه بعض القـــرب ، فتشـــتد الحرارة حتى تصل فى بعض المواطن الى درجة صهر المعادن ، وتارة تبتعد عنه ، فتشتد البرودة حتى تصل فى بعض المواطن الى درجة تجمد الماء وصيرورته جليدا وبقائه كذلك زمانا طويلا ، ثم شعاع هذا الكوكب : ماذا يحتوى من أسرار ضوئية وكهربية ؟ ثم آثاره فى النبات وفى الأمطار والتبخر وفى تطهير الأرض من القاذورات والميكروبات ، وفى غـــير ذلك مما يذكره العلمـــاء ويصفونه ، لأنهم عرفوه ولمسوه ، ومما لا يذكرونه لأنهم جهلوه أو حاروا فى تعليله .

وقل مثل هذا فى القمر وفى البحار والأنهار وفىالنبات والأشجار، بل فيما لا نلتفت اليه من دواب الأرض ، وهى عالم وحدها ولها أسرارها وقوانينها ونواميسها ، فأينما قلب العاقل نظره وسبح بفكره وجد العظمة ماثلة والقدرة متجلية ، فأى وجه بعد هذا

لاستبعاد قصة أصحاب الكهف ، وما تدل عليه من قدرة الله على البعث بعد الموت ، والنشر بعد الطى ؟

وبعض العلماء يرى أن الكلام ليس فى قياس قصة أصحاب الكهف على مخلوقات الله وعظمتها ، وما تدل عليه من قدرته ، وانما الكلام فى أن هؤلاء المتسائلين عن أمر أصحاب الكهف والمتحدين به الوحى وعلم الرسول ، قوم متعنتون ضعفاء العقول ، لأن الله قد آتى نبيه من العلم والكتاب ما فيه أكبر الآيات وأعظم الدلالات على صدقه ، وأنه على الحق المبين ، فهذا هو القرآن يصرف الله فيه للناس من كل مثـــل ، ويهديهم الى التى هى أقوم ، فى العقيدة والخلق والعبادات والمعاملات، ويخاطب فى ذلك العقول ، ويسوق البراهين ، ويقيم الشواهد والآيات البينات ، وهذا هو رســـول الله صلى الله عليه وســـلم بخلقه وسيرته وأفعاله وسننه عنوان عملى ، ورمز تطبيقى لهذا الدين وهذه الشريعة، فما بالهم يتجاهلون هذا كله ، ويغمضون عنه عيونهم ، ويطوون من دونه قلوبهم ، ثم يتساءلون عن دليل آخر يحرضهم اليهود على تطلبه، والاهتمام بشأنه ، وجعل الأمر كله فى تصديق الرسول أو تكذيبه مبنيا عليه ، وهو اخبار الرسول اياهم عن قصة أصحاب الكهف ، وقصـــة ذى القرنين ، وأمر الروح ، فهل الاخبار عن ذلك أعظم دلالة مما جاء به الرسول ؟ كلا ، ولكنهم قوم يجهلون ويتعنتون ، ولو كانوا منصفين لما لجوا فى العناد والاستكبار الى هذا الحد .

وفى الكلام على هذا النحو عبرة لنا أيضا ، حيث نرى كثيرا من الناس ينصرفون عن لباب الدعوات الاصلاحية والأفكار الطيبـــة الى قشور ، فيشغلون بها أنفسهم ، ويشـــغلون بها دعاتهم الى الخـــير ويتناقشون فيها ، وينسون الأساس والأصل ، وبهذا تضعف الدعـــوة من جهتين :

احداهما : أن أصحابها قد شغلوا عنها ولم يتفرغوا لها ، ولم يمكنوا من توجيهها التوجيه الصحيح • والأخرى : أن الذين وجهت اليهم قد شغلوا عنها أيضا فلم يحسنوا تلقيها ، ولم يتفرغوا للنظر فى أساسها لينتفعوا بها •

وهكذا تضيع أفكار الخير بين ضعف الأداء وضعف التلقى ، وفى زحمة من القشور التافهة والحواشى الرخيصة ، ولذلك ترى الحذاق من الدعاة وأصحاب الأفكار يأبون أن يغمروا أنفسهم ويغمروا دعوتهم فى هذه الغمرات ، وانما يعالجون الناس فى شأنها بتحفظ الأكياس ولباقة المتصرفين ، ويزنون كل شىء بميزان دون افراط ولا تفريط ، وهذه هى سنة القرآن مع المتطلعين فيما يسألون أو يتطلعون : يبث فكرته ومبادئه — دائما — فيما يتناول من ذلك ، فلا يعطيهم فرصة للتفلت من الدعوة أو الاشتغال عنها بغيرها ، ومن هنا نرى فى كل قصة ساقها القرآن عبرتها واضحة ، ونراه فى أثنائها يذكر ويعظ ويبين ويلفت الى قدرة الله ، ووحدانية الله ، ونحو ذلك من مبادئه التى يريد أن تسود فى الناس ليسعد بها الناس •

هذا ما يوحى به قوله تعالى : « **أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا** » •

٢ — ويدل ما بعد هذه الآية على أن هؤلاء فتية أووا الى الكهف ، متطلبين رحمة الله وارشاده ، فاستجاب الله لهم ، وهيأ لهم ما يريدون ، بأن ضرب على آذانهم فى هذا الكهف زمنا طويلا ، ثم بعثهم بعد هذا الرقاد الطويل ، فكان مما ترتب على ذلك أن وقع اختلاف فى تقدير مدة لبثهم ، وتضاربت فيه الآراء على غير معرفة يقينية ، مما دل على عجز المخلوقين ووجوب تفويضهم علم ما لا يعلمون الى العليم الخبير •

بعض الأسرار المعنوية فى دعاء الفتية :

ونحب أن نقف قليلا عند هذا الدعاء الذى قص الله علينا أن هؤلاء الفتية قد دعوا به ربهم ، وهو قولهم : « **ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشدا** » فهذا الدعاء على اختصاره جامع لكل نواحى الخير التى يتطلبها الانسان فى دنياه وآخرته وتتحقق بها سعادته ، وذلك أن كل سالك الى طريق محتاج الى أمرين :

أحدهما : اليسر والسهولة وعدم الحرج ، لأن الطرق من شأنها المشقات والعقبات ، فاذا تيسرت سبيل السالك وسهلت ولم يصادفه فيها عقبات سكنت نفسه وأمن قلبه ، ومضى الى غايته ناشطا منبعثا مستريحا .

والأمر الآخر : هو الاهتداء وعدم الضلال ، لأن الذى يهتدى الى المسالك ويتجنب الضلال فى الشعاب والمتائه ، يشعر بالسعادة ، لتوفيقه ووصوله الى غايته وقيامه برسالته ، وهذه الحياة طريق كتب الله على كل حى أن يسلكه الى غاية يشترك فيها الناس جميعا منذ آدم وحواء الى يوم يبعثون ، ولكن الأحياء يتفاوتون فى سلوكهم هذه السبيل ، فترى بعضهم مشمولا برحمة الله وتيسيره ونعمته ، مؤيدا بارشاده وهدايته وتجنيبه المهالك ، وترى الآخر محروما من هذا وذاك ، فلا أموره ميسرة ، ولا طريقه معبدة ، يظل طول حياته متخبطا ، يعانى الأهوال والمشاق ، ويلابس المصاعب والمتاعب ، واذا سار فى طريق انسدت عليه شعابه ، وضل فى تعاريجه ، لا يعرف له متقدما ولا متأخرا ، فالأولون قد فازوا بالحسنيين ، وتمتعوا بالسعادتين ، والآخرون على طرف النقيض منهم ، فهم محرومون من كل خير ، مبعدون عن كل توفيق ، وبين هذين صنفان آخران : فصنف يعيش فى النعمة والترف ، أموره ميسرة ، وأحواله المعيشية مرتبة ، فهو يسير فى الطريق غنيا بالزاد والمتاع الحسن ، ولكنه مع ذلك غير موفق ، فهو يقضى حياته كالأنعام يأكل ويشرب ويلتذ ويتمتع ، ولا فائدة ترجى منه ولا منفعة تلتمس من حياته . وصنف مكدود فى حياته ، حريب سليب ، لا ينال أدنى العيش الا بجهد جهيد ، ومشقة فادحة ، ويحتمل فى نفسه آلاما تنوء بها الجبال الرواسى ، ولكنه مع ذلك موفق فى عقله ودينه ، صابر محتسب يفعل

من الخير ما يستطيع فعله ، ويثمر لوطنه وأمته من ثمرات ايمانه وعلمه وتوفيقه ما به ينتفعون ، وعليه يعتمدون ، وهذا الصـــنف الأخير وان طال عذابه الجسمى ، وضاقت حياته المادية ، له متاعه الروحى وايمانه القلبى ، وسعادته عند الله فى دار رضوانه ونعيمه •

اذا تبين هذا علمنا أن غاية الغايات ونعمة النعم ، هى أن يجمع الله لعبده بين الرحمة والتوفيق ، ولذلك كان هذا الدعاء جامعا للخيرين:

« **ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشدا** » ومعناه : ربنا أفرغ علينا من عندك ما تيسر به جميع شئوننا ، وتصلح به جميع أحوالنا ، وهيىء لنا فى كل أمورنا سبيل التوفيق والرشاد •

وقد جاء القرآن الكريم بمثل هذا الدعاء فى غير هذه الآية أيضا، ومن ذلك قوله تعالى : « **ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار** » (سورة البقرة الآية٢٠١) وقوله تعالى : « **ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة انك أنت الوهاب** » •
(سورة آل عمران الآية ٨)

وقد أجاب الله دعوة هؤلاء الفتية الذين أووا الى الكهف ، فنشر عليهم رحمته بالقاء النوم عليهم ، وتجنيبهم عذاب الانقطاع والعزلة، ومقاساة الوحشة والغربة والحاجة فى هذا الكهف السحيق ، وهيأ لهم فى الوقت نفسه من أمرهم رشدا وتوفيقا ، اذ نجاهم من الكفر والشرك والطغيان ، وحال بين الظالمين وبينهم ، وحفظ لهم ايمانهم ، وجعـــل حديثهم ذكرى باقية الى يوم الدين ، يتأسى بهم كل عاقل ، ويعتبر بما فعلوا وبما انتهى اليه أمرهم كل مؤمن ، وان الله لسميع الدعاء •

٣ ـ قال الله تعالى :

نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ۚ
إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَـٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ
قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَـٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾

نقص :

القصص : هو الأخبار المتتبعة ، من قولهم : قصصت أثره أى تتبعته •

نبأهم :

النبأ : الخبر ، ولا يقال الا فيما كان ذا شأن وخطر ، ومن ذلك قوله تعالى **« عم يتساءلون عن النبأ العظيم »** (سورة النبأ الآية ١ ، ٢) **« قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون »** (سورة ص الآيتان ٦٧، ٦٨ **« تلك القرى نقص عليك من أنبائها »** (سورة هود الآية ٤٩ **« تلك من أنباء الغيب نوحيها اليك »** (سورة الأعراف آية ١٠١) •

ولا يكاد النبأ يطلق فى كلامهم أيضا الا على ما كان صادقا محققا، كالذى يأتى به الكتاب الكريم أو السنة المطهرة أو يعلم بالتواتر بين الناس ، والأمثلة التى سقناها من الآيات الكريمة تنبىء بهذا المعنى ، وأما قوله تعالى : **« يأيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا »** (سورة الحجرات الآية ٦) ففيه ــ كما يقول الأصفهانى ــ تنبيه على أنه اذا كان الخبر شيئا عظيما فحقه أن يتوقف فيه ، وان علم وغلب على الظن صحته ، حتى يعاد النظر فيه ، ويبين فضل تبيين •

بالحق :

تقدم فى بعض ما فسرناه أصل معنى كلمة « الحق » وهو يقال بمعنى المطابقة والموافقة والثبوت ، ويوصف به القول والفعل فيقال: قولك حق ، وفعلك حق ، ومن الأول قوله تعالى : **« قال فالحق والحق أقول »** (سورة ص الآية ٨٤) **« قوله الحق وله الملك »** (سورة الأنعام الآية ٧٣) **« هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق »** (سورة الجاثية الآية ٢٩) ومن الثانى قوله تعالى : **« ان ذلك لحق تخاصم أهل النار »** (سورة ص الآية ٦٤) والمراد أن هذا الفعل ثابت وواقع •وقوله تعالى : **« ما خلقناهما الا بالحق »** (سورة الدخان الآية ٣٩) بل توصف به أيضا الذوات • فالجنة حق ، والنار حق ، والصراط حق •• الخ • وقد وصف به الله عز وجل :

« **فذلكم الله ربكم الحق** » (سورة يونس الآية ٣٢) « **ثم ردوا الى الله مولاهم الحق** » (سورة الأنعام آية ٦٢) لأنه أوجد كل شيء على مقتضى الحكمة والموافقة ، وبه حقت الموجودات وثبتت .

فتيــة :

جمع فتى : وهو الشاب فى نضارته وقوته .

وربطنا على قلوبهم :

أصل الربط : الشد بالحبل ونحوه ، والمراد به هنا التثبيت ، يقال: فلان رابط الجأش ، اذا قوى قلبه ، ومنه فى غير آية التفسير قوله تعالى فى شأن أم موسى : « **أن كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين** » (سورة القصص **الآية ١٠) وقوله جل شأنه :** « **اذ يغشيكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام** » **(سورة الأنفال الآية ١١)** وذلك فى المعنى شبيه بقوله تعالى : « **هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم** » .

(سورة الفتح الآية ٤)

شــططا :

الشطط : الافراط فى البعد حسا أو معنى ، كما يقال : شطت الدار : أى بعدت ، وشط فلان فى حكمه : أى جاوز الصواب وأتى بالجور .

التفسير

بعد أن أجمل الله جل ثناؤه أمر أصحاب الكهف فى الآيات السابقة التى جاءت بمثابة العنوان والخلاصة للقصة ، بدأ فى تفصيل هذا الاجمال بالبسط والبيان .

وأول ما يبدو لنا فى هذه الآيات أنه جل شأنه قد أسند فيها الكلام الى نفسه ، ووجه الخطاب الى نبيه ، وعبر عن قصة أصحاب الكهف بالنبأ الذى هو الخبر الهام الصادق ، ثم وصف ذلك القصص الذى يقصه بأنه « الحق » فقال : « **نحن نقص عليك نبأهم بالحق** » .

فاذا علمنا أن شأن أصحاب الكهف شغل الناس فى القديم والحديث حتى قيل : ان اليهود قد اتخذوا منه ذريعة لحرب الرسـول صلى الله عليه وسلم ، فأوحوا الى شياطينهم من مشركى العـرب ليتحدوا به الرسول فيما تحدوه به ، وأن الناس قد اختلفوا فى شأن هؤلاء الفتية، وتساءلوا عن عددهم ، وعن مدة لبثهم ، وعن مبدأ أمرهم ونهايته ، — اذا علمنا ذلك كله ، أدركنا سر هذا التعبير القرآنى القوى ، وحكمة البدء به • فالله يقول لنبيه : استمع الى هذا الخبر العظيم ، والنبـأ الخطير ، فنحن نحكيه لك بالحق دون تجوز ولا تزيد ، استمع اليه لا من فرد يحكيه ، ولا من تاريخ يخمنه ، ولكن منى أنا العليم الحكيم، ولا شك أن خبرا عظيما كهذا الخبر الذى اشتغل به الناس ، يقصه الله ويبين تفاصيله ، ويخاطب به نبيه ، هو خبر جدير بالرعاية والاهتمام، وأن يتلقى بالنظر والتأمل ، لتلتمس منه العبرة والموعظة الحسـنة ، ثم قال تعالى :

ما يدل عليه وصف أصحاب الكهف بأنهم فتية :

« انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى » فوصف هؤلاء الأبطال النافرين من الكفر والشرك ، المتخلصين من بيئـة الفسـاد والبغى ، المؤثرين الحق على الباطل ، بأنهم « فتية » : أى شـباب ، ومازال الشباب فى قديم الزمان وحديثه أقبل للحق ، وأهدى للسبيل ، وأعون على الاصلاح من الشيوخ الذين أضعفتهم السنون ، وصبغهم الدهر بصبغة قلما يستطيعون الخلاص منها •

الشباب هم أسناد كل دعوة الى الحق ، لأن قلوبهم طاهرة خالية من الخبث والمكر والدهاء ، جريئة لا تهاب الأخطار ، ولا تتقاعس عن الجهاد ، ولأن سواعدهم قوية ، وأجسامهم نشطة ، تتحمل الأذى ، وتتقبل المتاعب والصعاب ، فاذا استعانت بهم دعوة نجحت وتقدمت وكان لها فى الناس أثرها وفعلها •

وقد ولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قيادة الجيش أسامة ابن زيد وهو فى أول الشباب ، وميعة الفتوة ، وفى المسلمين يومئذ شيوخ وكهول .

وقد رأينا كثيرا من الدعوات فى التاريخ ، تعتمد على هذه القلوب الفتية والسواعد القوية ، فتكتسح كل ما فى طريقها من العقبات ، ويفتح الله بها ما شاء من آفاق الخير والصلاح والهدى والرشاد ، واذا كان هذا هو شأن الفتية وأمر الشباب ، فمن الواجب على الأمة أن تعنى بهم وتزكيهم وتربيهم تربية صالحة ، وتوجههم وجهة طيبة ، وتعاملهم معاملة من شأنها أن تقوى قلوبهم وتصلح أخلاقهم ، وتوحى اليهم معانى العزة والكرامة ، وأخلاق الشهامة والرجولة . أما اذا أهملتهم وتركت حبلهم على غاربهم ، وزينت لهم طريق الغواية ، وهيأت أمامهم سبيل الانحطاط فى العلم والخلق ، فان الموازين حينئذ تختل ، والأساس يضطرب ، ويصبح موطن الخير ومنبع الاصلاح موطنا للشر ومنبعا للفساد .

وصف الله — تعالى — فتية الكهف بأوصاف ثلاثة :

أوصاف فتية الكهف : الايمان :

أولها : ما فى قوله تعالى : « **أنهم فتية آمنوا بربهم** » والايمان هو أساس الفلاح فى كل شىء ، فالقلب الذى يخلو من الايمان قلب متزعزع لا يستقر على حال من القلق ، وصاحبه دائما معنى بالشكوك والأوهام ، ويتبع هذا الاضطراب النفسى ، والحيرة العقلية ، ثم الاخفاق فى كل عمل ، أما القلب المؤمن بالله ، الذى يعلم أنه رب السموات والأرض ومالك الملك ومهيىء الأسباب وعالم السر والنجوى ، فذلك هو الذى يكون صاحبه فى خير وأمان ورضا واطمئنان .

معنى كون الهدى من الله :

ثانيها : قوله تعالى : « **وزدناهم هدى** » والله تعالى قد خلق فى الانسان قوة الخير والشر ، وهداه النجدين ، فاذا اختار طريق الخير يسره له ، واذا اختار طريق الشر يسره له « **فأما من أعطى واتقى**

وصـــدق **بالحسنى فسنيسره لليسرى ، وأما من بخـــل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى »** (ســـورة الليل الآية من ٥ ــ ١٠) ولا ينبغى أن يظن ظان أن الله يحابى أحدا من خلقه ، أو يظلم أحدا ، فيمنح بعض الناس نعمته ارتجالا عن غير حكمة، ويحل بالآخرين نقمته ارتجالا عن غير حكمة • تعالى الله عن ذلك وتنزه ، ولكن الواجب على المؤمن أن يعلم أن نفحات الكرم وفيض الجود انما تكون للجديرين بها ، المتعرضين لها ، كأصحاب الكهف الذين آمنوا بربهم فزادهم الله هدى •

ربط الله على قلوبهم ومعنى الربط على القلوب :

ثالثها : قوله تعالى : « **وربطنا على قلوبهم** » وربط الله على قلب المؤمن هو تثبيته وتقويته وطرد عوامل اليأس والوهن عنه ، وكل منا يشعر بأنه فى حاجة شديدة الى مثل هذا الفضل الالهى ، فلولاه لمـــا استقر لانسان عزم ، ولمـــا أقدم على عمل ، ولمـــا استطاع أن يرجح حقا على باطل ، وصلاحا على فساد ، بطريقة عملية حاسمة ، وقد أفاد هؤلاء الفتية من ربط الله على قلوبهم تلك الشجاعة العملية ، وهذا التصميم القوى المتين الذى أصـــبح مضرب الأمثال •

لولا ربط الله على قلوب المصلحين لما استطاعوا أن يسيروا فى طريق الاصلاح ، ولا أن يصبروا على مرارة الجهاد ، ولا أن يزيلوا عن سبيل الحق ما يعترضها من عقبات وصعاب ، ذلك بأن هؤلاء المصلحين مهما سمت أفكارهم ، وبعدت هممهم ، وقويت عزائمهم ، هـــم بشر ذوو قوة محدودة ، وطاقة معينة ، فاذا جابهوا الشر وواجهوا الفساد هالتهم كثرتهما وتمكنهما وشدة الشكيمة وقوة المراس فيمن يستندان اليه ويعتمدان عليه ، كما يقف الانسان أمام جبل شامخ رسا فى قاع الأرض أصله ، وطاولت السماء قمته ، وهو مكلف بازالة هذا الجبـــل ، فاذا قاس قوته واحتماله الى صعوبة العمل وضخامته ، داخله التردد والترلزل ، واكتنفته الحيرة ، فاذا أراد الله به خيرا جنبه ذلك ، وربط على قلبه وقواه ، فاذا هو منبعث الى غايته ، سباق اليها لا يلوى على

شىء ، ولا يهاب شيئا ، حتى يخيل لمن رآه أنه مسلوب الحس ، وعندئذ يمنح ـ بربط الله على قلبه ـ قوة تهد الجبال،وتفعل ما يظن أنه محال!!

أمثلة من ربط الله على القلوب :

من كان يظن أن فى طاقة انسان وحيد فريد ، نشأ يتيما ، وعاش فقيرا ، أن يزحزح العرب عن جهالتهم ، ويخلق منهم أمة عالمة فاتحة متشرعة مؤلفة مخترعة ؟ ! من كان يظن أن فى طاقة انسان هذا شأنه أن يزلزل عروش الأكاسرة والقياصرة والأباطرة ، وقد رسخت فى التاريخ جذورها قرونا ودهورا ، يغذوها المال والعلم والقوة حتى تصبح هذه العروش خبرا من الأخبار وأثرا من الآثار !! أما والله لو وقف محمد بن عبد الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أمام هذه الرسالة وتلك المهمة الالهية ، بقلبه البشرى وطاقته الانسانية ، لا يعتمد الا عليهما ولا يستند الا اليهما ، لما استطاع أن يهزم جحافل الجهل والشرك والطغيان والظلم والأثرة والاستبداد ، ولهدمته هى وابتلعته أمواجها ، فزال دون أن يترك أثرا أو ذكرى ، ولكن الله ربط على قلبه، وأيده بروح منه جل علاه ، وأيده بنصره وبالمؤمنين ، وربط على قلوبهم، فاكتسحوا الدنيا ، وحولوا وجه التاريخ .

ومن قبل ربط الله على قلوب أحبابه وأوليائه ، فهذه أم موسى يلاحقها الطلب فى ابنها الوليد من ملك ظالم عات ، يذبح الأبناء فى غشم وطغيان ، ودون رحمة ولا شفقة ، فيوحى الله اليها : **« أن اقذفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليم »** (سورة طه الآية ٣٩) فتنفعل وتترك فلذة كبدها وثمره فؤادها ، وهو فى أمس الحاجة الى رعايتها ، وهى أشد ما تكون شوقا الى التمتع بطلعته ، والنظر الى محياه ! لكأنى بعواطف الأمومة كلها قد تجمعت فى فؤاد أم موسى حينذاك ، وهى ترى الخطر المحدق بأعز انسان لديها على ظهر الأرض ، بل بمن هو أعز على نفسها من نفسها : خطر من الملك الظالم ، وخطر من البحر الهائج المائج ، وخطر من المصير المجهول ، فأى قلب بشرى يتحمل هذا أو يطيق عليه صبرا ؟ ! ولذلك يصف الله هذا الفؤاد بقوله : **« وأصبح فؤاد أم موسى فارغا ان كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين »** (سورة القصص الآية ١٠) فبالله ما أعظم هذا الربط !!

وموسى نفسه حين بلغ أشده ، واستوى ، وبعثه الله الى فرعون، من كان يظن أن **فردا مثله ، هو رعيـــة لملك** بلغ من الطغيان والعتو والعلو بغير الحـــق أن نازع الله فى الألوهيـــة ، ولم يكتف بأن يدعى الربوبية مع الله ، ولكنه يقول : **« أنا ربكم الأعلى »** (سورة النازعات الآية ٢٤) هذا الطاغية وحوله شياطينه ، والنافخون فى أوداجـــه ، والمزينون له القبائح والمظالم والمناكر من كان يظن أن فردا من أفراد رعيته — كموسى — يجرؤ عليه ، ويقف أمامه فى قصره ، وبين أعوانه وجنده ، ويقول له هو وأخوه المستضعف : **« انا رسولا ربك فأرســل معنا بنى اسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والســلام على من اتبع الهدى »** (سورة طه الآية ٤٧) •

لقد كان موسى يخاف ، ويحق له كبشر أن يخاف ، ولكن الله ربط على قلبه وقلب أخيه ، وقال لهما : **« لا تخافا اننى معكما أسمع وأرى »** (ســورة طه الآية ٤٦) أما والله رب الســموات والأرض ، لولا ذلك لمـــا استطاع موسى ولا ألف كموسى أن يقفوا هذا الموقف الخطير •

هكذا يربط الله على قلوب المؤمنين من أنبيائه وأوليائه • وكذلك يربط على قلوب المصلحين !! وكم رأينا فى التاريخ من أفراد انتصروا على جيوش وأمم بأسرها ، لأن الله ربط على قلوبهم **« كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين »** (سورة البقرة الآية ٤٩)

ليس الربط على القلوب خاصا بنواحى العقيدة :

وينبغى أن يفهم الناس أن هذا الربط على القلوب من خالق القلوب ومقلب القلوب ، ليس فى ناحية الايمان والدين فحسب ، فان الله قد يربط على قلب انسان ، أو على قلوب قوم ، للقيام بعمل عظيم يريد أن يتمه•

فمن ذلك ربط الله على قلوب الباحثين فى العــلوم والمخترعين والمستكشفين ، فاننا لو نظرنا الى محصول علمى لأحد العلماء المجدين، مثل الرازى ، أو البخارى ، أو ابن كثير ، أو ابن منظور المصرى ، أو النووى ، أو ابن تيمية ، أو ابن القيم ، أو رشيد رضا ، أو أمثالهم من

الذين تزخر المكتبة العربية الاسلامية بآثارهم ، لعلمنا أن هذا لم يكن منهم الا بربط من الله على قلوبهم •

ان تفسير القرآن الكريم المسمى « مفاتيح الغيب » وهو أحد الآثار العلمية القيمة الخالدة للامام الرازى ، يقع فى ثمانية أجزاء ، يحتوى كل جزء منها على نحو ثمانمائة صفحة ، وليست الصفحة فى هذا الكتاب كصفحة صغيرة من الكتب اللطيفة التى تنشر اليوم ، وانما هى صفحة لو وزعت على أمثال هذه الكتب لملأت عدة صفحات ، ففيها أكثر من ثلاثين سطرا ، وفى كل سطر أكثر من خمس عشرة كلمة • فهو **— اذن — محصول ضخم فى مادته وقيمته، وهو على ذلك أحد الآثار —** كما قلنا — لرجل واحد ، ربط الله على قلبه ، فحبب اليه العلم والبحث والكتابة والتأليف ، على الفقر والتقشف ومعاناة مطالب الحياة !! وقد رأيت وأنا أطالع فى هذا التفسير عن طريق المصادفة فى آخر تفسير سورة يوسف « ص ٢٥٨ من الجزء الخامس » ما نصه :

مثال عجيب من دأب العلماء :

(قال المصنف — رحمه الله تعالى — : تم تفسير هذه السورة بحمد الله تعالى يوم الأربعاء السابع من شعبان ، ختم بالخير والرضوان سنة احدى وستمائة ، وقد كنت ضيق الصدر جدا ، بسبب وفاة الولد الصالح محمد تغمده الله بالرحمة والرضوان ، وخصه بدرجات الفضل والاحسان •• وأنا أوصى من طالع كتابى هذا ، واستفاد ما فيه من الفوائد النفيسة العالية ، أن يخص ولدى ويخصنى بقراءة الفاتحة ، ويدعو لمن مات فى غربة بعيدا عن الاخوان والأب والأم بالرحمة والمغفرة ، فانى كنت — أيضا — كثير الدعاء لمن فعل ذلك فى حقى) •

نقلت هذا الكلام من الكتاب بنصه ، ليدرك القراء مدى التأثر العميق الذى كان الرجل قد بلغه ، ومدى اللوعة التى كان يحس بها على فقده لابنه ، وهو مع ذلك يجلس — لا أقول على مكتبه ، تحت مصباحه الكهربى ، وفى يده قلمه « الامريكانى » — ولكن أقول : على

حصيرته الخشنة ، وأمامه مستند من الخشب ، وسراج يتخافت نوره ، وفى يده قلم من البوص ، تمده محبرة غاض مدادها وحال لونه ، وهو مع ذلك يكتب تفسيره ، ويفكر فى استنباط المعـانى الرائعة من كتاب الله تعالى ، ولا يشغله همه الممض بوفاة « ولده الصالح محمد » غريبا عن أمه وأبيه ، لا يشغله ذلك عن عمله الذى يسره الله له !! فأى عزم هذا وأى ثبات ؟ ! . ألا ان هذا لمثل رائع من ربط الله على قلوب المؤمنين العاملين ، وقد ذكرنى ذلك بكلمة قرأتها منذ عهد بعيد عن ابن رشـد يقول فيها : (اننى لم أنقطع عن مذاكرة العلم منذ عقلت الا ليلتين : ليلة مات أبى ، وليلة تزوجت !) .

وقل مثل هذا عن ابن منظور المصرى الذي ألف كتـابه المحيط الجامع المانع « لسان العرب » وأودعه جميع ما فى لغة العرب وموادها، وعنى عناية خاصة بألفـاظ القرآن الكريم ، والحـديث النبـوى ، والشواهد الفصيحة ، فوقع كتابه فى عشرين جزءا ، هى الذخيرة فى المكتبات القيمة التى يهنأ صاحبها على حوزها !! .

وغير هؤلاء من المؤلفين الذين ربط الله على قلوبهم ، وحبب اليهم العلم . كثير كثير .

وقد أفادت الانسانية فى تاريخ حياتها الطويل من هؤلاء الأفذاذ وأمثالهم ، كما أفادت من المخترعين الذين يعيش الواحد منهم فى معمله أو مصنعه ، كما يعيش الراهب فى الصومعة منقطعا عن الدنيا ولذائذها وشهواتها ، ليتابع فكرة ، ويلاحظ سببا أو علة ، ويستنبط بعقله ما يفيد الناس ، ولولا ذلك ما تمتعنا بهذه المخترعات والأعاجيب ، ولمـا تقدم العلم والطب ، ولما عرف كثير من الأمراض وخواص النباتات والعقاقير.

ومثل ذلك يقال أيضا فى أبطال البحث والتنقيب والكشف ، الذين

يجولون البلاد ، ويقلبون أرض الصحارى ورمال القفار ، ليعثروا على أثر يزيد فى الثروة الفكرية لبنى الانسان ، ويكشف عن مراحل التاريخ، وأطوار البشرية ، وقد يكشفون بلادا أو أمما ، بل لقد كشفوا ذات يوم قارة بأسرها ! •

كل هذا انمـــا كان باذن الله وربط الله على قلوب عباده ، ولست أنظر هنا الى الايمان والكفر ، والى أن هـــؤلاء المخترعين من الأمة المحمدية أو من أتباع عيسى وموسى ، ولكنى أنظر اليهم كأفراد من الانسانية ، يسرهم الله لما فعلوا ، وكل ميسر لما خلق الله ، فقد ربط بهذا على قلوبهم ، حتى بنوا هذه الصروح الشامخات للعلم والفن والتاريخ •

ولقد نرى كثيرا من الناس يحرمون هذه النعمة ، ولا يعرفون لها طعما ، فحياتهم فارغة وأفئدتهم فارغة ، وعرا عزائمهم منحلة ، بل انها لمشدودة بما ليس فيه خير ولا بر ولا نفع ، كهؤلاء الذين يقضـــون لياليهم فى المنتديات العابثة، والمقاهى التى على قارعة الطريق، يلاحظون المارة والمارات ، أو يلعبون النرد ، أو يأكلون لحوم الناس ، أو يدبرون المؤامرات والفتن ، ونراهم على ذلك يقضون الساعات ، ولا يأوون الى بيوتهم الا بعد منتصف الليل ، ويكررون ذلك كل ليلة ، ولا يعدلون بلذته لذة ، واذا غاب الواحد منهـــم عن شياطينه فى هـــذه المجالس والسهرات افتقدهم وافتقدوه ، وأحس وأحسوا بوحشة وانقباض ، كأن شيئا عظيما قد فاتهم ! •

فانظر الى الفرق بين الحياتين : بين من ربط الله على قلوبهم حتى عملوا وأنتجوا وأصلحوا ، ومن ختم الله على قلوبهم وشـــد عليها ، فهم لا يؤمنون وهم لا يعملون ! •

والقرآن الكريم يذكر عبارات أخرى غير عبارة الربط على القلوب، فيعبر بها عن هؤلاء المحرومين من توفيق الله وتيسيره ، الذين انغمسوا فى الفساد والضلال ، واختاروا لأنفسهم بيئات الباطل والمنكر ، ولووا

رءوسهم وعقولهم عن الحق المعروف ، من مثل قوله : « **ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة** » (سورة البقرة الآية ٧) « **سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق** » سورة الأعراف الآية ١٤٦) « **ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد الى الأرض واتبع هواه** » (سورة الأعراف الآية ١٧٦) « **انا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهى الى الأذقان فهم مقمحون وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون** » (سورة يس الآية ٨ ، ٩) « **فاستحبوا العمى على الهدى** » (سورة فصلت الآية ١٧) « **ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم** » (سورة يونس الآية ٣٨) الى غير ذلك من الآيات التى تدل على حرمان من حرم نفسه .

فالختم على القلوب ، أو الشد عليها ، أو الصرف، أو جعل الأغلال فى الأعناق ، أو الاقماح ، أو نحو ذلك ، هو التعبير القرآنى البليغ فى شأن المفسدين الضالين . والربط على القلوب أو تثبيتها ، والتوفيق أو الهداية أو ما الى ذلك ، هو التعبير القرآنى فى شأن المؤمنين الصالحين. وسيأتى بيان لذلك المعنى فى تفسير قوله تعالى : « **من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا** » .

ومن هنا يتبين أى معنى عظيم يتضمنه قوله تعالى فى شأن أصحاب الكهف : « **وربطنا على قلوبهم** » .

أثر ربط الله على قلوب الفتية :

بعد ذلك ننظر الى آثار هذا الربط من الله على قلوب فتية الكهف، كما تصوره لنا الآية الكريمة :

« **اذ قاموا فقالوا** » متعلق بقوله : « **وربطنا على قلوبهم** » أى أن ربط الله على قلوبهم حصل حين قاموا ، ويدلنا ذلك على أن فضل الله يلاقى من تعرض له ، وهيأ نفسه بالعمل لتلقيه ، فالله جل شأنه لم يقل : وربطنا على قلوبهم فقاموا ، حتى نفهم منه أن الله هو الذى دفعهم الى ذلك دفعا ، وبعثهم اليه ارتجالا ، ولكنه قال : « **وربطنا على قلوبهم اذ قاموا** » فجعل فضله ونعمته بالتثبيت والتأييد والتقوية

لمن قاموا بما اعتقدوا ، وأخذوا فى الأسباب ، وخطوا فى طريق العمل، وشبيه بهذا فى معناه : « لو توكلتم على الله حق التوكل لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا » فهو لم يصور لنا الطير قابعة فى أعشاشها ، منتظرة رزق الله ، يتنزل عليها من السماء ، أو تنشق عنه الأرض ، ولكنه صورها غادية رائحة ، يأتيها رزقها بين غدوها ورواحها.

عافوا الباطل فهجروه :

وهنا ينبغى أن نقف وقفة يسيرة نعتبر فيها بموقف أصحاب الكهف، فهم شبان كرهت نفوسهم ما عليه قومهم وأهلوهم ، وأنكرت قلوبهم أن يكون لله شريك ، وهو رب السموات والأرض ، الذى خلقها وأبدع تكوينها ، وأودعها أسراره وآياته ، وعلموا أن القول بهذا شطط وابعاد عن الصواب ومجافاة للواقع ، ولكن هؤلاء الفتية الشبان لم يكتفوا بهذه الكراهية النفسية ، والانكار القولى ، وانما اتخذوا خطة عملية فيها اجتراء وشجاعة ، وفيها زلزلة على الباطل واذلال له ، واستهانة به ، حيث تركوا هؤلاء القوم المشركين وما لهم من متاع وزينة وفتنة ، وهم شباب تجرى فى عروقهم دماء الحياة قوية، وتساورهم الآمال ، وتتراءى لهم الملاذ والشهوات ، فكأنهم قالوا للباطل : لا مقام لنا فى ربوعك ، ولا قبول منا للاستظلال برايتك، ونحن تاركوك ومنفضون عنك وذاهبون الى الجبال والكهوف ، فهى خير من جوارك • ولا شك أن هذه — بلغتنا الآن — مظاهرة كبرى ضد الباطل • مظاهرة صامتة جادة حازمة تروى أخبارها ، وتتفاقم آثارها ، وتفتح كثيرا من القلوب المغلقة ، والعيون المغمضة ، والأسماع المسدودة •

وفى أخبار هذه القصة ما يدل على أن أمر هؤلاء الفتيان قد شغل الناس وأصبح حديثهم ، وأنهم تسامعوا به وتساءلوا عنه ، ويعلم الله ماذا كان من تأثير ذلك على الباطل ، ولفت الناس الى الحق •

سبقت عزائمهم اقوالهم :

وعبارة القرآن الكريم فى تصوير ثورة الفتية على الباطل ذات أسرار • فلنا أن نفهم من قوله تعالى : « قاموا فقالوا » أن عزائمهم سبقت ألسنتهم ، وأنهم تحركوا وانطلقوا واضطلعوا بعقيدتهم ومبدئهم

اضطلاعا عمليا ترتب عليه ما ترتب ، وليس الغرض من قوله : « قاموا » أن يعلمنا بأنهم قالوا ذلك وهم قيام غير جلوس ، فهـذا معنى تافه لا يليق بجلال القرآن ودقة القرآن ، وانما المعنى المقصود هو قيامهم قيام اضطلاع وتحمل ، كما تقول : قمت بالأمر .. أى عملت لـه ، وسعيت فيه ، حتى نفذته وجعلته حقيقة واقعة .

وكما فهمنا من قوله تعالى : « **اذ قاموا فقالوا** » أن عزائم فتية الكهف قد سبقت أقوالهم ، نفهم أيضا من قوله : « **فقالوا** » أنهم جميعا كانوا على كلمة واحـدة امتلأت بها نفوسهم ، وتحركت بها ألسنتهم ، واهتزت لها جوارحهم ، هى كلمة الايمان «**ربنا رب السموات والأرض**» استدلوا بالدليل الفطرى الذى يستطيع كل انسان أن يستدل به ، اذا لم تفسد فطرته بالشهوات والأغراض ، واستدلوا بهذا الدليل القوى فى دلالته ، السهل فى ادراكه ومعرفته ، لم يركبوا قياسا منطقيا ولا دليلا كلاميا فلسفيا ، وانما نظروا فيما حولهم وفيما فوقهم فأخذتهم العظمة، وأدركهم الجلال ، وأيقنوا أن الذى خلق هذا وأتقنه ، هو رب كل شىء. والرب فى اللغة من التربية : وهى انشاء الشىء حالا فحـالا الى حد التمام . والمستحق لهذا اللفظ على الاطلاق هو الذى أنشأ كل شىء ، وأعطى كل شىء خلقه ثم هدى ، وقد اتخذ الناس أربابا يعظمونهم ، ويأتمرون بأمرهم ، وينتهون بنهيهم ، لأنهم ذاقوا منهم نعمة ما ، أو هم يترقبون أن يذوقوا منهم نعمة ما ، ولذلك سموهم أربابا ، ولكنهم نسوا أن هؤلاء الأرباب مربوبون لله ، مغمورون بنعمته منذ النشـأة الأولى ، فأغضبوا الله فى رضاهم ، وآثروا ما عندهم على ما عنده ، أما أصحاب الكهف وأمثالهم من « الربانيين » فقد خلعوا من أعناقهم كل ربوبية الا ربوبية واحدة ، هى ربوبية الخالق المالك ، وبذلك هان عليهم الملك والمتاع والمال وكل شهوة ، ورأوا فى المدينة سجنا يضيق بهم ، ولا يصلح لمقامهم ، فخرجوا الى الكهـف مؤثرين الأنس مع الله فى الوحشة والوحدة ، على مغاضبته والانقطاع عنه فى ظلال الترف والنعمة وعيش الحضارة والاجتماع .

توحيد كلمتهم فى توحيد ربهم

وقد جاء اعترافهم بوحدانية الله ، وخلعهم لجميع الأرباب بعد اعترافهم بعظمة الله ، ورجوع كل شيء فى الخلق والتربية اليه ، ولذلك قالوا : **« لن ندعو من دونه الها لقد قلنا اذا شططا »** و **« لن »** تفيد تأبيد النفى كما يقولون ، أى استمراره الى الأبد ، كأنهم قالوا : اذا كان الله هو رب السموات والأرض فلن يأتى وقت ندعو فيه غيره ، لأننا لو دعونا غيره نكون قد خالفنا الحقيقة والواقع ، وجئنا بالكذب والافتراء ، وشططنا وأبعدنا عن الصواب ، وهذا الايمان الذى حكاه الله عن فتية الكهف هو الذى يعتد الله به ، لأنه ايمان معتمد على عقل وتفكير وعرفان .

٤ ـ قال الله تعالى :

هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم
بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖۖ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا (١٥)
وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ
يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم
مِّرۡفَقٗا (١٦) *

معانى المفردات :

بسلطان :

السلطان فى الأصل : التمكن من القهر ، يقال : فلان ذو سلطان، أى قدرة وتمكن على تنفيذ ما يريد ، وفى الكتاب الكريم تقرير لشأن ابليس « **انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ، انما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون** » سورة النحل آية ٩٩ ، ١٠٠)وقد سميت الحجة سلطانا لتسلطها على القلوب ، وتأثيرها فيها بما يجعلها خاضعة مذعنة ، وأكثر ما تتسلط الحجة على أهل العلم والحكمة من المؤمنين ، أما أهل الجهالة والسفه والذين لم يخالط الايمان قلوبهم فهم عن الحجة معرضون ، وهم فيها مكابرون معاندون .

اعتزلتموهم :

الاعتزال : تجنب الشىء بالبدن أو بالقلب . ومن الأول قوله تعالى : « **فان اعتزلوكم فلم يقاتلوكم** » (سورة النساء آية ٩٠) ومن الثانى : « وأعتزلكم « **وأعتزلكم وما تدعون من دون الله** » (سورة مريم الآية ٤٨) والآية التى نفسرها من القبيل الثانى .

ينشر لكم :

والله ينشر رحمته : أى يبسطها ويجعلها شاملة : « **ورحمتى وسعت كل شىء** » (سورة الأعراف الآية ١٥٦) « **وهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته** » (سورة الشورى آية ٢٨) .

مرفقا :

رفقه يرفقه رفقا — من باب نصر — : أى نفعه ، وارتفق بالشىء انتفع ، والمرفق بالكسر والفتح فى الميم والفاء ، فاذا فتحت الميم فاكسر الفاء ، واذا فتحت الفاء فاكسر الميم ، وهو ما يرتفق به : أى ينتفع .

التفسير

يذكر الله لنا ما تحدث به هؤلاء الفتية بعضهم لبعض ، حين ثاروا

على الشرك والفساد والطغيان • وبدأوا خطواتهم العملية فى سـبيل الخلاص والنجاة •

وقد بينا فيما مضى معنى قولهم : **« ربنا رب السموات والارض لن ندعو من دونه الها لقد قلنا اذا شططا »** •

وفيه تقرير للحقيقة والواقع فى شأن الربوبية ، واعلان للايمان بهذا الواقع والاعتزاز به ، وايثاره على كل متاع ، وعدم الحيدة عنه أبد الدهر ، لأن التحول عنه شطط وابعاد •

وقد كان فيما تشاور به هؤلاء الفتية أن بعضـهم قال لبعض ما معناه : انظروا الى قومكم وبنى وطنكم ، لقد عبدوا غير الله واتخذوا من دون الله آلهة ليس لهم عليها حجة ولا برهان ، فأتوا بذلك افكا وافتراء وظلما وزورا • وأى عاقل يرى الآيات البينات ، والشـواهد الناطقات بربوبية الله ووحدانية الله ثم يكابر فيها ويعاند ، وينصرف عنها ملغيا عقله ، مغالطا نفسه ، فيعبد غير الله أو يتخذ من دونه أولياء ؟! لا شك أن ذلك أعظم فرية وأجرأ كذب ، لأنه افتراء على أكبر حقيقة وأشرف واقع ، ولقد اعتزلنا هؤلاء القوم وما يعبدون من دون الله ، اعتزلناهم بقلوبنا ، وتقطعت بيننا وبينهم صلة الايمان والدين والعقيدة، فما مقامنا بينهم وما بقاؤنا فيهم ، وما قرارنا فى محيطهم الظـالم وبيئتهم الفاسدة ؟ ! خير لنا أن نفر بأنفسنا وبايماننا ، وأن نلجأ الى الله فى كهف سحيق ، ملتمسين رحمته ، ورعايته ، فاننا ان فعلنـا أمنا ، وتهيأنا لرحمة من ربنا ينشرها لنا، وتوفيق يهدينا بهالى ما فيه الخير !•

هذا هو المعنى الاجمالى التقريبى لما تشاور به هؤلاء الفتيـة فيما بينهم ، وعلى طريقتنا التى اتبعناها فى التفسير نحب أن نتأمل فى الجزئيات بعد أن عرفنا المعنى الكلى •

بيتهم التى كانوا يعيشون فيها :

يصور لنا قولهم: « **هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة** » مجتمعهم الذى كانوا يعيشون فيه ، فنلمح منه أنه كان مجتمعا توغل فيه الفساد الى أقصى حد ، وذلك أن الشرك بالله ، واتخاذ غيره الها : شرك فى العقيدة ، وشرك فى العمل .

شرك العقيدة :

فأما شرك العقيدة فهو أن يعتقد الانسان أن مع الله الها آخر يستحق العبادة والطاعة ، كهؤلاء الذين كانوا يعبدون الشمس والقمر والأشجار والأحجار ، وغير ذلك من التماثيل التى عملتها أيديهم ، فهم لها مالكون ، وهم لها مملوكون ، ولا يوجد سفه وضلال يقع به الانسان فى التخبط والعماية كهذه العقيدة ، ولم نجد أحدا فى التاريخ يعتقدها الا ذوو الأحلام الضعيفة والعقول السخيفة ، ولذلك يسخر الله منهم دائما ، ويصفهم بالجهل والعمى ، وأن لهم قلوبا لا يعقلون بها ، وآذانا لا يسمعون بها ، وأعينا لا يبصرون بها ، وأنهم كالأنعام بل هم أضل سبيلا ، وهذه العقيدة الفاسدة مودية بصاحبها فى الدنيا قبل أن تودى به فى الآخرة ، وحسبنا أن نتصور رجلا يؤمن بالخرافات ، ويعتقد أن حجرا يصنعه بيده ، أو تمثالا يقيمه ويفتن فى نحته اله له ، يعبده ويطأطىء رأسه اجلالا له وخوفا منه ، لا شك أنه يكون فى سائر تصرفاته ذا عقلية ضئيلة ، وشخصية هزيلة ، ومثل هذا لا يرجى منه أى خير ، بل هو — دائما — عرضة لجميع الشرور وألوان الفساد . ولذلك يصور الله حال المشرك به تصويرا رائعا ، يمثل جميع معانى الحيرة والاضطراب ، والخوف والضعف والضلال فيقول : « **ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق** » (سورة الحج الآية ٣١) .

هذا هو شرك العقيدة ، وهو أول انحراف عن سواء السبيل ، واليه يرجع كل اضطراب وكل شر وكل فساد فى هذه الحياة .

شرك العمل :

أما شرك العمل فهـو ايثار ما سوى الله على الله ، وان اعتقدت أن الله واحد وأن الأمر بيده • لا يكفى أن تؤمن النفس ايمانا سلبيا داخليـا بأن الله هـو مالك النواصى والأقدام ، ثم لا يظهـر لهذا الايمان أثر فى التصرف والعمل ، بل يظهر فى الأعمال والتصرفات عكس ذلك • كأن الايمان هو ذلك الزعم القلبى الخفى الميت الذى لا روح له ولا حياة به !! ان الايمان الحق هو الذى يحول بين صاحبه وبين اتيان المنكرات واقتراف الآثام **« لا يزنى الزانى حين يزنى وهـو مؤمن ولا يقتل القاتل حين يقتل وهو مؤمن »** الايمان الحق هو الذى يبعث فى المؤمن خلق الاعتزاز بنفسه عن غير غرور ، والاحتفاظ بكرامته عن غير علو وكبرياء ، فلا يذل لمخلوق ، ولا يرجو عرضا فانيا ، ولا يؤثر متاعا باليا ، اذا تعارض ذلك مع أمر ربه أو رضى ربه ، ولذلك يصف الله الذين أضلتهم الأهواء وأعمتهم الشهوات بما يصف به المشركين **« واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنـا فانسلخ منها فأتبعه الشـيطان فكان من الغاوين • ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد الى الأرض واتبع هواه »** (سورة الأعراف آية ١٧٦) **« ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا »** **« أرأيت من اتخذ الهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا ، أم تحسب أن أكثرهم يسـمعون أو يعقلون ، ان هـم الا كالأنعام بل هم أضل سـبيلا »** (سـورة الفرقان آية ٤٣ ، ٤٤) **« بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدى من أضـل الله وما لهم من ناصرين »**(سورة الروم آية ٢٩)الى غير ذلك من الآيات • فالقرآن الكريم يعبر عن المتبعين للأهواء ، المؤثرين للشهوات والمتاع الفانى على الحق وما عند الله ، بأنهم قد اتخذوا الهوى الها يعبدونه ويخضعون له ، ولذلك لا نرى أنفسنا مبعدين عن الصواب اذا قلنا ان قول أصحاب الكهف : **« هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة »** لا يعنى آلهة الشرك فى العبادة والعقيدة فحسب ، وانما يعنى أيضا آلهة الهوى والشهوات التى تتبع فى الأعمال والتصرفات ، فتفسد المجتمع ، وتجنى على الأمة والأفراد ، وتنشر الفساد ، وتبث الظلم والمحاباة والرشوة وأكل الأموال بالباطل ونصرة المبطلين وتثبيط المصلحين وغمط الحـق والنافق والملق والكذب والجبن والخداع والتلون وما الى ذلك من أخلاق السوء ، ان مجتمعا كهذا ليس جديرا بأن يبقى فيه أمثال هؤلاء الفتية

المؤمنين المتطهرين ، الذين آثروا الله على كل ما سواه ، وعزفوا عن أسباب النعيم والترف والمتاع حين رأوها متعارضة مع عقيدتهم وما آمنوا به مخلصين .

ويدلنا قوله تعالى : « **لولا يأتون عليهم بسلطان بين** » على قيمة الحجة والبرهان فى نظر القرآن ونظر أهل العلم والحكمة ، وذلك أن من المعروف أنه لا حجة على الشرك ، ولا دليل على أن مع الله آلهة أخرى — تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا — ولكن القرآن مع هذا يطالب المشركين بالبرهان ، ويحاكمهم الى الحجة ، ويطلب منهم أن يأتوا له على ما يقولون بسلطان مبين ، وفى ذلك اشعار بعظم قدر الحجة والبرهان، حيث حكمها الله فى كل شىء حتى فى الايمان به وتوحيده ، وقد جاء فى آية أخرى : « **ومن يدع مع الله الها آخر لا برهان له به فانما حسابه عند ربه** » (**سورة المؤمنون آية ١١٧**) **فليس على الشرك برهان ، ولكنه مع هذا قيد الاشراك الذى يحاسب عليه بهذا القيد ، والمفسرون يقولون : انه قيد لبيان الواقع ..** نعم هو كذلك ، فما كان لعقل أن يصل الى برهان على الشرك بالله أو شبه برهان ، ولكن الله انما قيد بهذا القيد ليلفتنا الى معنى كريم هو تعظيمه لشأن البرهان والدليل ، واذا تبين هذا علمنا .. لماذا عبر عن الحجة والبرهان بلفظ « سلطان » وهو المشعر بالقوة والغلبة والتمكن من القهر ؟؟ . أليس فى كل ذلك ايحاء لنا بأن نعتد بالعقل ، ونكبر من شأن الحجة ، ونتنزل على حكم البرهان فى جدالنا ونقاشنا وما نعرض له من بحث ودرس ، وننقاد له كما ينقاد أحدنا للسلطان القاهر ؟! .

منزلة البرهان فى نظر القرآن :

ولكن قوما من الناس ألفوا أن يكابروا فى الحجة ، ويصموا آذانهم عن الدليل ، لأنهم ورثوا ما اعتقدوه عن آبائهم وأجدادهم ، ولم يعتنقوه عن علم وبصر وبحث ونظر ، لذلك تراهم يشيحون برؤوسهم ، ويثنون أعطافهم ، وينأون بجنوبهم ، كلما سمعوا داعيا يدعو الى الحق بالدليل المقنع ، والبرهان الناصح ، وانها — والله — لاحدى الكبر .

لو كرم الناس شأن البرهان والنظر ــ كما كرمه الله ــ لما رأينا هذه الخلافات والعداوات والضلالات ، لما رأينا قوما يتمسكون بشيء تمسكا يجعلهم يظنون أنه هو الدين وعين اليقين ، وآخرون يتمسكون بنقيضه ، ويصفون مخالفيهم بأنهم على الباطل المحض ، بل بأنهم مارقون من الدين ، ولكنها الأهواء ، فرقت قلوبنا وأغرت العداوة والبغضاء فيما بيننا ، والحق بين ذلك يتيم لطيم .

٥ ـ قال الله تعالى :

وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن
كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ
ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن
يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا
مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ
ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ
لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ
رُعْبًا ﴿١٨﴾

معانى المفردات

تزاور :

الزور — بفتح الواو — : الميل ، وهو مثل الصعر بفتح العين ، وعنق أزور : أى مائل ، والازورار عن الشىء والتزاور عنه : العدول والانحراف ، يقال : ازور عنه — بتشديد الراء — وتزاور عنه : أى مال وانحرف ، وأصل الفعل الذى فى الآية « تتزاور » ثم حذفت احدى التاءين تخفيفا .

تقرضهم :

القرض : نوع من القطع ، وكما يقال : قطعت المكان بمعنى تجاوزته وتعديته ، يقال بهذا المعنى أيضا قرضته ، ولم يأت هذا الفعل فى القرآن الكريم بهذا المعنى الا فى هذا الموضع ، ومعناه : أن الشمس تخلفهم شمالا ، وتجاوزهم وتقطعهم وتتركهم عن شمالها . يقول الرجل لصاحبه : هل مررت بمكان كذا ؟ فيقول المسئول : قرضته ذات اليمين ليلا .

فجوة :

الفجوة : المتسع . والجمع فجوات .

بالوصيد :

الوصيد : فناء الدار والبيت ، والمراد به هنا فناء الكهف ، وكأنه من أوصدت الباب : أى أغلقته ، فهو موصد ، وفى حديث أصحاب الكهف : فوقع الجبل على باب الكهف فأوصده : أى سده ، فسمى الفناء « بالوصيد » لأن الباب شأنه أن يوصد عليه .

التفسير :

لم يذكر الله — جل وعلا — مكان هذا الكهف الذى أوى اليه الفتية المهتدون ، لأنه لم يتعلق غرض بذكره ، والقرآن انما يعنى بذكر المفيد ، وقد ذكر لنا وصف هذا الكهف وموقعه الطبيعى من الشمس ، ثم أتبعه

بوصف الفتية فى منامهم ، وما كان من هيئتهم العجيبة وتقلبهم ذات اليمين وذات الشمال ، وسنرى فائدة هذا الوصف بعد قليل .

وصف الكهف من حيث موقعه :

هذا الوصف للكهف يدل على أنه كان مطلا على ناحية الشمال ، وهى الجهة التى تكون على شمال المتجه نحو مشرق الشمس ، أو كما يقول الناس : « الجهة البحرية » وذلك كأن الله — تعالى — يقول : ان الشمس فى وقت طلوعها تميل وتنحرف عن كهفهم ناحية اليمين ، وفى وقت غروبها تجاوزهم وتتعداهم الى ناحية الشمال ، واليمين والشمال هنا يمين الكهف وشماله ، قال ابن كثير : (وهذا بين لمن تأمله ، وكان له علم بمعرفة الهيئة ، وسير الشمس والقمر والكواكب ، وبيانه : أنه لو كان باب الغار من ناحية الشرق لما دخل اليه منها شىء عند الغروب، ولو كان من ناحية القبلة لما دخل منها شىء عند الطلوع ولا عند الغروب، ولا تزاور الفىء يمينا ولا شمالا ، ولو كان من جهة الغرب لما دخلته وقت الطلوع ، بل بعد الزوال ، ولم تزل فيه الى الغروب ، فتعين ما ذكرناه — وهو أن باب الكهف كان الى ناحية الشمال) .

وبعد أن حدد الله موقع الكهف نفسه ، بين لنا موضع الفتية فيه ، فذكر أنهم فى متسع منه ، فليسوا قرب بابه ، ولا مجاورين لحيطانه أو طرق السير فيه .

وفق الفتية الى كهف هذا موقعه ، والى النوم فى فجوة منه بتوفيق من الله عز وجل ، وكانت فائدة ذلك أن الشمس لا تمس أجسامهم ، وأن ضوءها الشديد لا يؤثر فيهم ، فيوقظهم أو يهيج أعصابهم !! ولذلك يرى بعض المفسرين أن قوله تعالى : **« ذلك من آيات الله »** . معناه حيث أرشدهم الى هذا الغار الذى جعلهم فيه أحياء، والشمس والريح تدخلان فيه ، لتبقى أبدانهم مع عدم التأثر بهما !! وكما أن الله وفقهم هذا التوفيق المادى بارشادهم الى هذا المكان الملائم، وصانهم عن الموت والهلاك بتدبير منه ولطف وكرم ، كذلك رجوعهم أولا عن الكفر ورغبتهم فى الايمان كان بتوفيق من الله ولطف واعانة ، ولذلك قال عز شأنه : **« من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد**

له وليا مرشدا » وهو تعبير شامل لهدايتهم الى ما فيه صلاحهم ، هداية حسية مادية بهذا التوفيق ، وهداية قلبية معنوية بما وقر فى نفوسهم من الايمـــان •

معنى هـداية الله واضلاله :

ولا ينبغى أن يفهم من هذا أن الله — سبحانه وتعالى — يمنح بعض العباد لطفه واعانته على غير سنة مقررة عنده ، تعالى الله عن ذلك ، وانما يمنح الله الهدى والخير من كان مستعدا لهما ، وأهلا لأن يفوز بهما ، ويقضى بالشقاء والضـــلال على الذين فســـدت قلوبهم ، ومرضت نفوسهم ، واعتل وجدانهم •

وقد أسندت الهداية والاضلال الى الله فى كثير من الآيات بما قد يشعر بأن الأمر أمر قضاء لا يستطاع رده ، وجبر لا يستطاع دفعه ، ولكن من تأمل فى موارد هذه الآيات وما أحاط بها ، سهل عليه أن يدرك معناها الصحيح • فمثلا قوله تعـــالى : **« ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة »** (سورة البقرة الآية ٧) قـــد يدل بظاهره على أن عدم ايمانهم انما هو قضاء من الله عليهم لا دخل لهم فيه ، وأنه بطبع من الله وختم ، ولذلك يعترض بعض الناس أو يتساءل: اذا كان الله هو الذى أراد ذلك وفعله ، فما ذنب المخلوق ، ولم يستحق العذاب العظيم على شىء لم يتمكن — باعتبار خلقه وتكوينه — من دفعه عن نفسه ؟ ! •

الحقيقة أن هذه الآيات مسوقة لبيان حال قـــوم تمردوا وعتوا واستكبروا ، فهم يعرفون الحق وينكرونه ، كلما لاح لهم نور الايمان حجبوه عن أنفسهم ، وأعرضوا عنه واستكبروا ، وقد شغلتهم عنه أهواؤهم وشهواتهم وأموالهم • وهؤلاء هم الذين قال الله تعالى فيهـــم : **« أن الذين كفروا ســـواء عليهم آأنذرتهم أم لم تنذرهـــم لا يؤمنون »** (سورةالبقرةالآية ٦) وقد مثل حالتهم وحالة قلوبهم فى قساوتها بمثل شىء ختم عليه فلا يستطاع الوصول اليه ، وفى ذلك يقول الراغب الأصبهانى : ان قوله تعالى **« ختم الله على قلوبهم »** ســـورة البقرة من الآية ٧) اشارة الى ما أجرى الله به العادة من أن الانسان اذا تناهى اعتقاد باطل ، وارتكاب محظور ، ولا يكون منه تلفت بوجه

الى الحق ، يورثه ذلك هيئة تمرنه على استحسان المعاصى ، وكأنما يختم بذلك على قلبه ، وعلى ذلك : « **أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم** » (سورة النحل الآية ١٠٨) .

ويوضح ذلك قوله تعالى : « **ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم** » (سورة المنافقون الآية ٣) « **فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون الا قليلا** » (سورة النساء الآية ١٥٥) « **أفرأيت من اتخذ الهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون** » (سورة الجاثية الآية ٢٣) فكل هذه الآيات تدل على أن فعل العبد وما يختاره لنفسه هو السبب فيما يعامله الله به ، وأن العبد اذا جنح الى الضلال ، وتمادى فى أسبابه ، وكله الله الى ما اختار ، وأمده وطاوله: « **واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد الى الأرض واتبع هواه** » (سورة الأعراف الآية ١٧٥ ، ١٧٦) أى فتركناه وما أخلد اليه، وخليناه لما اتبعه ، ولم نرفعه ، لأنه غير أهل للرفع ، ولا جدير بالهداية، بعد أن رفضها وانسلخ منها .

بمثل هذا التفسير تطمئن القلوب ، ويندفع عن كثير من الناس ما يرد على أذهانهم ، اذا قيل : ان الأمر أمر قضاء محض لا دخل فيه للمكلفين ، وارادة من الله هم مجبورون عليها .

وبعد أن وصف الله عز وجل حالة الكهف وموقعه ومكان الفتية منه، ذكر لنا بعض أوصاف هؤلاء الفتية أثناء نومهم فقال :

صفة الفتية حال نومهم :

« **وتحسبهم أيقاظا وهم رقود ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا** » .

والخطاب فى قوله : « **وتحسبهم** » كالخطاب فى قوله : « وترى **الشمس** » وقوله : « **لو اطلعت عليهم** » ليس موجها الى شخص معين ، وانما هو لكل مخاطب يستمع الى هذا الكلام ، على معنى : لو رأيتهم لرأيتهم على هذه الصورة .

وقد ذكر فى تفسير هذه الآية أقوال : منها أنهم كانوا نياما وعيونهم مفتحة ، ومنها أنهم لكثرة تقلبهم يظن أنهم أيقاظ ، ومنها أنه كان لهم فى كل عام تقليبتان ، أو أنهم يمكثون على جنوبهم اليمنى تسع سنين ، ثم يقلبون على شمائلهم فيمكثون رقودا تسع سنين ، أو أن لهم فى كل عام تقليبة واحدة فى يوم عاشوراء .. الخ ما يذكر مستندا الى روايات ضعيفة أو لا أصل لها ، وليس فى لفظ القرآن ما يدل عليها !!

ويكفينا أن نتصور أن هؤلاء الفتية كانوا على حـالة عجيبة غير عادية ، فهم قد ناموا عددا كثيرا من السنين دون أن يموتوا جوعا أو عطشا ، واذا مرت السنون على هذا النحو بالأحياء أخذوا شكلا رهيبا يبعث على الخوف والرعب ، فلا بد أن تكون شعورهم قـد طالت ، وأظافرهم قد امتدت ، ولعل أجسامهم قد علاها شىء من الغبار أو العرق أو نحو ذلك !! وفائدة تصور هذا أن نؤمن بقدرة الله وعجائب خلقه ، ونعلم أن الله حين يفصل مثل هذا التفصيل فى شأنهم يريد أن يوحى الى الناس أن محمدا رسوله ، وأنه يعلمه من تفاصيل الغيوب الماضية ما لا يعلمه أحد .

٦ ـ قال الله تعالى :

وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ
مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُواْ رَبُّكُمْ
أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ
فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ
وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ
يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾

بعثناهم :

البعث فى هذه الآية : هو الايقاظ من النـــوم ، وقد عبر القرآن الكريم عن هذا المعنى بهذا اللفظ هنا وفى قوله تعالى : « **وهـــو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه** »، (سورة الأنعام آية ٦٠) لأن النوم من جنس الموت ، اذ هـــو غيبوبة عن الوعى ، وانصراف عـــن شئون الحياة ، فسمـاه « توفيا » وسمى التيقظ منــه « بعثـــا » وقـــد كانت نومة أهـــل الكهـــف أجـــدر نومة بأن يعـــد الانطـــلاق منهـــا والتيقظ بعدها بعثا ، لطولها وامتداد زمنها ، كأن أصحابها ماتوا وصاروا من أهل القبور ثم بعثوا ، وفى التعبير بالبعث هنـــا غير ذلك ترشيح للمعنى الذى سيذكر بعد قليل فى قوله تعالى: «**وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها** »،
فهو لفت للعقلاء الى أنه لا فرق يعتد به العقل كبير اعتداد بين النوم الطويل والموت ، ولا بين اليقظة التى هى استعادة النشاط والبعث الذى هو استعادة الحياة ، فمن كان فى قدرته أحدهمـــا كان فى قدرته الآخر ، وهذا شبيه بما جاء فى قوله تعالى : « **ونفخ فى الصور فاذا هم من الأجداث الى ربهم ينسلون ، قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصـــدق المرسلون** » (سورة يس آية ٥١ ، ٥٢) فالكلام فى البعث بعد الموت ، ومع **ذلك عبر عن القبر الذى هو من خصائص الميت بالمرقد الذى هو** من خصائص الحى فيما يتعارفه الناس ، ليعلموا أن الفرق بين النوم والموت وبين اليقظة والبعث ليس بذى شأن ، بل الأمران متشابهان ، حتى ليسوغ أن تستعمل فى هذا ألفاظ ذاك وبالعكس، وهذا من فنون البيان البليغ ، بما يحمله من اشارة وايحاء .

بورقـــكم :

الورق بكسر الراء : الدراهم من الفضة ، وقيل : هى الفضـــة سواء أكانت دراهم أم لا ، ويدل عليه ما روى من أن شخصا اسمه « عرفجة » اتخذ أنفا من ورق .

فليأتكم برزق منه :

الرزق : النصيب الذى يقضيه الله للانسان فى أى شىء ، ماديا كان أم معنويا . فالمال رزق ، والطعام رزق ، واللباس رزق ، والعلم رزق ، والجاه رزق ، وهكذا ، والمراد هنا حظ من الطعام.

وليتلطف :

من معانى اللطف حسن التأتى واللباقة فى تناول الأمور الدقيقة ، ومنه قوله تعالى : « **أن ربى لطيف لما يشاء** » (سورة يوسف آية ١٠٠) أى يحسن الاستخراج والتدبير ، ومعنى التلطف فى آياتنا هو من هذا ، يوصون رسولهم بأن يكون لبقا ، حسن التصرف ، صاحب سر وكتمان ، لئلا يوقعهم فى حرج ، أو يجر اليهم ضررا .

يظهروا عليكم :

اما أن يكون بمعنى الاطلاع ، كما فى قوله تعالى : « **أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء** » (سورة النور آية ٣١)

أو بمعنى العلو والتمكن ، كما فى قوله تعالى : « **ليظهره على الدين كله** » (سورة التوبة ٣٣) « **فأصبحوا ظاهرين** » الصف آية ١٤

وقد يرجح الأول بما يفيده قوله تعالى : « **ولا يشعرن بكم أحدا** » .

يرجموكم :

يستعمل الرجم فى الكتاب الكريم بمعنى القتل كثيرا ، ومن ذلك قوله تعالى : « **ولولا رهطك لرجمناك** » (سورة هود آية ١٩)

« **لئن لم تنته لأرجمنك** » (سورة مريم ٤٦)

« **وانى عذت بربى وربكم أن ترجمون** » (سورة الدخان آية ٢٠)

وأصل الرجم الرمى ، والمراد يقتلوكم أخبث قتل .

التفسير :

كان أمر الفتية كله تدبيرا من الله وتوفيقا وهداية وحسن رعاية ، فالله — جل ثناؤه — هو الذى ربط على قلوبهم بالايمان ، وعصمها من زلزلة الكفر وكيد الكافرين ، والله تعالى هو الذى ساقهم الى هذا الفرار بأنفسهم من بيئة الفساد والطغيان وتجاوز الحد فى شأن الخالق

والمخلوقين ، والله تعالى هو الذى هيأ لهم هذا الكهف ، وأرشدهم بلطفه الخفى الى أليق مكان فيه ، ثم أنامهم وحفظهم هذه المدة الطويلة التى لم تجر بمثلها عادة البشر، فقوله تعالى بعد هذا كله : **«وكذلك بعثناهم»** معناه : كما دبرنا لهم كل هذه الأحوال بأمرنا وقدرتنا ، فهديناهم ، وربطنا على قلوبهم ، وحفظنا أبدانهم وأشعارهم وأبشارهم من أن يتطرق اليها الفساد .. كذلك أيقظناهم من تلك النومة التى تشبه الموت . والواقع أن الايقاظ بعد هذا العهد الطويل هو موطن العجب، ومظهر القدرة ، فلو أن هؤلاء الفتية ناموا ولم يقوموا من نومتهم لما التفت اليهم أحد ، ولما شعر بهم أحد ، لأنه لا فرق بينهم وبين الأموات الذين طوتهم القبور ، لكن اليقظة بعد هذا الانقطاع التام عن الدنيا وما فيها آية من آيات الاعجاز وهى مما لا يكون الا بأمر الله وتدبير الله ، كشأن هؤلاء الفتية !! .

بعث الأموات شبيه بايقاظ النائمين :

وقد قلنا فى تفسيرنا للمفردات : ان هذا التعبير عن الايقاظ بالبعث ، فيه ايحاء بمعنى سيصرح به القرآن بعد قليل فى قوله تعالى : **« ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها »** وكأنى بهذا اللفظ المفرد ، وهو قوله تعالى فى هذا المقام : « بعثناهم » ينادى المنكرين للبعث نداء عنيفا ، ويجرهم من أودية خيالهم وضلالهم الى وجه الدليل والبرهان جرا ، ويقول لهم : ان الذى يوقظ قوما نياما طال نومهم سنين عددا ، لا يعجزه أمر البعث الذى تتساءلون عنه ، وتتعجبون منه ، وتقيمون الدنيا وتقعدونها من أجله ، فهذا بعث أو شبيه بالبعث ، لو كنتم تعقلون أو كنتم تنصفون .

وهكذا يستغل البيان القرآنى كل فرصة ليبث فكرة الاسلام ومبدأه ، حتى لينتفع فى ذلك بالألفاظ المفردة حين يضع لفظا مكان لفظ ، كما وضع هذا البعث مكان الايقاظ ، وكم كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — موفقا مسددا من ربه ، حينما صاح بالقوم فى أول عهده بالرسالة : « والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون » .

ذكر الله تعالى أن هذا البعث كان ليتساءلوا بينهم ، فقال بعض المفسرين : ان اللام فى قوله : « ليتساءلوا » ليست لام التعليل ، وانما هى لام العاقبة ، على حد قوله تعالى : **« فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا »** (سورة القصص آية ٨)أى التقطوه فكان عاقبة هذا الالتقاط أنه كان لهم عدوا وحزنا ، فالمعنى : بعثناهم ، فكان عاقبة هذا البعث أنهم تساءلوا بينهم ، وقال آخرون : بل اللام للتعليل على حقيقتها ، والمعنى : انما كان بعث الله لهؤلاء الفتية ليحصل بينهم هذا التساؤل ، وهو أن يقول بعضهم لبعض : كم لبثتم ، ويجيبه أصحابه بما أجابوا به .

وكلا التفسيرين فى رأيى مقبول : أما الأول فمآل المعنى فيه أن يقال : بعثهم الله فتساءلوا بينهم هذا التساؤل ، وهو طرد للكلام فى القصص ، والاخبار عن أحوالهم وما كان منهم وما قالوه ، وأما الثانى : فيؤخذ منه أن الله عنى بهؤلاء الفتية عناية خاصة ، ووجه اليهم من أحوالهم دليلا تطمئن اليه قلوبهم ، ويعلمون به أنهم على حق فيما فعلوا ، فأنامهم ثم أيقظهم من النوم ليتساءلوا بينهم عما كان من شأنهم ، فيفضى بهم التساؤل الى اطمئنان المؤمنين ويقين المصدقين ، ذلك بأن قائلا منهم قال : كم لبثتم ؟ وهذا سؤال لا يقال اتفاقا ، وانما نظر الى هيئة أصحابه وهيئته فأنكرها ، وعجب لها ، وقام بعقله الباطن معنى : هو أن النوم كان طويلا ، واللبث كان ممتدا ، فجرى لسانه بالسؤال عن مدته ، فهذا السؤال يحمل بين طياته معنى التعجب ولفت النظر والتنبيه الى أمر خطير !! وكان الجواب عنه أن قالوا : **« لبثنا يوما أو بعض يوم »** كأنهم يقولون : ما بالك تسأل هذا السؤال والمفروض أننا لبثنا يوما أو بعض يوم !! وهذا جواب طبيعى يقوله القائل على البديهة اذا انبعث من النوم المعتاد ، وهو يحمل بين طياته معنى آخر ، هو أن هذه الفترة مضت على طولها سهلة هينة لينة ، الى درجة لم يشعروا معها الا بما يشعر به المستيقظ من رقاد عادى ، وكأن فى الكلام بعد هذا السؤال والجواب طيا ، كما هى عادة القرآن ، لأن سؤالا كهذا وجوابا كهذا لا بد أن يكونا قد أخذا من الفتية قسطا من النظر والتأمل والمناقشة ، وأن يكون بعضهم قد لفت بعضا الى أن

فى الأمر شيئا غير معتاد ، ثم انتهى نقاشهم وتساؤلهم بقولهم : « **ربكم أعلم بما لبثتم** » أى أنتم لا تعلمون مدة لبثكم، فليس الأمر يوما أو بعض يوم كما تظنون ، وليست هذه الحالة التى نحن عليها بالتى يقال معها ذلك ، وانما الله هو الذى يعلم مدة لبثكم ، وهذا منهم رد الى الله ، ورجوع الى حسن الأدب معه جل شأنه ، وفيه دليل على أنهم شعروا بغرابة أمرهم ، وما أحاط بهم من العجائب ، فزادهم ذلك ايمانا بالله ويقينا ، فالله — سبحانه وتعالى — انما بعثهم هذا البعث بعد هذا الرقاد الطويل ، ليهيىء لهم من هذا التساؤل تدبرا ونظرا يفضيان بهم الى كمال اليقين ونهاية التسليم ، ولا عجب فى هذه العناية الربانية فقد يعنى الله بفرد واحد يحبه ، فيهيىء له من أسباب الثقة به ، والاطمئنان اليه ، وعرفانه والأنس به مالا يهيئه لكثير من الناس .

ثم انتقل هؤلاء الفتية من التساؤل فيما بينهم الى شأن يهمهم اذ ذاك ، وهو احتياجهم الى الطعام والشراب ، فقالوا : « **فابعثوا أحدكم بورقكم هذه الى المدينة** » كان لديهم كما يفهم من هذا فضة استحضروها معهم حينما خرجوا من المدينة الى الكهف ، وفى هذا دليل على أن استصحاب الزاد والوسائل العادية مشروع ، وأنه لا يبطل التوكل ، وهكذا يجمع المؤمنون بين لجوئهم الى الله واعتمادهم عليه ، واتخاذ الأسباب والوسائل التى جعلها سنة من سنن الخلق والكون .

روح الايمان ، يظهر فيما ينطق به اللسان :

وقد تجلى ورع هؤلاء الفتية وتنزههم حينما أمروا رسولهم بأن ينظر فى طعام المدينة ليختار منه أزكاه وأطيبه ، ويبتعد عن خبيثه ، وتجلى ايمانهم حينما عبروا عن الطعام الذى طلبوه بالرزق ، والقلب اذا كان مؤمنا دلت عليه العبارات وما ينطق به اللسان .

كان أهل الكهف يودون أن يظلوا فى كهفهم منعزلين عن الناس ، بعيدين عن بيئة الشرك والطغيان ، ولذلك حرصوا على أن يوصوا

رسولهم الى المدينة — حين استيقظوا ، واحتاجوا الى الطعام — أن يأتى لهم برزقهم منه ، وأن يتلطف فى اجتلاب هذا الرزق ، ويتخذ لذلك وسيلة لبقة تحفظ عليهم سرهم ، ولا تفسد عليهم هذا الهدوء الذى تمتعوا به ، وهذا الانقطاع الذى ألفوه وركنوا اليه ، وقد قام بأذهانهم أن الطغاة والمفسدين لن يتركوهم اذا علموا بهم ، وتمكنوا منهم ، فاما أن يقتلوهم شر قتلة ، واما أن يعيدوهم فى ملتهم بعد أن نجاهم الله منها ، ويومئذ يحق عليهم الخسار الأبدى — دل على هذا ما حكاه الله عنهم من قولهم : « **فابعثوا أحدكم بورقكم هذه الى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاما فليأتكم برزق منه وليتلطف ولا يشعرن بكم أحدا انهم ان يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم فى ملتهم ولن تفلحوا اذا أبدا** » .

الرجم خير من العود إلى ملة الكفر

وأحب أن يلتفت القارىء الى معنى كريم فى هذا الترديد بين قولهم: « **يرجموكم أو يعيدوكم فى ملتهم** » فقد كان اشفاقهم وخوفهم موزعا بين أمرين كلاهما فى مستوى واحد لديهم : أمر حياتهم وما هى مهددة به من الضياع على أيدى الطغاة الظالمين بأفظع صورة ، وأمر دينهم وما هو مهدد به من الزلزلة والفتنة على أيدى أهل الشرك والجحود ، وهكذا تستوى الحياة والعقيدة فى قيمتها عند المؤمن ، ويرى نفسه مكلفا بالمحافظة على دينه وعقيدته ، كما هو حريص على حياته ودمه .

ولا ينبغى أن يفهم من ذلك أن الحياة والعقيدة ما دامتا فى الدفاع عنهما سواء ، فهما فى البذل والفداء سواء ، لا ينبغى أن يظن ذلك ، فان لله عبادا — ومنهم فتية الكهف كما سنوضحه بعد قليل — يبيعون الحياة بيع السماح فى سبيل الاحتفاظ بالعقيدة ، وقد أنبأنا الله فى قصة موسى أن فرعون هدد السحرة الذين آمنوا بموسى ، وقد جىء بهم ليخذلوه ، هددهم بأشنع ميتة وأفظع صورة من صور الانتقام ، وهم يعلمون أنه ملك جبار عتيد قادر على أن ينفذ وعيده . « **قال آمنتم له قبل أن آذن لكم انه لكبيركم الذى علمكم السحر فلأقطعن أيديكم**

وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم فى جذوع النخل ولتعلمن أينا أشــد عذابا وأبقى ، قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض انما تقضى هذه الحياة الدنيا انا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى » (سورة طه الآيات ٧١ ــ ٧٣) لم يرهبهم وعيده ولا تهديده ، و لم يصرفهم ذلك عما هداهم الله اليه من الايمان والمعرفة ، وفضلوا الموت على الصورة التى وصفها هذا الطاغية ، فضلوا الموت على أن يخالفوا عقيدتهم أو يرتدوا عن دينهم !!

وهذا هو شأن المؤمنين ، وأقول المؤمنين مريدا بهم الذين اطمأنت قلوبهم الى وعد الله حقا ، وأشرقت عليها أنوار العرفان حقا ، ولا أقصد الذين يزعمون الايمان وهو لا يجاوز ألسنتهم الى حناجرهم ، والله ــ جل ثناؤه ــ يحدثنا عن هؤلاء المؤمنين الثابتين ذوى الفداء والتضحية بقوله : « **وكأى من نبى قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لمــا أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين • وما كان قولهم الا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا واسرافنا فى أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين** » (سورة آل عمران ١٤٦ ، ١٤٧) •

وفى كلام فتية الكهف ما يدل على أنهم من الذين ثبت الله قلوبهم **بالايمان، وزينه فى قلوبهم حتى ليؤثرونه على الحياة ، ذلك أنهم ذكروا** الرجم فى قولهم : « يرجموكم » فلم يعلقوا عليــه بشىء ، وذكروا الاعادة الى ملة الكفر فى قولهم : « **أو يعيدوكم فى ملتهم » فعلقوا عليها** بأهم شىء وهو قولهم : « **ولن تفلحوا اذا أبدا » فكأنهم لا يهتمون** بالرجم يصيبهم ، كما يهتمون بالارتداد الى ملة الكفر يخشــون أن يقهروا عليه •

ولو كان **الأمران لديهم سواء لعلقوا عليهما معا أو تركوهما بدون** تعليق معا ، ولكن لسان حالهم فى هذا **يقول : اذا رجمنا ومتنا فلا بأس** علينا وقد انقضت هذه الحياة الأولى ، وان بعدها لحياة أخرى فيهــا الفلاح والكسب والظفر بما عند الله • أما اذا قهرنا على العود الى الملة الباطلة فهنا تكون الطامة الكبرى والمصيبة العظمى ، التى ليس لنا أن نتوقع بعدها النهوض والفلاح أبد الآبدين • يفهم هذا من تعليقهم على

الارتداد الى ملة الكفر ، وعدم تعليقهم على الرجم • وتشعر العبارة التى علقوا بها أن حالة الموت فى سبيل العقيدة لا خسار فيها ، وانما الخسار وعدم الفلاح فى حالة التزلزل والافتتان والعودة الى الضلال ، وهنا معنى لا يدركه ولا يعول عليه الا المؤمن ، لأنه هو الذى يعلم أن له ربا ، وأن لهذا الرب ثوابا أو عقابا فى دار بعد هذه الدار ، فهو يبيع العاجلة بالآجلة ، ويؤثر التى تبقى على التى تفنى — وهذا هو المعنى الذى أراده فتية الكهف ، وهو المعنى الذى قرره السحرة حينما قالوا :

« **فاقض ما أنت قاض انما تقضى هذه الحياة الدنيا** » سورة طه آية ٧٢) « **والله خير وأبقى** » (سورة طه آية ٧٣) « **قالوا لا ضير انا الى ربنا منقلبون** » (سورة الشعراء آية ٥٠)

٧ ـ قال الله تعالى :

﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ
ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟
ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ
أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾

لم يقص الله علينا ما كان من أمر ذلك الرسول الذى أرسله أصحاب الكهف الى المدينة ليأتيهم بطعام منها ، وتلك عادة القرآن فى طى ما يمكن ادراكه ، أو ما لا يتصل بذكره فائدة من تفاصيل القصص .

وكل ما تفيده الآية فى هذا الشأن أن الدراهم والرسول الذى أرسل بها كانا طرف السلسلة التى أدت الى معرفتهم ، والاطلاع على أمرهم !! وقد جاءت الروايات التى يروونها بما يتفق مع ذلك ، ولكنها فصلت الأمر تفصيلا لسنا فى حاجة الى العناية به ، وقد زوى الله عنا علمه .

ومعنى « **أعثرنا عليهم** » أطلعنا الناس على أحوالهم . قال الامام الرازى : يقال : عثرت على كذا أى علمته . وقالوا : أصل هذا أن من كان غافلا عن شىء فعثر به نظر اليه فعرفه ، فكان العثار سببا لحصول العلم والتبين .

فائدة اسناد الأمر فيما يفعله العباد إلى الله :

وقد أسند الله الاعثار عليهم واطلاع الناس على أمرهم الى نفسه جلا وعلا ، فقال : « **أعثرنا** » ومن قبل فعل مثل ذلك ، حيث قال : « **وكذلك بعثناهم** » وقال : « **ونقلبهم** » وقال : « **وربطنا على قلوبهم** » وقال : « **فضربنا على آذانهم** » وقد فعل أصحاب الكهف مثل ذلك ، حيث أرجعوا الأمر كله لله فى قولهم : « **ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشدا** » وقالوا : « **فأووا الى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيىء لكم من أمركم مرفقا** » الى غير ذلك مما جاء فى ثنايا الكلام منبئا بأن الأمر كله لله ، والتدبير كله لله وسوق الحوادث واجراءها على هذا النحو لله ، وتنفيذ الأمر والوصول به الى نتيجته المقدرة لله . يلفت القرآن الكريم بهذا عقول الناس الى أن الله « عز وجل » هو الفاعل المختار ، المدبر الحكيم ، وأن الخلق وان منحوا أدوات التصرف والاختيار والعمل فالله من فوقهم ، وتدبيره فوق تدبيرهم ، وأمره غالب على أمرهم ، واذا استقر هذا المعنى فى نفوس الناس استراحوا ورضوا بكل ما يلابسهم من ظروف الحياة ، ثقة بأن الأمر فيه وفى غيره الى الله .

هذه فائدة ما يأتى به القرآن الكريم من اسناد الأمور الى الله ، وغرس الايمان بذلك فى قلب من يتلوه ويتدبره ، وقد جاء مثل ذلك أيضا فى قصة يوسف عليه السلام ، حيث قال جل علاه : **« كذلك كدنا ليوسف »** (سورة يوسف آية ٧٦) وقال : **« وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض »** (سورةيوسفآية٢١) وقال : **« كذلك لنصرف عنه السوءوالفحشاء »** (سورة يوسف آية ٢٤) وقال : **« نصيب برحمتنا من نشاءولا نضيع أجر المحسنين** (سورة يوسف آية ٩٠) وقال : **« ولنعلمه من تأويل الأحاديث والله غالب على أمره »** (سورةيوسفآية٢١)
الى غير ذلك مما جاء فى ثنايا القصة مقررا لهذا المعنى ، منبها اليه ، وقد جاء مثل ذلك أيضا فى الحديث عن ابراهيم الخليل عليه وعلى نبينا السلام ، اذ يقول جل جلاله : **« وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين »** (سورة الأنعام آية ٧٥) ويقول : **« وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه ، نرفع درجات من نشاء »** (سورة الأنعام آية ٨٣) ويقول : **« ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده »** (سورة الأنعام آية ٨٨) .

وهكذا يجب أن يستقر فى نفوس المؤمنين أن الله هو الذى يدبر ، وهو الذى يمكن ، وهو الذى يلهم التوفيق ، وهو الذى يرى الآيات فى ملكوت السموات والأرض ، وهو الذى يربط على قلوب المؤمنين ، وهو الذى يهدى من يشاء الى صراط مستقيم ، وهو الذى يصيب برحمته من يشاء ، وهو الذى يسبب جميع الأسباب فى هذه الحياة .

بقى بعد ذلك التعبير بالكاف فى قوله : **« وكذلك أعثرنا »** وقد أخذ من ذلك بعض المفسرين أن المعنى : وكما هديناهم وبعثناهم وزدناهم هدى وربطنا على قلوبهم وقلبناهم .. الخ ، أعثرنا عليهم . أى أن الكاف للتشبيه .

وعندى أن المعنى ليس على التشبيه وان جاء بلفظ التشبيه ، وانما هو كما يقول القائل : هكذا فعلت ، وهو لا يقصد أنه فعل فعلا مثل هذا الفعل ، بل يقصد أنه فعل هذا الفعل نفسه . وهذا هو الذى ينبغى أن يفهم فى هذه الآية ونظائرها ، من مثل قوله تعالى : **« كذلك كدنا ليوسف »**

(سورة يوسف آية ٧٦) **« وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض »**
(سورة يوسف آية ٢١) **« وكذلك نرى ابراهيم »** (سورة الأنعام آية ٧٥) الى غير ذلك مما ذكرناه • فليس المعنى فيه : نحن كدنا ليوسف كيدا مثل ومكنا له تمكينا مثل هذا التمكين•• الخ، وانما المعنى، هذا هو كيدنا ، وهذا هو تمكيننا ، كما يقول القائل : على هذا النحو فعلت ، مع أنه ليس فى الأمر الا فعل واحد لا نحو له ولا مثل •

استطراد لبيان مغزى القصة :

بعد هذا ربط الله — جل وعلا — بين اعثاره عليهم والعلم بأن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها ، فقال : **« وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها »** وقد جاء فى المقدمات التى قدمنا بها من قبل أن لكل قصة من القصص التى ذكرت فى هذه السورة مغزى وعبرة ودلالة يريد الله من عباده أن يلتفتوا اليها ، ومغزى قصة أهل الكهف التى جاءت كلها غرائب وعجائب فيما يعهد المخلوقون ، وان كانت أمورا عادية فى سنة الخالق القادر ، هى لفت الناس الى أمر البعث، وأنه فى سنة الله أمر مقدور ليس فيه عسر ولا استحالة ، فان الذى يقدر على انامة فتية فى كهف هذا الأمد الطويل ، وعلى حفظ أجسامهم وأرواحهم مع عدم توفر وسائل البقاء والحفظ التى اعتادها الناس — ان الذى يقدر على هذا لا شك قادر على بعث الأموات من الأجداث• فالأمران فى قدرة الله سواء ، فهذا اعادة للحياة بمحض القدرة ، وذلك ابقاء لها ومد فيها بمحض القدرة ، ومن آمن بقدرة الله على أحد الأمرين آمن بقدرته على الآخر •

ومن المباحث التى تتصل بالمعنى فى هذه الآية الكلام فيمن يعود عليه الضمائر الأربعة فى قوله تعالى : **« ليعلموا »** وقوله تعالى : **« اذ يتنازعون بينهم أمرهم »** •

تحقيق يتصل بالمعنى والمغزى :

ويرى المفسرون أن الضمير عائد الى أهل المدينة فى ذلك الزمان الذى اكتشف فيه أمر الفتية ، ويعتمدون فى ذلك على رواية جاء فيها : ان أهل المدينة كانوا يومئذ مشغولين بأمر البعث ، مختلفين فى ذلك ، فمنهم من يقول : الجسد والروح يبعثان جميعا ، ومنهم من يقول : الروح تبعث ، وأما الجسد فتأكله الأرض •• فلما حدثت حادثة أهل الكهف ، وأطلع الله القوم على أمرهم ، استدلوا بذلك على صحة البعث

للأجساد ، لأن انتباههم بعد نومهم الطويل شـبيه ببعث من يموت ، وعلى هذا تكون « **اذ** » فى قوله تعالى « **اذ يتنازعون بينهم أمرهم** » متعلقة بقوله : « **أعثرنا** » يعنى أعثرنا عليهم الناس ، وأطلعناهم على أمرهم فى الوقت الذى كانوا يتنازعون فيه بينهم أمرهم : هـل يبعث الناس بعد الموت أو لا يبعثون ؟ ! وقيل : يجوز تعلق الظرف بقوله : « **ليعلموا** » أى ليعلموا ذلك حين التنازع .

رأيى فى ذلك : ولى رأى يخالف رأى المفسرين فى ذلك : وهو أن الكلام مقصود به الناس فى كل عصر بعد اكتشاف أمر الفتية،فالله ــ سبحانه وتعالى ــ جعل تلك الآية وهذه القصة دليلا على قدرته ، وبرهانا يعرف به العقلاء امكان البعث ، وقد جاء الأسلوب القرآنى فى ذكر هذه القصة على سنته المطردة فى الالتفات الى المعانى التى تتضمنها ، والعبر التى تؤخذ منها ، فبعد أن وصل فى القصة الى ما ذكره من بعثهم والاعثار عليهم ، لفت الناس الى أنه أراد بهذا الاعتبار بعد البعث أن يصير شأن هؤلاء الفتية وخبرهم العجيب معروفا فى الناس ، سائر الذكر ، يتحدثون به ، فيرويه سابقهم للاحقهم ، ويأخذه لاحقهم عن سابقهم ، ويعلم به كل من يتأتى منه العلم أن وعد الله حق ، وأن الساعة لا ريب فيها . وعلى هذا فالضمير فى قوله تعالى .« **ليعلموا** » هو للناس جميعا ، وهو بمثابة أن يقول : « **ليعلم أن وعد الله حق** » بالبناء للمفعول ، غير أنه لم يأت كذلك لئلا يفهم منه أن الغرض هو حصول العـلم ولو من البعض . وقولـه : « **اذ يتنازعون بينهم أمرهـم** » معنـاه : حين يتبـادلون بينهم أمرهم وحديثهم ، أى حديث الفتية ، والتنازع من معانيه التبادل والتجاذب، ومنه قوله تعـالى : « **يتنازعون فيها كأسا لا لغو فيها ولا تأثيم** » (سورة الطور آية ٢٣) أى يتعاطون . قال فى لسان العرب : (والمنازعة المجاذبة فى الأعيان والمعانى ، والمنازعة فى الخصومة مجاذبة الحجج فيما يتنازع فيه الخصمان ، وفى الحديث : أنه صلى الله عليه وسلم صلى يوما ، فلما سلم من صلاته قال : ما لى أنازع القرآن ؟ ! أى أجاذب فى قراءته ، وذلك أن بعض المأمومين جهر خلفه ، فنازعه قراءته ، فشغله، فنهاه عن الجهر بالقراءة فى الصلاة خلفه) أهـ كلام صاحب اللسان . ومنه

يتبين أن التنازع قد يقال فى تبادل الأحاديث ، كما يقال : يتجاذبون أطراف الأحاديث ، وانما يقال ذلك فى حديث يحرص القائلون والسامعون على تبادله والاشتراك فيه ، وهذا شأن أصحاب الكهف ، فقد صاروا بالاعثار عليهم ، واطلاع الناس على نبئهم يوم بعثوا من نومهم ، حديثا يروى ويتجاذب ويتنازع •

لذلك أقول : ان « **اذ** » متعلقة بقوله : « **ليعلموا** » والضمير فى « **ليعلموا** » هو للناس جميعا ، وان لم يسبق له مرجع مذكور ، فانه غنى — بوضوح مرجعه — عن التصريح بذلك المرجع ، كما فى قوله : « **حتى توارت بالحجاب** » (سورة ص آية ٣٢) أى الشمس ، وفى قول الشاعر : (هتكنا حجاب الشمس أو أمطرت دما) أى السماء • فهنا أيضا « **ليعلموا** » أى الناس ، والمعنى : أعثرنا عليهم لتكون قصتهم وأمرهم مثلا فى الناس يتحدثون به ، ويتنازعون بينهم أمر أصحابه ، مثل أن يقول قائلهم : انظروا كيف ناموا هذا الأمد الطويل ثم بعثوا ، فالله قادر على أن يبعث الموتى ، أو يقول آخر : انظروا كيف حفظهم الله هذا الدهر ، فلم يطعموا طعاما ، ولم يذوقوا شرابا ، ومع ذلك لم يموتوا !! فهــذا دليل على قدرة الله ••• الى غير ذلك مما تتنــاوله الأحاديث فى مثل هذا الشأن •

وهكذا يتبين أن القرآن الكريم وقف عند هذه النقطة من القصة ، ليلفت الى موضع العبرة فيها ، وليبين لنا فائدة الاعثار عليهم واطلاع الناس على أمرهم ، حتى اذا انتهى من ذلك عاد الى القصة فقــال : « **فقالوا ابنوا عليهم بنيانا** » أى : أعثرنا عليهم فقال العاثرون : ابنوا عليهم بنيانا •• الخ ، فهو استمرار فى القصة ، وقد طوى قبله ما يفهم دون ذكر له ، والمعنى : حصل فى أمر هؤلاء الفتية تشاور بعد العثور عليهم ، فمن القوم من رأى أن يبنى عليهم بنيانا ، ومنهم من رأى غير ذلك ، وكان رأى الذين غلبوا على أمرهم أن يتخذوا عليهم مسجدا• ومعنى « **الذين غلبوا على أمرهم** »: الذين أخذ برأيهم ، وانتهى الأمر الى ترجيح قولهم ، كما يقال : تناقشوا فى كذا ، فقال بعضهم : كيت، وقال بعضهم : كيت ، وكان رأى الذين غلبوا كذا ، أى رأى المنتصرين

فى النقاش • وليس المعنى كما ذهب اليه بعض المفسرين من أن المراد رأى ذوى السلطان فيهم •

ويفهم من هذا النقاش والآراء التى ذكرها الله عن المتناقشين أن الفتية كانوا قد ماتوا بعد الاطلاع على أمرهم ، وقد جاءت بذلك الروايات المأثورة ، ولهذا اختلفوا : فمنهم من ظن أنهم نيام كالمرة الأولى ، ومنهم من قال : بل ماتوا ، فلما تحقق لديهم موتهم اقترحوا ما اقترحوا •

وقوله تعالى : « **ربهم أعلم بهم** » جملة معترضة ذكرت فى سياق ما حكى من آرائهم ، ويصح أن تكون من كلام المتناقشين ، وأن تكون من كلام الله عز وجل ، ردا للخائضين فى حديثهم ، والمتنازعين فى أمرهم •

٨ ـ قال الله تعالى :

سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ
رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا
بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ
بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً
ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ
لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ
وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ۖ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى
لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ
مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ
لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم
مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾

هل فى الآيات دليل على عدة أصحاب الكهف :

بين الله لنا أن أمر أصحاب الكهف كان مثار نزاع وجدال من نواحيه المتعددة ، وكان من بين هذا النزاع والجدال اختلاف الناس فى عـدد أصحاب الكهف ، ما هو على التحديد ؟ والناس دائما مولعون بالوقوف على التفاصيل ومعرفة الدقائق ، ولكن التفاصيل والتتبع لها والشغف بها قد تفضى الى نسيان اللباب ، والغفلة عن الأصل الأهم ، فأراد الله أن يوحى الينا فى ذلك أدبا نأخذ به فى حياتنا ، ونسير عليه فى مناقشاتنا ومجادلاتنا : ذكر الله أقوال المختلفين أو الذين سيختلفون، فمنهم من يقول : هم ثلاثة رابعهم كلبهم ، ومنهم من يقول : خمسـة سادسهم كلبهم ، ومنهم من يقول : سبعة وثامنهم كلبهم ، أقوال تستند الى ظنون، ولا يستطيع الانسان أن يحكم وهو واثق بأن كذا منها هو الصحيح بخصوصه .. وهذا دائما شأن الأمور الغيبية التى لم نشهدها بأنفسنا، ولم يرد لنا نص قاطع من المعصوم فيها ، ولذلك ساق الله هذه الأقوال، وذكر فى أثنائها عبارة تشعرنا بأنها ظنون لا ترقى الى حد الحقيقة ، ولا تصل الى منزلة اليقين ، فقال : ((**رجما بالغيب**)) .

والرجم بالغيب معناه : القول بالظن دون تحقيق ، وهى عبـارة مستعارة لهذا المعنى ، وفيها تصوير بديع للذى يهجم على ما لا يعلم بصورة الذى يرجم : أى يرمى حجارة أو نحوها على الغيب ، وليس أمامه شىء محدود يهدف اليه .

يرى كثير من المفسرين أن الله ــ تعالى ــ لـمـا ذكرَ القولين الأولين، وأتبعهما بقوله : « رجما بالغيب » علمنا أن هذين القولين باطلان مبنيان على ظن ليست له حقيقة ، ولا مستند من اليقين ، فلما حكى القول الثالث ــ وهو كونهم سبعة وثامنهم كلبهم ــ دون أن يتبعه بمثل هذا التعقيب ، علمنا أن هذا القول هو الصحيح .

وقد ذكروا فى تأييد هذا القول الثالث أيضا معانى أخرى منها : أن الله ــ تعالى ــ غير سبكه عما قبله ، فبينما جـاء القولان الأولان خاليين من الواو فى التعاطف اذ قال : **ثلاثة رابعهم كلبهم**)) ((**خمسة سادسهم كلبهم**)) ولم يقل : ثلاثة ورابعهم كلبهم ، وخمسة وسادسهم

كلبهم ، اذا به يقول فى الثالث : « ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم » فتغيير النظم بزيادة الواو المفيدة لزيادة تأكد النسبة فيما بين طرفيها دليل فى نظرهم على أن القول الأخير هو الصحيح ، والا لكانت الواو قد زيدت بدون فائدة ، ولا بد من صون اللفظ الكريم عن ذلك .

ومما ذكروه فى تأييد ذلك أيضا أن الله تعالى قال بعد حكاية القول الثالث : « قل ربى أعلم بعدتهم » وفى ذلك دليل على أن هذا القـول صحيح ، ومعنى هذه العبارة : الله أعلم بعددهم الحقيقى ، فهو يرشدك اليـه ، وينبئك به ، ولا يكلك الى غيره من هؤلاء الراجمين بالغيب ، القائلين بالظن .

وهكذا نجد المفسرين يميلون الى كون الفتية سبعة وثامنهم كلبهم، ويؤيدون ذلك بأمثال هذه التأييدات ، مع أنها جميعا احتمالية ، وليس لها نهوض على افادتنا فى مثل هذا الأمر يقينا ، فلو كان الله — سبحانه وتعالى — يريد أن يعلم نبيه ذلك لقال فى صراحة : انهم كذا ، ولكنه يريد أن يعلم النبى والمؤمنين أدبا فى مثل ذلك ،يأخذهم به ، ويربيهم عليه .. ذلك هو ألا يشغلوا أنفسهم بما لا فائدة فيه ولا طائل تحته من البحوث ، وهو لذلك يتبع القولين الأولين بقوله :« **رجما بالغيب** » ويتبع القول الأخير بقوله : « قل ربى أعلم بعدتهم ما يعلمهم الا قليل » وهو لا يقل عن الأول تنبيها على أن الأمر لا يعدو الظن ، ولا يصل الى مرتبة اليقين ، وأن الذين علموهم قليل ، ولعله يريد بهم الذين اطلعوا عليهم حين أعثر الله أهل المدينة على أمرهم ، فهم الذين علموا بعدتهم يقينا عن مشاهدة .

ويقول بعض المفسرين : ان القـول الأول وهو كونهم « ثلاثة رابعهم كلبهم » هو قول اليهود ، أو قول يعقوبى من نصارى نجران ، وان القول الثانى وهو كونهم « **خمسة سـادسهم كلبهم** » هو قـول النصارى أو قول نسطورى منهم ، وان القول الثالث هو قول المسلمين.

وكل هذا ليس فى الآية دليل عليه ، وانما يسند الله الأقوال الى الخائضين فى شأن فتية الكهف ، دون أن يعين من قائل هذا أو ذاك ، وما القول الصحيح ان كان فيها قول صحيح ، وليس لما يذكر من الروايات فى هذا الشأن نهوض .

جملة من الآداب يهدى اليها القرآن :

اشتملت هذه الآيات الكريمة بعد أن وصفت خوض الخائضين ، وحدس الراجمين بالغيب ، وبينت أن العلم الصحيح انما هو الصادر عن الله — اشتملت بعد ذلك على جملة من الآداب يأخذ الله بها نبيه والمؤمنين ، وقد فرعت هذه الآداب بالفاء على ما ذكر ، مما يدل على أن الأمر لله ، والعلم علم الله ، فقال تعالى : ((**فلا تمار فيهم الا مراء ظاهرا**)) الخ : أى واذ قد عرفت جهل الجاهلين وتخبط المتخبطين فلا تجادلهم .

النهى عن المراء :

فأول هذه الآداب : النهى عن المراء فيهم الا مراء ظاهرا ، والمراء والمماراة المحاجة فيما فيه مرية : أى شك وتردد ، وقالوا : ان أصله من مريت الناقة اذا مسحت ضرعها للحلب ، والمعنى : لا يكن بينك وبين الخائضين فى شأن أهل الكهف مراء ولا مجادلة ، ولما كان النهى عن المراء عامة قد يترتب عليه أن من يخوض فى شأنهم يحسب أن سكوت النبى والمؤمنين على ما يقول اقرار منهم لصحته ، استثنى من هذا العموم المراء الظاهر فقال : ((**الا مراء ظاهرا**)) وأحسن ما قيل فيه : أنه المراء الهين اليسير الذى لا يوغر صدرا ، ولا يترتب عليه عداوة ، ولا يضيع وقتا ، كأن يقول لهم : من الجائز أن يكونوا ثلاثة ، ومن الجائز أن يكونوا أكثر من ذلك ، ولكن لا دليل على تعيين ما تذكرون من العدد ، فوجب التوقف وترك القطع .

بمثل هذا يوضع للجدال حد ، ويحتفظ بالأوقات والجهود لتبذل فيما فيه فائدة ، وينبغى أن يكون هذا أدبا عاما للمؤمنين فى كل ما يرد اليهم من الأخبار التى ليس عندهم فيها علم ، وقد جاء فى الكتاب الكريم مثل ذلك فى قوله : ((**ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن**)) والتى هى أحسن تشمل عدم المماراة الا بالقدر الذى يفهمون

منه أننا غير مؤمنين بما يذكرون وغير منكرين له ، وانما نحن مجوزون متوقفون ، حتى يصل الينا دليل نعتمد عليه ونطمئن اليه ، وتلك خطة انصاف للحق وأدب مع الخصوم •

ولعل هذا أحد الأصول التى أثبتت عليها قاعدة السماع من غير أهل ديننا : (لا نصدقهم ولا نكذبهم) فذلك هو الأدب الذى يفهم من قوله تعالى « فلا تمار فيهم الا مراء ظاهرا » •

النهى عن التماس العلم فى الشئون الغيبية من غير المسلمين

الأدب الثانى : النهى عن استفتاء غير المسلمين فى مثل هذه الشئون، فقد نهى الله نبيه — والخطاب له لفظا ، ولجميع المؤمنين معنى — عن أن يستفتى فى شأن أصحاب الكهف وما هو فى معناه أحدا ممن يدعون العلم، ليكون أمره كله الى ربه ، فما شاء أعلمه ، وما شاء زوى عنه ، وذلك أن المعارف التى يصلح عليها حال النبى صلى الله عليه وسلم وحال المؤمنين مكفولة بكتاب الله عز وجل ، ففيه ما يغنيهم عمن ســواهم ، والمعارف التى أعرض عنها ولم يذكرها لا فائدة فيهــا ، ولذلك كان الرسول صلى الله عليه وسلم وكان الصحابة وأجلاء التابعين من بعده ينهون عن الخوض فى المسائل النظرية التى لا طائل تحتها ، والتى يسلم الخوض فيها الى الزلل أو الفتنة • وقد ورد أن بعض الناس جاء الى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بصحيفة فيها كلام مكتوب فقال له : ما هذه ؟ قال : هى صحيفة من التوراة ، فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى احمرت وجنتاه ، ثم قال : **« ألم آتكم بها بيضاء نقية ؟ ! »** والحكمة فى ذلك أن المسلمين اذا امتدت أيديهم لأمثال ذلك — وفيهم الضعفاء وأهل الغفلة — انفتحت أمامهم أبواب من الفتن والريب هم فى غنى عنها ، وشأن الأمم اذا كانت فى مبدأ تكوينها ، أو شعرت بتربص الأعداء لها ، أن تحتفظ بما عندها وتعتز بتفكيرها الخاص ، بل تتعصب له ، حتى تقوى فى نفوس أبنائها نزعة الاستقلال وقــوة الاحساس بالشخصية ، لأنها اذا فرطت فى هذه الناحية مكنت أعداءها منها ، وهيأت لهم سبيلا لفتنتها ولفتها عن طريقها ، وتوهين أســاسها الذى يهمها توطيده والبناء عليه •

هذا ما كان يرمى اليه الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وهذا ما أشار اليه القرآن فى قوله تعالى : **« ولا تستفت فيهم منهم أحدا »** •

رعاية واجب الأدب مع الله :

الأدب الثالث من الآداب التى اشتملت عليها هذه الآيات : ما جاء فى قوله تعالى : **« ولا تقولن لشىء انى فاعل ذلك غدا الا أن يشاء الله واذكر ربك اذا نسيت وقل عسى أن يهدين ربى لأقرب من هذا رشدا »** .

وقد قدمنا من قبل ما يروى فى سبب نزول سورة الكهف خاصا بهذا الموضع ، فقد قالوا : ان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — حين سئل عن المسائل الثلاث قال : أجيبكم عنهن غدا ولم يستثن ، فاحتبس الوحى عنه مدة قيل : خمسة عشر يوما ، وقيل : أكثر ، والمفسرون جميعا يذكرون ذلك فى تفسير هذه الآية ، ولا تكاد تجد أحدا منهم يعلق عليه بشىء ، اللهم الا ما قدمناه عن الطبرى من أن عبارته تشير الى ضعف هذه الرواية ، وما رأيناه فى تفسير الامام الرازى من حكايته اعتراضا لبعضهم ، محصله : أن من البعيد ألا يحترز الرســول صلى الله عليه وسلم فيستثنى بالمشيئة ، لأنه سيد من يعلم أن الأمور بيد الله ، وأنه ربما عاقه عائق عن التنفيذ فى الغد ، فيكون ذلك سببا يوجب التنفير منه ، وهذا الاعتراض وجيه وان حاول الرازى أن يجيب عنه ، فـان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظر الوحى ، ولا يستدعيه ، ولا يحدد له زمانا . فاذا كان عنده علم أنبأ به ، والا أخبر بأنه لا علم عنده ، ولو شاء الله لعلمه ، أما أن يقطع بأنه سيأتيه من الله فى ذلك علم ، وأن هذا سيكون غدا ، دون أن يكل الأمر الى الله ، فذلك ما يبعد حصوله من رسول كريم يعلم حدوده مع ربه ، ويعلم وظيفته من تبليغ ما يؤمر به والسكوت عما وراءه . وقد بينا من قبل أمارة ضعف هذه الرواية .

أما معنى الآية نفسها : فان الله يؤدب رسوله — صلى الله عليه وسلم — والمؤمنين ، ويعلمهم تفويض الأمور اليه ، وعدم القطع بشىء مما كان أو مما سيكون .

بيان ذلك : أن الانسان عاجز أمام الماضى والمستقبل ، فلا سبيل له فى مثل هذه الشئون الى علم ما مضى من روايات مضطربة لا سند لها ، أو من استفتاءات يرجع فيها الى عاجزين مثله ، ولا سبيل له الى الجزم بأنه سيفعل شيئا فى المستقبل ، لأن المستقبل غيب ، وقد تتعطل فيـــه قدرته ، أو تحول بينه وبين الفعل أسباب لا قبل له بها ، وقد نهى الله

المؤمنين عن الاعتماد فى الغيب على الروايات التى يرويها أهل الحدس والرجم بالغيب ، وعلمهم أن يعتمدوا عليه هو فقط ، وأن لا يستفتوا فى ذلك أحدا ، ثم علمهم أن تكون هذه هى سنتهم فى المستقبل ، فلا يهجمون على غيب ، ولا يظنون أنهم قادرون على احداث شىء ، الا أن يشاء الله ، وبذلك تمت جهات الأمر من ناحية الزمن ، حيث علمهم أن يسلموا الله فى الماضى والمستقبل ، ومن ناحية القوة ، حيث علمهم ألا يعتمدوا على أنفسهم ولا على أمثالهم ، وانما يعتمدون على الله فحسب .

فمعنى قوله : **« ولا تقولن لشىء انى فاعل ذلك غدا الا أن يشاء الله »** : ولا تقولن فى شىء ، وليس المراد مجرد النهى عن قول ذلك والتعليم بأن ننطق بالمشيئة بألسنتنا ، وانما المراد النهى عن اعتداد الانسان بقوته ، ونسيان قوة الله وقدرته وحاجة العبد الى توفيقه وتيسيره ، وفى هذا تربية لروح الايمان بالله ، واقرار لعظمته فى نفس العبد ، حتى يظل مستحضرا هيبته وجلاله ، فينهاه ذلك عن ارتكاب ما لا يليق ، والاقدام على ما يغضب الله .. فلا شك أن الانسان اذا تعود اللجوء الى الله ، والاعتماد عليه ، والتأدب معه ، وعدم القطع بقدرته على فعل شىء الا بتوفيق من الله وتيسير ، فانه يكف عن العزم على كثير من المفاسد والمعاصى ، استحياء من الله أن يلجأ اليه فى الشر والفساد .

ويقول الله تعالى بعد ذلك : **« واذكر ربك اذا نسيت »** وهذا دليل على أن المراد تربية الشعور بالله فى نفس المؤمن ، حتى اذا نسى فى شأن من الشئون أن يعتمد على ربه عاد فتذكر ، فانه لا يستحيل على المؤمن أن ينسى أو يخطىء ، ولكن من صفات المؤمنين أن الناسى منهم ينسى الى حين ، وأن المخطىء يذكر خطأه ويعود الى ربه ، فمعنى قوله تعالى: « واذكر ربك اذا نسيت » : تذكر وارجع اليه ، ولا يقس قلبك فتتمادى أو تيأس ، وهذا كما جاء فى قوله تعالى : **« والذين اذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب الا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون »** .

ويقول الله تعالى بعد ذلك : « **وقل عسى أن يهدين ربى لأقرب من هذا رشدا** » أى لا يكن قطعك بفعل أمر من الأمور بمانع لك من اللجوء الى الله ، والرجاء فى أن يسدد خطاك فيما أقدمت عليه ، أو يهديك الى ما هو أقرب منه رشدا .

والخلاصة : أن المؤمن يجب أن يأخذ نفسه بالآداب التى ذكرها الله فى هذه الآيات وهى :

١ — أن يحذر الاعتماد على الظنون والرجم بالغيب ، ولا يركن الا الى علم صحيح يأتيه من طريق صحيح .

٢ — أن يعرض عن المماراة والمجادلة فيما لا ينفع ، الا بقدر ما يرد به على زعم لا يرتضيه ، ورأى لا يؤمن به .

٣ — ألا يلجأ فى معرفة الحقائق والمعارف الى مصدر غير موثوق به .

٤ — أن يعتقد أن قدرته محدودة ، وقوته محدودة ، وأن أى انسان لا يستطيع أن يفعل شيئا الا بتوفيق من الله وتيسير ، فاذا غفل عن ذلك فى أى شىء عاد فتذكر ربه ، وطلب منه هدايته وتوفيقه. هذه هى الآداب التى تضمنتها تلك الآيات ، وهى آداب مرتبط بعضها ببعض ، ليس للتنبيه على بعضها سبب خاص فيما نعلم.

هل فى الكلام دليل على مدة لبثهم :

بعد هذا عاد الكلام الى قصة أصحاب الكهف فقال تعالى : « ولبثوا فى كهفهم ثلثمائة سنين وازدادوا تسعا قل الله أعلم بما لبثوا له غيب السموات والأرض أبصر به وأسمع ما لهم من دونه من ولى ولا يشرك فى حكمه أحدا » .

وبعض المفسرين يرى أن هذه المدة من تحديدهم ، وليس ذلك من كلام الله ، وانما هو حكاية عنهم كما سبق فى قوله : « **سيقولون ثلاثة** » الخ ، وذلك بدليل قوله تعالى : « **قل الله أعلم بما لبثوا** » الخ وهذا رأى جيد ، فان الكلام كله موجه الى غرض تعليم الرسول والمؤمنين ألا يقطعوا فى هذا الشأن بشىء ، وألا يشغلوا أنفسهم بالجدال عليه والدفاع عنه . ولا شك أن هذا أحزم وأحكم ، لأنه مهما ذكر لهم من عدد أو مدة فانهم سيكذبون أو يحاولون ، ولو شاء الله أن يذكر لهم فى ذلك علما لقال قولا صريحا .

وقوله تعالى : « له غيب السموات والأرض أبصر به وأسمع » بمثابة الدليل على علمه ، أى أنه أعلم بما لبثوا ، لأن غيب السموات والأرض له لا لسواه ، ما أبصره به وما أسمعه له !! •

وقوله : « **ما لهم من دونه من ولى ولا يشرك فى حكمه أحدا** » يعود الضمير فى قوله : « **ما لهم** » الى الخلق جميعا ، لا الى أهل الكهف خاصة كما يقولون • وقد رشح عود الضمير الى الخلق ذكر السموات والأرض المستتبع خطورهم بالبال ، والغرض هو تأكيد رجوع كل أمر الى الله ، وأنه هو الولى والحاكم ، لا ولاية لأحد معه ، ولا شركة لأحد فى حكمه •

٩ - قال الله تعالى :

وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ
وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ
يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ
عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ
أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾

واتل ما أوحى اليك :

« تلا » يستعمل تارة بمعنى « قرأ » كما فى قوله تعـالى : « قل لو شاء الله ما تلوته عليكم » وتارة بمعنى تبع ، كما فى قوله تعالى: « والقمر اذا تلاها » وقد أمر الله رسوله فى هذه الآية بأن يتلو ما أوحى اليه من كتاب ربه ، وهو أمر يتناول المعنيين جميعا ، فيكون المعنى : الزم قراءة الكتاب الذى أوحى اليك ، لتفيد منه العلم الصحيح ، والمعرفة النافعة ، والزم اتباعه والعمل به •

ولن تجد من دونه ملتحدا :

يقال : ألحد الى كذا ، والتحد اليه : أى مال اليه • والملتحد : الملتجأ • والمعنى : ولن تجد من دونه ملجأ فى البيان والارشاد •

واصبر نفسك :

أصل الصبر : الحبس • ومنه قولك : صبرت الدابة : أى حبستها بلا علف ، يأمره بأن يجالسهم ويصابر معهم •

ولا تعد عيناك عنهم :

يقال : عدوت الشىء : أى جاوزته ، فاذا قلت : عدوت عنه ، فهو بمعنى نبوت عنه ، يقول الله عز وجـل لنبيه : لا يجـاوزهم نظـرك ولا يتعداهم الى غيرهم ولا ينب عنهم •

فرطا :

اذا تقدم الفرس عن غيره قيل : هذا فرس فرط ــ بضم الفـاء والراء ــ والمراد به هنا : مجاوزة الحـد والاسراف الذى يؤدى الى الضياع والهلاك •

وقال بعضهم : الفرط هو الأمر الذى يفرط فيـه حتى يضيع • يقال : كل أمر فلان فرط أى ضياع ، وعلى هذا فقوله تعالى : **« وكان أمره فرطا »** معناه : قد تعود التفريط والتضييع لمـا يلزمه صـونه والاحتفاظ به ، فعرض نفسه بذلك الى الهلاك والضياع •

بعد أن نهى الله رسوله عن المراء والجدال فيما لا طائل تحته ، ونهاه عن استفتاء مخالفيه فى الدين ، أو الاعتداد بما عندهم ، أو تلقى العلم فى مثل هذه الشئون الغيبية عنهم ، أمره بأن يتلو ما أوحى اليه من كتاب ربه : أى يقرأه قراءة فهم وتدبر ، ويستخلص منه كل ما ينفعه فى شئون دينه ودنياه ، ويسير وراءه فى كل ما يأمر به أو ينهى عنه ، فان هذا الكتاب الكريم هو الكفيل بهدايته الى الصراط المستقيم .

وقوله تعالى : « **لا مبدل لكلماته** » يجوز أن يكون المعنى فيه : لا يتطرق الى الكتاب الكريم تبديل أو تغيير ، بل هو محفوظ ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فتكون الجملة وصفا للقرآن وكلمات القرآن . وكذلك قوله : « **ولن تجد من دونه ملتحدا** » أى من دون القرآن ملتجأ تلتجىء اليه ، ليرشدك ويهديك وينقذك .

وهذا المعنى بشقيه فى وصف القرآن معهود فى القرآن ، فالله تعالى يقول : « **انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون** » « **وانه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد** » ويقول: « **ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم** » « **كذلك لنثبت به فؤادك** » .

ويحتمل أن يكون الكلام فى الجملتين عن الله جل جلاله : « **لا مبدل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحدا** » والكلمات هنا بمعنى آثار الله فى الخلق والايجاد والتصريف ، على نحو ما جاء فى قوله تعالى : « **ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ان الله عزيز حكيم** »(سورة لقمان آية ٢٧) وانما سميت آثار قدرة الله وتصرفاته فى الكون كلمات لأنها فى الوجود والحصول مرهونة بمجرد أمره وارادته ، راجعة الى كلمة واحدة يقولها جل علاه : وهى كن : « **انما قولنا لشىء اذا أردناه أن نقول له كن فيكون** » . وعلى هذا يكون معنى الآية : لن يقع تبديل فى خلق الله ، وليس فى الوجود قوة تستطيع أن تعطل ارادته وأمره ، وتحول دون نفوذ تصرفه « **لا تبديل لخلق الله** » ولن تجد من دونه ملتجأ تلتجىء اليه ، فينصرك ويهديك ويرشدك ويعلمك ما لم تكن تعلم ، والجملة الأخيرة معهودة بمعناها أيضا فى القرآن الكريم، فالله يقول : « **وما لهم من دونه من وال** » « **ما لهم من دونه من ولى** »

« ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا » كلا المعنيين تحتمله الآية ، وكلا المعنيين يرشد المؤمنين الى عقيدة يجب أن تمتلىء بها نفوسهم ، وتسرى فى دمائهم وعروقهم ، فالقرآن الكريم هو العصمة ، وهو النجاة ، وهو الملجأ والحصن الذى يجب أن يلتجىء اليه المؤمن ، من تمسك به نجا ، ومن تكبر عليه من جبار قصمه الله ، القرآن الكريم منبع العلم لمن أراد علما ، ومنبع الخلق لمن أراد خلقا ومنبع الفقه والحكم والتشريع لمن أراد فقها وحكما ، لا يستطيع أحد أن يبدل كلماته ، فهى محفوظة بحفظ الله ، ولا يستطيع أحد أن يلتوى بها عن معانيها ، فيبدل فى هذه المعانى حتى يخرج بها عن روح الهداية والارشاد ، لأن القرآن يفسر بعضه بعضا ، فاذا التوى انسان بمعنى من معانيه عن الجادة ، وحاول تحريفه، وجد من معانى القرآن فى الآيات الأخرى ما يرده ويدفعه — فالقرآن بعضه كفيل على بعض ، وبعضه حارس على بعض ، وروحه سارية فى جميع آياته وأغراضه ، يعرف بها المعروف ، وينكر بها المنكر — وهكذا حفظ الله القرآن ألفاظا بالتواتر والنقل الثابت المحرر ، وحفظه معانى وأغراضا بما أودعه اياه من تناسق وتآلف « **ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا** » (سورة النساء آية ٨٢) « **أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها** » (سورة محمد آية ٢٤) .

القرآن الكريم محفوظ معنى كما هو محفوظ لفظا :

وكتاب هذا شأنه من الحفظ والرعاية ، وهذا حظه من الارشاد والهداية هو جدير بأن يتلى ويتبع ويستضاء بهديه ، ويلتجأ اليه ، ويعتصم بحبله ، لا أن يكون كما هو بيننا الآن كتابا مهجورا نمد أيدينا الى سواه ، ونجعله من وراء ظهورنا . أين نحن من تشريع القرآن ! وأين نحن من أخلاق القرآن ! وأين نحن من تدبر معانى القرآن والانتفاع بها فى كل ناحية من نواحى الحياة ؟ ! أما والله لن نجد من دون القرآن ملتحدا ، ولن نزداد باهماله وهجره الا بعدا عن الخير ، وامعانا فى الشر ، وترديا فى أودية الضلال ومهاوى الهلاك .

واذا أردنا أن نفهم الآية على أن الكلام فى الجملتين عن الله جل جلاله فالمعنى مستقيم كذلك ، فالله — عز وجل — هو الخالق المالك المتصرف ، لا يقع فى ملكه الا ما يريد ، وليس لأحد سلطان مع سلطانه، ولا حكم مع حكمه ، فكلماته واقعة ثابتة لا تبديل فيها ، وتصرفاته نافذة

ماضية لا يستطيع أحد أن يعترضها ، له الحكم ، وله الأمر ، وله الملك. وهو القاهر فوق عباده ، وهو اللطيف الخبير ، فأى هداية بعد هدايته اذن ؟ ! وأى ارشاد بعد ارشاده ؟ ! وأى ملتجأ يمكن الالتجاء اليـه من دونه ؟ ! .

ولكننا الآن مع ادراكنا لهذه الحقائق وجريانها على ألسنتنا وأقلامنا نفعل من الأفعال ما ينافيها وينافى الايمان بها . فكم رأينا من خطيب تهتز من تحته أعواد المنابر ، ومن كاتب ينضب على سنان قلمه مداد المحابر، وكلهم يذكرون الايمان بالله ، ويحضون على الثقة بما عند الله ، وينهون عن اتخاذ الشركاء ، والخضوع لذوى السلطان فيما يغضب مانح الملك والسلطان ، ولكنها أقوال تلوكها الألسنة ، وتخطها الأقلام ، والأفعال منكرة ، والأهواء متبعة ، والمال معبود ، والجاه هو الذى يخشى ويرجى.

وقد جرى كثير من المفسرين على أن قوله تعالى : « **واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم** » .. الآية ، قد نزل فى قصة جماعة من أشراف قريش ، رواها ابن أبى شيبة وابن ماجه وابن جرير وغيرهم من طرق مختلفة ، وفيها أنهم راودوا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — على أن يطرد ضعفاء المؤمنين من مجلسه ، لأنهم يستحيون من وفود العرب التى تفد الى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تراهم مع الأعبد من أمثال صهيب وبلال وعمار وخباب ، فهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك .. الى آخر ما جاء فى تلك الرواية ، فنزل قوله تعالى من سـورة الأنعام : « **ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغـداة والعشى يريدون وجهه** » الآية . ثم نزل من سورة الكهف قوله تعالى : « **واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم** » **الآية** .

ما ذكر فى سبب نزول هذه الآية :

وقد نقد هذه الرواية فى بعض طرقها الحافظ ابن كثير ، وقال فيها: (وهذا حديث غريب ، فان هذه الآية مكية ، والأقرع بن حابس وعيينة — وهما المذكوران فى القصة — انما أسلما بعد الهجرة بدهر) كما نقدها الامام الرازى فى تفسيره لسورة الأنعام بأن هذه السورة كلها مكية ، فكيف يقال ان آية كذا منها نزلت لخصوص هذا السـبب ؟ ! وكذلك نقدها الشيخ رشيد فى تفسير المنار حيث علق على نقد ابن كثير بقوله :

(أقول : ان هذه الرواية باطلة من وجوه : منها ما ذكره الحافظ ابن كثير من تأخر اسلام الأقرع وعيينة ، وظاهر ما فى الاصابة أن الأقرع بن حابس أسلم قبيل فتح مكة، وصرح الحافظ الذهبى بأنه أسلم بعدالفتح، ويؤيده ما فى السير ، وأما عيينة فقد أسلم سنة خمس ، ولم يعرف الرجلان النبى صلى الله عليه وسلم قبل اسلامهما ، ولم يكونا من أشراف مكة ، بل كانا من جفاة الأعراب ، ولما أسلما كانا من صنف المؤلفة قلوبهم • ومنها أنهما ذكرا قدوم الوفود على النبى صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن ذلك بمكة ، بل كان الناس فيها يصدون عنه صدودا ، وانما كان فى أواخر عمره صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة ، ومنها ما ذكرناه آنفا من أنه ليس الغرض من قوله : « **فتطردهم فتكون من الظالمين** » (سورة الأنعام آية ٥٢) التشديد فى تنفير النبى صلى الله عليه وسلم عن طرد المؤمنين،لأنه كان رضى بذلك كما زعم بعض المفسرين، وحاشاه صلى الله عليه وسلم أن يرضى بذلك، أو يميل اليه، بعد أن عاتبه ربه على الاعراض والتلهى عن الأعمى (عبدالله ابن أم مكتوم) لما جاءه يطلب العلم والهدى منه ، وهو صلى الله عليه وسلم متصد لدعوة بعض كبراء قريش ، طامع فى هدايتهم ، وخاف أن يفوته ذلك ، باقباله على ذلك الأعمى الفقير •• كما هو مبين فى أول سورة عبس وتولى• والمروى أنها نزلت قبل سورة الأنعام) • أ•ه كلام الشيخ رشيد •

هذا •• وقد اغتر بهذه الرواية أيضا وبأمثالها أعضاء اللجنة التى أشرفت على طبع المصحف الفؤادى ، فاستثنوا من سورة الكهف المكية بعض آيات منها هذه الآية ، لأنهم رأوا الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن قد أسلما بعد الهجرة ، ولروايات أخرى من هذا القبيل •

والواقع أن هذه الرواية مضطربة ، فمنها ما يذكر الأقرع وعيينة، ومنها ما يذكر أمية بن خلف الجمحى ، ومنها ما يذكر « الملأ من قريش »،

ومنها ما يذكر أن عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والحارث بن عامر بن نوفل وغيرهم ذهبوا الى أبى طالب فقالوا له : لو أن ابن أخيك طرد عنا هؤلاءالأعبد .. الخ . فذكر ذلك أبو طالب للنبى صلى الله عليه وسلم، فقــال عمر : لو فعلت يارســول الله حتى ننظر ما يريدون بقولهم ، وما يصيرون اليه من أمرهم . فأنزل الله : « **وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا الى ربهم** » (سورة الأنعام آية ٥١) إلى قوله : « **أليس الله بأعلم بالشاكرين** » (سورة الأنعام آية ٥٣) .

معنى قول العلماء : « نزلت فى كذا » :

والحقيقة أن ما يرد من الروايات بأن آية كذا قد نزلت فى كذا لا يراد منه ــ كما بين بعض العلماء ــ أن الآية نزلت فى خصوصه وبعد حادثته بعينها ، وانما يراد أن معنى الآية يشمله . ويظهر أن هذا التعبير قد أوقع كثيرا من اللبس حتى عند الرواة أنفسهم ، فلم يلتفت بعضهم الى ذلك ، فروى روايته بالمعنى فحصل الاضطراب ، أو جاء فى تعبيره لفظ لا يريد ظاهره ، فاغتر به من بعده .

لا يصح التقييد فى التفسير بأمثال هذه الروايات

ولا ينبغى للناظر فى كتاب الله أن يتقيد بتلك الروايات التى فيهــا مثل هذا المقال من حيث السند والمعنى ، فان كتاب الله ــ الذى وصل الينا بطريق قاطع مفيد لليقين ــ لا يصح أن يكون خاضعا فى معنــاه لمثل هذه الروايات الظنية فى بعض الأحيان ، والوهميــة فى كثير من الأحيان . نعم ان أسباب النزول تعين المفسر على معرفة المراد ، كما تفيد فى استنباط الحكم الشرعى أحيانا .. ولكن ينبغى أن يكون هذا محل درس ونظر عميق وثقة قبل تحكيمه والحكم بمقتضاه .

ولا ينبغى أيضا أن ظن أن نقد رواية من الروايات أو الاعراض عن الأخذ بها ، يتضمن أن الناقد لها والمعرض عنها ينفى معناها من أصله ، ولا يرى له أى أساس من الصحة ، فانها قد تنقد فى ذاتهــا ، ويصح شىء مما تضمنته كلا أو بعضا ، فنحن لا ننفى أن البيئة فى مكة

كانت بيئة موزعة بين سادة أقوياء مستكبرين ومسودين مستضعفين ، ولا ننفى أن مجالسهم أو أحاديثهم كانت تتناول هذه المعانى ، ولعلهم كانوا يفضون بها الى بعض من لهم بالرسول صلات خاصة . فهذا شأن يكون ، وتعرفه البيئات ابان الدعوات ، ولذلك لا نمنع ، بل نوجب رعاية ذلك وعدم اغفاله حين النظر فى القرآن ، ولكن من حيث هو روح عام للبيئة ، لا من حيث هو قول قائل فى رواية خاصة قد تصح أو لا تصح ، وقد يرد فيها معنى منكر أو مستبعد أو لا يرد ، فان مدار القبول أو الرفض فى ذلك هو نقد الرواية سندا ومتنا .

ونحن اذا نظرنا فى سورة الكهف مجردين أنفسنا من هذه الروايات، مكتفين باستصحاب الروح السائد فى البيئة المكية ، فاننا نجد الآية منسجمة مع ما قبلها من الآيات ، اذ كلها فى سياق تعليم النبى صلى الله عليه وسلم ، وتوصيته بأن يكون مع ربه فحسب ، فيرجع اليه فى معرفة الغيب ما مضى منه وما هو آت ، ويذكره فى كل أحواله ، ويتلو كتابه منتفعا بما فيه ، عاملا به ، ولم يخرج قوله تعالى : ((**واصبر نفسك**)) عن هذا السياق ، فهو تأديب له من ربه الذى أحسن تأديبه ، يعلمه به أن يحسن معاشرة المؤمنين احسانا نابعا من قلبه ، لأنهم اخوانه وأعوانه وأنصاره ولو كانوا ضعفاء أو فقراء ، فان هذه سنة الله فى أتباع الأنبياء ، كما أن سنته فى الكبار والسادة أن يكونوا أعداء للرسل ، مستكبرين عن الانقياد اليهم مع العامة !! فعليه أن يحب أصحابه ، ويأنس اليهم ، ويطمئن نفسه الى معاشرتهم ومصاحبتهم ، وأن يكثر من الجلوس اليهم والاختلاط بهم ، وألا يستمع الى أحد من المستكبرين الذين يؤثرون الحياة الدنيا وزينتها وأبهتها وما فيها من جاه زائل .

وفى الروايات التى رووها ما يدل على أن المراد من صبر النبى نفسه معهم حبسها عليهم حبسا ماديا بالجلوس معهم حتى يقوموا ،

وأن النبى فهم ذلك ، اذ يقول سلمان فى بعض ما روى عنه : « .. ففينا نزلت هذه الآية ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقعد معنا ، وندنو منه حتى تمس ركبتنا ركبته ، وكان يقوم عنا اذا أراد القيام ، فنزل قوله تعالى : « **واصبر نفسك** » الآية ، فترك القيام عنا الى أن نقوم عنه ، وقال: « **الحمد لله الذى لم يمتنى حتى أمرنى أن أصبر نفسى** مع قوم من أمتى ، معكم المحيا ومعكم الممات » .

ولست أدرى — هل يمكن أن يفهم رسول الله أن حقيقة اللفظ مرادة فى هذه الآية ، فيفهم صبر نفسه ، بمعنى حبسها حبسا ماديا يجعله فى قيد حتى يقوم عنه أصحابه ؟

وانما الكلام على التمثيل ، والمراد حبس النفس معنى ، وجعل ميلها وعطفها اليهم ، وأنسها وحبها لهم ، كما لو كانت محبوسة عليهم ، ليس لأحد غيرهم حظ فيها ، بدليل قوله فيما بعد : « **ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا** » فان معناه — كما بينا فى المفردات — : لا يجاوزهم نظرك ، ولا ينب عنهم : أى ليكونوا منك فى موضع الرعاية كأنهم تحت نظرك دائما ، وليس المراد شخوص البصر اليهم على الدوام شخوصا حقيقيا محسوسا .

وهكذا — يقرر الله بهذا التأديب لرسوله حق المؤمنين ولو كانوا ضعفاء أو فقراء فى أن يصفى صاحب الشأن لهم الود ، ويخلص لهم الحب ، ولا ينصرف عنهم الى أهل المظاهر والزينة الفانية ، ولا يطيع فيهم أهل الغفلة عن أمر الله وذكر الله ، من الذين جعل الله أمرهم فرطا وضياعا ، وقضى عليهم بما آثروه لأنفسهم من الخسار والهلاك.

١٠ - قال الله تعالى :

وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ
فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ
وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ
بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾
أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ
فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن
سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ
ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ *

أعتــدنا :

مثل أعددنا فى أصل معناه ، كلاهما بمعنى هيأنا ، ولعل فى لفظ « أعتدنا » زيادة فائدة ، وهى أن الاعتاد كالارصاد يفيد فوق معنى التهيئة سرعة الملابسة • ويدل عليه قوله تعالى : **« ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد »** (سورة ق آية ١٨) أى رقيب حاضر متهيىء راصد لما فعل •

سرادقها :

السرادق فى الأصل : هو الحجرة التى تكون حول الخيمـــة وغيرها ، وقد أثبت الله عز وجل للنار شيئا سماه بذلك يحيط بهم من جميع الجهات ، فقيل : هذا السرادق أيضا هو حائط من نار ، وقيل : بل هو دخانها يحيط بهم قبل دخولهم النار ، وقد جاء ما يشبه ذلك فى قوله تعالى : **« انطلقوا الى ظـــل ذى ثلاث شعب لا ظليل ولا يغنى من اللهب »** سورة المرسلات آية ٣١ ، ٣٢ فقد فسر هذا الظل بدخان النار ، وليس علينـــا أن نجزم بشىء من هذه الأوجه المحتملة ، وحسبنا أن نجـــزم بالمعنى الاجمالى للكلام ، وهو أنه لا مخلص لهم منها ، بل هى محيطة بهم من جميع الجوانب والعياذ بالله •

كالمهــل :

المهل : الماء الغليظ مثل دردى الزيت ، والروايات المــأثورة تصفه بأنه كالدم والقيح ، لونه أسود ، وريحه منتنة ، وهو غليظ حار •

مرتفقــا :

المرتفق : اما موضع اجتماع الرفقاء ، واما مكان الارتفاق ، أى موضع الاستراحة •

سندس واستبرق :

نوعان من الحرير : الأول رقيق ، والثانى غليظ ، وكل نوع

منهما يقصد فى جارى العادة لما يليق به من الثياب •

متكئين :

الاتكاء : قيل هو الاضطجاع ، وقيل : هو التربع فى الجلوس •

الأرائك :

جمع أريكة : وهو السرير الفاخر المحلى بالزينة •

التفسير :

بعد أن أمر الله نبيه — عليه الصلاة والسلام — بأن يصبر نفسه ويقصر قلبه على الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، ونهاه عن مجاوزتهم بنظره ورعايته الى غيرهم من المستكبرين ، أمره بأن يقول : « **الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر** » ثم أتبع ذلك بوعيد شديد لمن أعرض عن الحق ونأى بجانبه ، وهو ما تضمنه قوله تعالى : « انا اعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها » الى آخر الآية • وأتبعه أيضا بوعد صادق جميل لمن استجاب وأقبل ، وهو ما تضمنه قوله تعالى: « **انا اعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها** » الى آخر الآية •

الحق من ربكم :

هذا هو النسق الذى جاءت عليه الآيات مرتبطة بما سبق • وقوله تعالى : « **الحق من ربكم** » جملة قصيرة المبنى ، غزيرة المعنى ، وفيها ايحاء بالقبول ، ودفع للايمان ، بحيث لا يسع من تدبرها وأدرك معناها الا أن يذعن ويمتلىء ايمانا • بيان ذلك أنه ذكر « الحق » وهو بغية كل عاقل ، وغاية كل منصف ، ولن ترى أحدا من الناس الا وهو يقول لك : انه يبتغى الحق ، وينشد الصواب ، ويعدل عن الباطل ، حتى أهل الباطل يلبسون باطلهم ثوب الحق ، ويتأولون فيما يعملون ، ليجدوا له وجها يشبه الحق •

فالحق — اذا — هو بغية العقلاء وغاية المنصفين، ولكن من أين لنا أن نعرف الحق ، وهذه شهواتنا تصرفنا عنه ، وغاياتنا تلفتنا من دونه ؟!

ونحن نجد أصحاب المذاهب المختلفة ــ دينية كانت أم اجتماعية أم سياسية أم اقتصادية ــ كلهم يدعى أنه على الحق ، وأن ما سـواه على الباطل ، وكلهم ينافح ويكافح عما يرى ، مخلصا حينا ومستجيبا لدواع أخرى غير الاخلاص أحيانا .

ثم اننا نرى البيئات المختلفة تتحكم فى تحديد الحق ، فكم من شىء يعد حقا عند قوم من الناس ، أو فى زمن من الأزمان ، لظروف معينة جعلت العقول تتقبله وتعتبره حقا وخيرا ، وهو عند آخرين أو فى زمن آخر ضلال وباطل ، لظروف معينة صرفت العقول عنه ، وصورته عندها فى صورة الباطل والشر !!

اذن ــ ما هو السبيل الى معرفة « الحق » والاطمئنان اليه ، وهذه هى العقول تختلف فيه ، أو هى الشهوات والرغبات تتحكم فى تصويره ؟ وكيف يطمئن منصف الى شىء يراه متأرجحا بين القبول والرفض ، والاذعان والنقض ؟ ومن المصيب ومن المخطىء من هؤلاء المتنازعين على الشىء الواحد ؟ .

يقرر القرآن الكريم الجـواب عن ذلك فى أيسر عبارة فيقول : **« الحق من ربكم »** فمن شاء معرفة الحق فليلتمسه من الرب ، وليرجع فى معرفته وادراكه الى ما تكفل به جل علاه ، من هداية خلقه واصلاح شأن مربوبيه **« والله يقول الحق وهو يهدى السبيل »** (سورة الأحزاب آية ٤) .

لابد من الرجوع إلى الله فى معرفة الحق والهدى :

لا بد اذن من الرجوع الى الله فى معرفة الحق والاطمئنان الى الحق ، ولو ترك الله الناس دون بيان منه عن طريق أرسال الرسـل وانزال الكتب لظلوا فى مجاهل الباطل يتخبطون ، وفى ضلال العماية يتيهون ، ولتنازعتهم الأهواء والشهوات والقوى والسلطات المختلفة ، حتى يصيروا الى الهلاك والدمار . ولكنه سبحانه وتعالى : **« أعطى كل شىء خلقه ثم هدى »**(سورة طه آية ٥٠)فكما أن الناس يحتاجون الى

محض فضله فى الخلق والانعام ، هم أيضا محتاجون الى فضله فى الهدى والارشاد الى الحق •• وهذا هو السر فى التعبير بقوله : «**الحق من ربكم**» أو بعض السر فى هذا التعبير ، حيث لم يقل : « الحق من الله » مثلا وانما عبر بلفظ « **ربكم** » ليفيد أن الذى خلق وربى هو الذى أرشد وهدى •

فعلى الناس أن يدركوا هذه الحقيقة الواضحة ، فيقولوا لأنفسهم: كما آمنا بالله خالقا ، فلا يوجد أحد منا ينازعه الخلق والايجاد ، أو ينكره عليه ، كذلك يجب أن نؤمن بأنه هو — وحده — صاحب الحق فى تحديد الحق ، وبيان الحق ، والارشاد الى الحق •

وهذا — لو فطن الناس — هو أساس الدين ، وأول الايمان بالشرائع ، والرضا بأحكام الله •

وفى هذه الجملة بعد ذلك معنى آخر : هو أنها تمهيد لما بعدها من وعيد ووعد ، فكأنه يأمر نبيه بأن يتجه الى أصحاب القلوب القاسية والعقول الملتوية ، ويقول لهم : ليس الحق منى ولا من أحد من الناس، ولست مسئولا عنه ، وانما الحق من ربكم ، وهو القادر عليكم ، المتمكن من حسابكم ، فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر ، فما أنتم بضارين بكفركم الا أنفسكم ، وما أنتم بنافعين بايمانكم الا أنفسكم ، والله غنى عن العالمين وكأنه يتجه فى نفس الوقت الى أصحاب القلوب الطيبة والعقول المستقيمة فيقول لهم : الحق من ربكم الذى خلق وأنعم وهدى وأرشد ، والذى أحببتموه بعد أن عرفتموه ، والذى أعد لكم على الايمان أجرا حسنا ومتاعا حسنا ، فهلموا الى قبول هذا الحق والاذعان له ، ولا تكونوا كهؤلاء الذين تعرضوا لسخط الله بخروجهم على أمر الله •

وفى هذه الجملة أيضا معنى ثالث : هو أن الرب واحد ، ونسبة الناس جميعا اليه نسبة واحدة ، فلا فرق بين غنى وفقير ، وقوى

وضعيف ، ورئيس ومرءوس ، فكيف يريد بعض منكم أن يمتاز على بعض ؟ ! وكيف تتمسكون بهذه الفوارق الدنيا ، أو تحدثكم بها نفوسكم، وأنتم بصدد معرفة الحق والدين والهدى والارشاد ؟ ! فدعوا الفقراء والضعفاء يقتبسون من نور النبوة ما يهديهم الله اليه ، واقتبسوا أنتم من نورها أيضا ، وكونوا واياهم اخوانا كما خلقكم اخوانا ، وكما أنعم عليكم جميعا ، ورباكم جميعا .

ويأتى بعد ذلك وعيد الظالمين ، فيقول الله لهم : انا هيأنا وأرصدنا للظالمين نارا موصوفة بأوصاف تنخلع لها القلوب ، فهى نار عظيمة محيطة بهم ، لا يجدون عنها فكاكا ، ولا يجدون عنها مصرفا ، ولا يستروحون من ورائها نسمة من نسائم الفرج . فاذا استغاثوا من كربهم لم يغاثوا بما يشفيهم ويطفىء اللهب الذى يستولى على ظواهرهم وبواطنهم ، ولكنهم يغاثون بما يشتد معه عذابهم ، ويتضاعف به ألمهم. يغاثون بماء غليظ قذر منتن قاتم يشوى وجوههم من حرارته ، ويقطع أمعاءهم من شدته ، وهو بئس الشراب ، لأنه لا يطفىء الظمأ ، ولا يروى غليلا ، ولكنه ماء صديد يتجرعه الظالم ولا يكاد يسيغه .. فهذه هى النار التى هيأها الله للظالمين ، وأرصدها لعذابهم ، وان لهم فيها لرفقاء هم أسوأ الرفقاء والأمهم ، اذ هم فيها يختصمون ، ويتلاومون ، وينادون أبدا بالويل والثبور . فبئس الرفقاء ، وبئست الدار مرتفقا .

وكما يسوق الله هذا التهديد الشديد للظالمين ، يسوق البشارة العظيمة للمؤمنين العاملين ، فيقول : « **ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات** » : آمنوا بالله وبالحق الذى أمروا به ، وعملوا بما شرع لهم من الأحكام ، فبروا ، واتقوا ، وأحسنوا ، وأصلحوا ، وعبدوا ربهم ، وشكروه على نعمته . ان هؤلاء لهم أجرهم ، فاننى لا أضيع أجر من أحسن عملا . أما هذا الأجر فهو جنات عدن يقيمون فيها ، موصوفة بأوصاف النعيم ، مليئة بأنواع المتاع الحسن ، أنهارها جارية، وزينتها موفورة ، وهم فيها كالملوك الذين يحلون بالأساور وأمثالها ، ويلبسون لباس العز والرفاهية من سندس واستبرق ، ويتكئون على

السرر الفاخرة ، ولهم فيها أصحاب ورفقاء صالحون .. دعواهم فيها سبحانك اللهم ، وتحيتهم فيها سلام ، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين .

فهذه هى الجنة التى جعلها الله جزاء المؤمنين العاملين . وقد جاء فى القرآن الكريم أوصاف كثيرة لدار النعيم ، كما جاء فيه أوصاف كثيرة لدار العذاب ، وما ذلك كله الا لتقريب أمرهما على العقول ، والا فهما فوق ما ندرك بعقولنا القاصرة وأفهامنا المحدودة . فعلينا أن نؤمن بذلك، وأن نثق بخبر الله فى كل ذلك ، وألا نستبعد على قدرة الله شيئا ، وأن نشغل أنفسنا بما يقربنا من دار رضوانه ، ويبعدنا عن دار غضبه .. لا بالمباحث المعقدة التى لم يطالبنا بها الله ، كالذين يتساءلون عن النار والجنة : أين مكانهما ؟ وهل خلقتا قبل الناس أو بعد الناس ؟ وهل هما فى الأرض أو فى السماء أو لا فى الأرض ولا فى السماء ؟ الى غير ذلك مما لا طائل تحته ، وليس وراء العلم به فائدة فى العمل .

* * *

١١ - قال الله تعالى :

وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا
رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا
بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ﴿٣٢﴾ كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا
وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ
ثَمَرٞ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا
وَأَعَزُّ نَفَرٗا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ
مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ
وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا ﴿٣٦﴾

واضرب لهم مثلا :

تقدم أن أصل الضرب ايقاع شىء على شىء ، ويختلف هذا الايقاع باختلاف الأشياء ، ولذلك يفسر فى كل موضع بما يناسبه ، وأقرب المعانى الى أن يكون أصلا فيما نحن فيه : أنهم يقولون : ضرب الأمير الدينار أو الدرهم أو طبعه وصاغه على قياس ومثال معين، هو القالب الذى يصب فيه الذهب والفضة ، سمى هذا ضربا لأن الاعتبار فيه بضرب المطرقة ونحوها ليتشكل بالشكل المراد ، والضريب : الشكل فى القد والهيئة ، يقال : فلان ضريب فلان أى نظيره وشبيهه ، وعلى هذا يكون ضرب الدرهم تمثيله بالقالب فى قده وشكله ، ولما كان ذكر المثل وسوقه وبيانه فيه قياس لشىء على شىء قيل : ضرب له مثلا ، أى مثله له وجعله قياسا واعتبارا ، فمعنى اضرب لهم مثلا : مثل لهم مثلا ، واجعل لهم مقياسا ومعتبرا يقيسون عليه ويعتبرون به . قال الراغب : (ضرب المثل هو من ضرب الدراهم ، وهو ذكر شىء أثره يظهر فى غيره) يريد تمثيل شىء بشىء ، وتشبيهه به حتى يتبين ويظهر ، كما يظهر شكل القالب وصورته فى الدرهم والدينار .

جنتين :

الجنة : الحديقة ذات الشجر والنخل ، ولفظها مشتق من الاجتنان: وهو الستر لتكاثف أشجارها وتظليلها بالتفاف أغصانها .

حففناهما :

حفه القوم : اذا أطافوا به، وحففتهم به: أى جعلتهم حافين حوله.

ولم تظلم :

أى لم تنقص ، فمن معانى الظلم النقص .

وكان له ثمر :

فسر الثمر فى هذا الموضع بالمال من جميع أصنافه ، كالأنعام والذهب والفضة ، كما قال النابغة :

مهلا فداء لك الأقوام كلهم ❋ وما أثمر من مال ومن ولد

منقلبا :

أى مرجعا وعاقبة .

التفسير :

مثل صاحب الجنتين :

بعد أن نصح الله نبيه الكريم بالاعراض عن هؤلاء المستكبرين المشركين من كفار مكة ، ووضع بذلك مبدأ تقديس الحق والعناية بأهله ، واهمال الباطل وعدم الالتفات اليه ، وبعد أن بين أن الحق منه واليه ، وأنه يجازى أهله بما هم جديرون به فى دار كرامته ، ويعاقب أعداءه بما هم جديرون به فى دار عذابه . بعد هذا أمر نبيه بأن يضرب لهؤلاء وأولئك مثلا رجلين : أحدهما كافر مشرك مستكبر ، قد غرته ثروته ، وأطغاه نعيمه ، فلم يعد يحفل الا بما هو فيه ، ولم يعد قابلا لشىء من النصيحة والعظة ، والثانى مؤمن بربه ، مدرك لطبيعة هذه الحياة المتقلبة المغيرة ، التى لا تدوم على حال ، ولا تبقى على غنى ولا فقر ، ولا عز ولا ذل ، ولا ضعف ولا قوة .

أما الأول فقد أعطاه الله ثروة عريضة، وجعل له بستانين عظيمين، فيهما من الأشجار والفاكهة والزروع الشىء الكثير ، وكل منهما مثمر يؤتى أكله كل حين باذن ربه ، ولا ينقص منه شيئا ، وقد حفا بالأشجار والنخيل من جميع الجوانب ، فبدأ منظرهما جميلا رائعا ، وأثمر ذلك النخيل ثمرات كثيرة طيبة الى ما فيهما من ثمرات وخيرات حسان ، وكان للرجل الى جانب ذلك أموال أخرى من النعم والذهب والفضة ، وله خدم وحشم وأولاد وأعوان ، يأتمرون بأمره ، وينتهون بنهيه ، ويستعين بهم على الظهور بمظهر العزة والقوة والمنعة .

هذا النعيم الكبير ينعم الله به على كثير من خلقه ، ويجعله فتنة وامتحانا ، فليس كل انسان يصبر عليه ، وليس كل انسان يطيقه ، فمن الناس من يغتر به وتنتفخ له أوداجه ، ويتيه به كبرا على العباد ، ويطغى ويخرج عن حده ، ويظلم ويفسق ويعربد ، ويحمل الناس من وراء طغيانه وفسوقه وألوان عربدته ما لا يطيقون ، ومن الناس من يعرف نعمة الله عليه ، ويرعى حقه، ويؤدى واجبه، فينظر الى هذا النعيم على أنه فرصة هيأها الله له ليحسن ، ويتصدق ، ويسعى فى الخيرات، ويقوم بنافع الأعمال ، ويملأ المحيط الذى فيه خيرا وبرا وبركة ونشاطا، ويتحبب الى الله ليحبه الناس ، والى الناس ليحبه الله ، هذان هما شأنا الناس أمام النعيم والغنى والمتاع الحسن .

محاورة الكافر للمؤمن :

وقد كان هذا الرجل الذى ضربه الله مثلا للطغيان والاستكبار من الصنف الأول : بهرته نعمته فأغشت عينيه ، وغشت على قلبه ، فملأ ماضيه فخرا ، وأمال عطفيه كبرا ، وتجاوز كل حد ، ونسى أنه مخلوق مسكين محتاج الى رحمة الله فى كل لحظة ، فقال لصاحبه المؤمن وهما يتحاوران : أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا . اغتر بماله ، واغتر بأبنائه وأنصاره ، وفاخر بهذا المال وبهؤلاء الأنصار والأولاد امرأ فقيرا وحيدا ، وهو يعلم بحالته . وكان مقتضى الايمان أن يخاف الله فى هذه النعمة ويحذرها ، لا أن يغتر بها ، ومقتضى الأدب والذوق ألا يفاخر بها من لا يملكها ، فربما أوقع فى قلبه الحسرة والألم ، وأذاقه مرارة الحرمان . كان مقتضى الحكمة ألا يثير فى نفس هذا الفقير عوامل الحسد والبغضاء والضغينة عليه . ولكن هؤلاء المستكبرين من ذوى الثروة والنعيم قد فقدوا الايمان ، وفقدوا الذوق ، وفقدوا الحكمة ، ولم يعرفوا حتى مصلحة أنفسهم فى دفع الشرور النفسية التى يولدونها فى أنفس الفقراء والمساكين بهذه المباهاة الطائشة والمفاخرة النزقة .

ولم يقف به الأمر عند هذا الحد من المفاخرة القولية ، بل تعداه الى المفاخرة الفعلية ، فجعل يستعرض جنته وما فيها من ثمار وخيرات، وهو منطو على هذا الظلم لنفسه ، وعلى هذه النية الخبيثة الذميمة . دخل جنته ، وجاس خلالها ، وصوب فيها وصعد ، ورأى زهرتها

وتنسيقها وبهاءها وجمال أشجارها ، وانسياب مائها فى جداولها ، وتكاثف أشجارها وأغصانها ، وتدانى ثمراتها ، وما يتبع ذلك من نسيم صاف وظل وارف ، وطيور صادحة ، وخدم يروحون ويجيئون ، وأرائك وخمائل وملاعب ومنازه • رأى ذلك كله ، فقال كلمة الجهل والكفر والغرور ، أما كلمة الجهل فهى قوله : **« ما أظن أن تبيد هذه أبدا »** ، وأما كلمة الكفر فهى قوله : **« وما أظن الساعة قائمة »** وأما كلمة الغرور فهى قوله :**« ولئن رددت الى ربى لأجدن خيرا منها منقلبا »** : هالته الكثرة والنضارة والحسن والبهاء ، فنسى ما يراه كل يوم من تغير الأشياء وتقلبها وترددها بين التمام والنقص والازدهار والضعف وأن هذه الحياة معرض ذو ألوان وأحداث ، نسى هذا فظن أن جنته من دون مخلوقات الله جميعا مخصوصة بالبقاء والدوام •

هذا لون من ألوان الجهل أو التجاهل يقع فيه كثير من الناس• فنحن نرى الأغنياء يفتقرون ، والأصحاء يمرضون ، والأقوياء يضعفون، والأعزاء يذلون ، والأحياء يموتون ، ونقص فى ذلك أخبار فلان وفلان•• ومع هذا نغالط أنفسنا فنقول لها : هذا قد افتقر ، أما أنا فلن أفتقر ، وهذا قد ضعف وذل ، أما أنا فلن أضعف ولن أذل ، هذا قد مات ، أما أنا فسيطول عمرى ، ولن يأتينى الموت من قريب ، وبذلك نبنى على الآمال ، وننسى وقائع الأحوال فيختل حسابنا ، وتضطرب أمورنا، وتفاجئنا دائما أحداث الدهر ونحن عنها غافلون ، ونلقى ربنا ونحن لم نحسب لهذا اللقاء حسابا ، ولم ندخر له من صالح الأعمال ذخرا ، وقد نعترف بالحق والواقع اعترافا لسانيا لفظيا — بل كلنا يعترف كذلك — بينما قلوبنا فى صميمها تغالط وتماطل ، وأعمالنا شاهد عدل على تلك المغالطة والمماطلة •

وكما ألهته النعمة فجهل ، أطغته فكفر ، وأنكر البعث ، وأحال قيام الساعة ، وذلك لأنه قد أصبح ماديا ، أظلمت نفسه ، واسود قلبه ، ولم يعد يدرك الا ما هو فيه من المتاع البهيمى والنعيم المادى ، والمادة اذا طغت على امرىء أفقدته جانب الروح وناحية الانسانية ، فأصبح كأنه بهيم لا يرى الا المادة ، ولا يعنى الا بالمادة ، ولا يفكر الا فى المادة،

ولذلك يقول الله عز وجل فى وصف الكافرين : **« أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون • ان هم الا كالأنعام بل هم أضل سبيلا »** (سورة الفرقان آية ٤٤) أطغته المادة التى هو غارق فيها الى الأذقان فأنكر قدرة الله ، وتجرأ على تكذيب الله ، وقالها كلمة يحسبها هينة ، ويلقيها بطرف لسانه فى تعاظم واستهتار : **« وما أظن الساعة قائمة »** •

وكما ألهته النعمة فجهل ، وأبطرته فكفر ، دفعته كذلك الى الغرور بنفسه ، فزعم أنه مستحق لمـــا هو فيه من الخير والمتاع ، لمعنى يمتاز به على سائر من عداه !! فان كان هناك بعث أو نشـــور فـــان له فى مثل ماله فى الدنيا ، لأن فضائله الخلقية ومزاياه الطبيعية هى التى أهلته لذلك ، وجعلته جديرا به ـــ وهكذا قال قارون الطاغية : **« انما أوتيته على علم عندى »** (سورة القصص آية ٧٨) وقال الذى كفر بآيات الله **« لأوتين مالا وولدا »** وقال غيرهما : **« ولئن رجعت الى ربى أن لى عنده للحسنى »** (سورة فصلت آية ٥٠) •

ليس فى الوجود أسخف من زعم الانسان بأنه ممتـــاز فى ذاته وتكوينه على من سواه ، وأنه مستحق من أجل ذلك للكرامة والعلو فى الأرض • وقد زعم هذا أفراد ، وزعمته أمم ، وجعلوا يوزعون شعوب الأرض : هذا آرى ، وهذا سامى !! وقديما كان يقال : هذا مضرى ، وهذا باهلى ، أو هذا عربى ، وهذا عجمى ! والاسلام لا يعرف شيئا من ذلك ، ولا يقر هذا المبدأ الظالم الكاذب ، وانما شعاره : **« يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم »** (سورة الحجرات آية ١٣) **« لا فضـــل لعربى على أعجمى الا بالتقوى »** **« كلكم لآدم وآدم من تراب »** •

* * *

١٢ - قال الله تعالى :

قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن
تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ
رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ
قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ
مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ
وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾
أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾
وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا
وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ
أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ
وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ
ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾

نستمر فى شرح المثل الذى ضربه الله تعالى للمؤمنين والمشركين بالرجلين الغنى الكافر والفقير المؤمن الصابر ، وقد علمنا أن كلام الكافر المغتر وحواره لصاحبه كان مبنيا على أسس واهيـــة مبعثها الطغيان بالنعمة وعدم تحملها ، فهو :

١ ـــ يباهى صاحبه بكثرة ماله وعزة نفره ، ناســيا تقلبات الزمن وتغيرات الحياة .

٢ ـــ ويمعن فى الجهــل ، فيزعــم أن جنتــه باقية لن تبيــد ، ولن يدركها الفناء .

٣ ـــ ويجترىء على الكفر ، فينكر قيام الســاعة بقوله : « **وما أظن الســاعة قائمة** » .

٤ ـــ ويتحدى الغيب كأنه قد أخذ عند الله عهدا ، فيقول : « **ولئن رددت الى ربى لأجدن خيرا منها منقلبا** » .

رد المؤمن على الكافر :

وقد رد عليــه المؤمن فى كل ذلك ردودا مفحمة ، وألزمه الحجــة القاطعــة :

قال له فى قضية انكار الساعة : « **أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا** » وذلك أنه فى انكاره قد جاء بلفظ يفيد أنه يستبعد قيام الساعة ، وهو قوله : « **وما أظن الساعة قائمة** » فان قولك: ما أظن كذا واقعا يفيد أنك تستبعد وقوعه ، والاستبعاد هو عد الشىء بعيدا ، باعتبار ما جرت به العادة ، وأمر الساعة من الأمور التى بلغها جميع الرسل عن الله الى عباده ، فهى مســألة ســمعية أتت بها كل الرسالات ، وما دام الذى أنبأنا بها هو الله الخالق القادر فالايمان بها تصديق لله فى خبره ، والكفر بها تكذيب له جل علاه ، ولا محل لاستبعاد حصول الشىء ممن يملكه ويقدر عليه بعد اخباره بأنه سيحصل ، والثقة

بأنه ليس وراء قوته قوة تمنعه أو تحول بينه وبين اتمامه ، ولذلك عد المؤمن انكار الساعة كفرا ، لأنه تكذيب لله ، أو استبعاد على قدرة الله. وساق الكلام فى ذلك مدعما بالدليل الدال على القدرة الكاملة فى أمر يعلمه الانسان من نفسه ، قال له : أنت تعلم أيها الانسان أن الله خلقك من تراب ، وهو أبعد المواد عن الحياة والحس والفكر والتماسك . وذلك اما اشارة الى خلق آدم أبى البشر من تراب أو من طين ، واما اشارة الى معنى آخر يقول به علماء الحياة : وهو أن النطفة التى يخلق منها الحيوان انما هى جزء من الدم ، والدم انما هو جزء من الغــذاء ، والغذاء نابت من الأرض والتراب . فذلك هو الأصل الأول ، والتطور الثانى فى خلقك — أيها الانسان — هو هذه النطفة التى ألقيت فى الرحم ماء مهينا يهيىء الله له ما لا يعلمه الا هو من عوامل الحفظ والخلق والتصوير فى الظلمات ، حتى يصير علقة ، ثم مضغة ، وحينئذ يأتى التطور الثالث ، وهو التسوية والتقويم وتعديل الخــلق على هذه الاستقامة التامة والأعضاء الدقيقة الظــاهرة منها والباطنة . فالخالق الذى استطاع أن يحول التراب الى نطفة ، والنطفة الى انسان كامل تام الخلق ، ذى فكر وعلم وعقل وبطش وتصرف ، كيف يستبعد على قدرته أن يبعث الخلق بعد أن يصيروا ترابا ؟! وهل هذا الا خلق آخر كالخلق الأول ؟ ! بل أقول : هل هذا الا أمر تزاوله قدرة الخــالق فى كل يوم وكل لحظة ؟ ! يخلق القوة من الغذاء المخلوق من التراب ، ثم تتحول هذه القوة الى نوع من الدم يصير بعد حين انسانا أو حيوانا. ما وجه الاستبعاد والبعث والنشر يحدثان بالمئات والألوف فى كل لحظة ؟!

هذا هو الذى أراده المؤمن برده على الكافر ، وهذا هو الذى يجب أن يتأمله كل من حدثته نفسه باستبعاد البعث والنشور وقيام الساعة. عليه أن يقول لنفسه : من أى شىء خلقت ؟ وكيف تطور خلقى حتى وصلت الى ما أنا عليه ؟ فانه اذا تأمل ذلك برىء من الوساوس ونزغات الشيطان ، وعاد اليه اليقين والايمان .

ولمـــا قال المؤمن ذلك للكافر فى هذا الأسلوب .. أسلوب التساؤل والتقريع والتوبيخ ، أتبعه بذكر ايمانه واطمئنانه الى خالقـــه ، لتتم الموازنة بين الفعلين ، ويظهر الفرق بين الصنيعين ، فقال : « **لكنا هو الله ربى ولا أشرك بربى أحدا** » ومعناه : هذا هو شأنك أنت ، لكن أنا شأنى غير ذلك . شأنى هو الايمان بالله وعدم الاشراك به . هو الله ربى . هو الله خالقى الذى ربانى وتعهدنى ، فأنا معترف بربوبيته ، ولا يخالجنى شك فى قدرته ، فان من شك فى قدرة الخالق فقد ســـوى بينه وبين المخلوقين ، ومن سوى بينه وبين المخلوقين فقد أشرك به ، وأنا لا أشرك بربى أحدا .

وبهذا يتبين أن المؤمن قابل جحود صاحبه لقدرة الله بايمانه هو بالله ربا ، فى قولـــه : « **هو الله ربى** » ومعنى ربى : خالقى الـــذى ربانى وتعهدنى ، فهو اعتراف بقدرته . ثم أشار بقوله : « **ولا أشرك بربى أحدا** » الى المعنى الذى قام بذهن الكافر حين استبعد على قدرة الله أن تأتى بالساعة ، فهو ينظر الى ظواهر العادة التى ألفها ، ويقيس قدرة الله بقدرة المخلوقين ، فكأنه يسوى بين الله وخلقه ، والتسوية بين الله والخلق نوع من الشرك ، واذا كان الله جل علاه قد نفى أن يكون شىء من الأشياء مثله فى صفاته ، فأولى أن ننفى كون الله تعالى مثل شىء من الأشياء ، ولا سيما فى صفات العجز والقصور . تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

وقال له فى أمر اغتراره بجنته ، وزعمه أنها لن تبيد ، ولن يدركها الفناء ، وفى أمر اعتزازه بما له من مال وولد يكاثر بهما ويفاخر : على رسلك أيها المغتر .. ما هكذا تقـــابل النعم ، ولا بمثل هذا تســـتدام وتحفظ . كان عليك حين دخلت جنتك ورأيت بهاءها ونضرتها أن تذكر من أنعم بها ، وأن تقر بفضله عليك واحسانه اليك . فهلا قلت : ما شاء الله لا قوة الا بالله ، فأرجعت الأمر الى مشيئته لا الى استحقاقك الذاتى ، وأقررت أنه هو الذى شاء الاعطاء فأعطى ، وهو الذى ان شاء الابقاء أبقى ، وان شاء الحرمان حرم . وليس فى الوجود قوة الا به ، منحـــا

ومنعا وابقاء ونزعا • ثم على رسلك أيها المكاثر بمالك وولدك ، المفاخر بأنك أكثر منحا وأغنى وأقوى • ان كنت ضمنت بقاءك على الغنى والقوة ودوامهما لك فقل ما تشاء ، وافخر وكاثر كما تريد ، ولكن الدهر قلب، والأيام تعلى وتخفض ، فأنت اليوم فى هذا المتاع ، فربما حرمته غدا، وأنا فى ذلك الفقر ، فلعل الله يمنحنى غنى فوق غناك ، وجنة خيرا من جنتك ، ولعل حسبانا من السماء : أى عذابا مقدرا محسوبا ، ينزل على هذه الجنة التى أطغتك وأخرجتك عن وقارك وايمانك ، فتصبح أرضا ملساء ، لا نبات عليها ، ولا شجر فيها ، تزلق عليها الأقدام لشدة خلائها وخرابها ، أو لعل ماءها يفور وتبتلعه الأرض فى باطنها فيبعد ، ولن تقدر حينئذ على طلبه والوصول اليه ، مهما بذلت من جهد ، وأفرغت من وسع •

هكذا قال المؤمن للكافر • وطبيعة الايمان تقضى بهذا القول وأمثاله ، لأن الايمان يتضمن الثقة بأن الله هو المالك القادر الفاعل المختار ، وأن ما سواه مفتقر فى وجوده اليه ، ومفتقر فى بقائه اليه ، فما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وما شاء بقى ، وما شاء ذهب وفنى• أما طبيعة الكفر والانكار فيصاحبها العناد والاستكبار والغرور ، وادعاء الحصانة والثبات على الأحداث والعلو على التقلبات والتغيرات ، ولذلك يفاجأ الكافر ، فيتزلزل ويضطرب وييأس من روح الله • أما المؤمن فلا يفاجأ ، لأنه مقدر كل شىء ، راض بكل شىء • ان أصابته ضراء صبر فكان خيرا له ، وان أصابته نعماء شكر فكان خيرا له ، وليس ذلك لأحد الا للمؤمن ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم •

عاقبة الطغيان والنكران :

وقد أراد الله أن ينتزع من هذا المغرور نعمته ، ويهلك جنته ، فأصبح يوما فاذا ثماره قد أحيط بها وأصابها التلف والفساد ، واذا جنته خاوية على عروشها ، ممسوحة من جميع نباتها كأن لم تغن بالأمس ، أدركتها جائحة مكتسحة فأتت عليها وعلى كل ما فيها — فلما رأى ذلك

أدرك أنه كان فى غفلة ، وجعل يقلب كفيه ندامة وحسرة، ويقول : يا ليتنى لم أشرك بربى أحدا • وهكذا تنطلق من شفتى المغرورين دائما كلمة الندامة ، وتتحرك ألسنتهم بألفاظ ليت ولو وما شابهها ، وقد كانوا من قبل ساخرين مستهزئين •

انفضاض أعوان السوء بعد زوال النعمة :

ومن آيات الله التى يجب أن تكون من العقلاء دائمـا فى موضع العبرة والعظة، أن الأغنياء والأقوياء فى عنفوان قوتهم يحاطون بالأولياء والمناصرين ، أو بالذين يزعمون لهم أنهم أولياء ومناصرون ، وهم فى الحقيقة محتالون خبثاء ، يعملون لأنفسهم ، ويتجرون بزلفاهم وتقربهم، ويزينون الباطـل للمبطل ، والفساد للمفسد ، حتى اذا زلت به الى الحضيض قدمه لم يجد أحدا منهم يقبل عليه ، أو ينهضه من عثاره ، أو يواسيه على بأسائه وبلائه ، ولكنهم جميعا ينصرفون عنه ، ويتنكرون له ، ويعاملونه معاملة كلها احتقار بعد أن كانوا له عابدين ، وكلها قسوة بعد أن كانوا يلبسون له ثوب الناصح الشفيق • وكل الرؤساء يعلمون ذلك ، وكل الأغنياء يعلمون ذلك ، وربما تكرر عليهم الأمر مرة بعد مرة ، وانكشف لهم دجل أهل الدجل فى عهود مختلفة ، وهم مع ذلك يتقبلون زلفاهم ، وينخدعون لخداعهم ، ويعودون الى اصطفائهم أو مصاحبتهم، وما ذلك الا لأنهم هم أنفسهم مخادعون !! •

وقد أتبع الله هذا المثل العظيم الذى ضربه بتلك العبرة وهـذا المغزى ، فبين لنا أن هذا الغنى القوى حين ولت عنه نعمته لم تكن له فئة ينصرونه من دون الله ، وذهب عنه نفره الذين كان يعتز بهم ، كما ذهبت عنه أمواله • وما كان من خذله الله الا مخذولا ، وما كان من استعان بغير الله الا ذليلا • وهنالك علم من لم يكن يعلم ، أو ينبغى أن يعلم من لم يكن يعلم ، أن الولاية لله الحق ، لا سلطان لأحد مع سلطانه ، ولا مانع لما أعطى ، ولا معطى لما منع ، ولا حول ولا قوة الا به ، وهو خير ثوابا، لأن ثوابه باق خالد لا ينقطع ، وخير عقبى ، لأن عقباه هى دار رضاه ودار كرامته •

١٣ - قال الله تعالى :

وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا
كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ السَّمَآءِ فَاخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ الْأَرْضِ
فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ
مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ۖ وَالْبَٰقِيَٰتُ
الصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾

التفسير

هذا مثل ثان يضربه الله — عز وجل — للمغترين بالدنيا ، المنصرفين بكل جوارحهم اليها ، الذين لا يهتمون الا بالماديات ، ولا يتذوقون لذة المعنويات •

وقد كان فيما ذكره الله — عز وجل — فى مطلع هذه السورة الكريمة قوله فى تسلية رسوله — صلى الله عليه وسلم — : « **فلعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا ، انا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا ، وانا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا**» يقول له : ان هذه الدنيا وما فيها من متاع انما هى زينة للابتلاء بها ، والامتحان بحسنها ونضارتها ، ليتبين العاملون ، ويظهر المسيئون والمحسنون ، وسوف يدركها الفناء ، ويأتى عليها الزوال ، فيصبح ما على الأرض كله صعيدا جرزا • والمرجع الى الله ، فلا تبتئس بما ترى أو تسمع •

مثل الحياة الدنيا :

ويشبه الله فى هذا المثل الحياة الدنيا — فى نضرتها وبهائها المؤقتين الصائرين بعد حين الى الفناء والزوال — بماء أنزله من السماء ، فكان حياة للأرض وروحا للنبات والحب والورق والعيدان والأغصان ، فشب كل ذلك ونما وترعرع حينا من الزمان ، ثم أدركه اليبس والجفاف ، فأصبح هشيما متكسرا تذروه الرياح : أى تفرقه ذات اليمين وذات الشمال ، فليس له تماسك وليس له مقاومة •

وقد ضرب الله هذا المثل للحياة الدنيا فى مواضع كثيرة من القرآن الكريم ، فقال فى سورة يونس : « **انما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام • حتى اذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون** » (سورة يونس آية ٢٤) • **وما أبلغ قوله تعالى: «حتى اذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها»** فان هذا تصوير رائع لحالة الأرض والحياة الدنيا فى ابان حضارتها

ومدنيتها واغترار الانسان بقوته ، حتى انه ليستطيع أن يطير فى الهواء، وأن يغوص فى الماء ، وأن ينطق الحديد . ومن يدرى ما الذى ستأتينا به الأيام من المخترعات والعجائب التى علمها الله للانسان ، ومكنه بها من تسخير كل شىء فى هذا الوجود ؟ ! .

وقال جل شأنه فى سورة الزمر : « **ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع فى الأرض ثم يخرج به زرعا مختلفا الوانه ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يجعله حطاما ان فى ذلك لذكرى لأولى الألباب** » . (سورة الزمر آية ٢١) .

وقال فى سورة الحديد : « **اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور** » (سورة الحديد آية ٢٠) .

تصوير رائع ، وبيان يأخذ بالألباب ، وتحذير لأهل العقول تقوم به الحجة وتنقطع التعلات ، فسبحان من خلق الحياة وأنزل الكتاب.

وفى كل آية من هذه الآيات يختم الكلام بجملة قوية فيها تسجيل لقدرة الله . أو لفت اليها . ففى آيتنا التى نحن فى تفسيرها يقول الله جل جلاله : « **وكان الله على كل شىء مقتدرا** » أى هذه — يا أرباب العقول — آثار قدرته وتصاريف خلقه ، ومن قدر على هذا فانه يقدر على ابادة الدنيا واقامة خلق جديد يبعث الناس فيه الى رب العالمين.

وفى سورة يونس يقول : « كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون » (سورة يونس من الآية ٢٤) أى نبينها ونوضحها ، وننقل الكلام فى موضوعها من معنى الى معنى ، لمن كان عنده قوة مفكرة يوجهها الى معرفة الحق ، وليس بذى عناد والتواء .

وفى سورة الزمر يقول : « **ان فى ذلك لذكرى لأولى الألباب** » (**سورة الزمر من الآية ٢١**) وهكذا يخاطب العقول دائما ، لأن قضيته واضحة ليس فيها خفاء ، ولأن الذين يجادلون فيها لا يستطيعون اذا خلوا الى أنفسهم الا أن يؤمنوا بوضوحها وصدقها •• ولكنهم يجحدون الحق وهم به عارفون •

وأحسب أن من تمام المثل وبقية القياس فى شأنه قوله تعالى : « **المال والبنون زينة الحياة الدنيا** ••• الى آخر الآية » وهذه الآية تحتوى على حقيقتين يقررهما الله تعالى ، ويلزمهما أمر يؤخذ من فهمهما ومعرفة المراد بهما •

تقرير الواقع فى شان المال والبنين

فأما الحقيقة الأولى فهى كون المال والبنين زينة الحياة الدنيا ، فالمراد بالمال : كل شىء يملك وله قيمة من ذهب أو فضة ، أو حرث أو أنعام ، أو خيل ، أو قصور أو حدائق ، أو ما الى ذلك • والمراد بالبنين: الأولاد ، وان كان لفظ البنين أشهر فى الذكور دون الاناث ، لأن لذة المرء انما تكمل بأن يكون له أولاد من الصنفين ، فمن رزق الذكور فقط أحس بنقص ، ومن رزق الاناث فقط أحس بنقص • غير أنه لما كان الذكور أحب الى الناس فى الجملة من الاناث اقتصر على لفظ البنين ، فاذا كمل لأحد من الناس المال والأولاد فقد كملت له الزينة والمتاع ، لأن المال يمكنه من النعيم والترف واقتناء ما يحب من كل ما جرت عادة الانسان بالتعلق به والتمسك بأهدابه ، والأولاد يمكنونه من اشباع عاطفته الانسانية ، ويشعرونه بأنه مثمر منتج غير منقطع ، ويقومون عنه بكثير من أعبائه •

وهذه الحقيقة قد قررت فى غير ذلك من الآيات كما قررت فى هذه الآية ، ومن ذلك قوله تعالى : « **زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة**

والأنعام والحرث » (سورة آل عمران آية ١٤) فكلتا الآيتين تجعل ذلك شأنا من شئون الناس ، بحسب الفطرة التى فطروا عليها ، وما ركب فيهم من الشهوات وحب المتاع ، والله سبحانه وتعالى لم يكلف عباده بالانفضاض عن هذه الزينة ورفضها وعدم التعلق بها ، والا لكان هذا تكليفا بما ينافى الفطرة ويخرج على الطبيعة ، ولكنه يحذر من الافتتان بها ، وأن يجعلها الانسان غاية أمله وأقصى حظه ، وينصرف عن تكميل نفسه بالمعنويات وتمتيع روحه بما وراء الماديات **« قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق »** (سورة الأعراف آية ٣٢) ولذلك يقول فى آية أخرى : **« انما أموالكم وأولادكم فتنة »**(سورة التغابن آية ١٥)٠

وأما الحقيقة الثانية : فهى كون الباقيات الصالحات خيرا عند الله من الزينة الفانية والمتاع الزائل ، وهذا ما ختمت به الآية ، كما ختمت بمثله الآيات الأخرى ٠

الباقيات الصالحات ليست «علما» على شيء معين :

ففى قوله تعالى : **« زين للناس حب الشهوات »** كان الختام قوله : **« ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب** وفى قوله : **« انما أموالكم وأولادكم فتنة »** كان الختام : : **« والله عنده أجر عظيم »** ٠

والباقيات الصالحات لفظ جامع لكل معنى من معانى الخير والعمل الصالح ٠ **وقد روى على بن طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال:** « هى ذكر الله : قول لا اله الا الله ، والله أكبر ، وسبحان الله ، والحمد لله ، وتبارك الله ، ولا حول ولا قوة الا بالله ، وأستغفر الله ، وصلى الله على رسول الله ، والصيام ، والصلاة ، والحج ، والصدقة ، والعتق ، والجهاد ، والصلة ، وجميع الأعمال الصالحات ٠ وهن الباقيات التى تبقى لأهلها فى الجنة ما دامت السموات والأرض » ٠ وروى العوفى عنه أنه قال : هى الكلام الطيب ٠ وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هى الأعمال الصالحة كلها ٠ واختاره ابن جرير ٠

وأحب أن يعلم هنا أن كثيرا من الروايات تذكر معـــانى متعددة للباقيات الصالحات : فمنها ما يقرر أنها كذا ، ومنها ما يقرر أنها كذا ، ألفاظ بعينها يذكرونها ، وكأن لفظ الباقيات الصالحات علم عليهـــا ، واسم تعرف به • فمن ذلك ما يروى أن أمير المؤمنين عثمان بن عفان — رضى الله عنه — سئل عن الباقيات الصالحات ما هى ؟ فقال : هى لا اله الا الله ، وسبحان الله والحمد لله والله أكبر ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم • وقد ذكر هذا أو قريب منه فى روايات أخرى عن ابن عباس وسعيد بن المسيب وعمر بن الخطاب ومجاهد والحسن وقتـــادة وغيرهم ، رضى الله عنهم أجمعين • وكل ما ذكر فى هذه الروايات فانما هو من قبيل التمثيل لها ، ولم يرد الحصر ، فالباقيات الصالحات لا تقف عندما ذكر ، وانما هى — كما نقلنا أولا — كل عمل من أعمال البر فى العبادة أو المعاملة ، أو تمجيد الله والثناء عليه ، أو الصلاة والسلام على نبيه أو غير ذلك •

بر الوالدين من الباقيات الصالحات ، الاحسان الى الزوجة من الباقيات الصالحات ، العناية بالأولاد من الباقيات الصالحات ، الوفاء للصـــديق من الباقيات الصالحات ، السـعى فى الخـير من الباقيات الصالحات ، قولة الحق من الباقيات الصالحات ، ذكر الله فى الغافلين من الباقيات الصالحات ، حب أهل الدين والعمل الصـــالح من الباقيات الصالحات ، قراءة كتاب الله من الباقيات الصالحات ، حب الوطن من الباقيات الصالحات ، مساعدة الفقير ، هداية الضال ، اغاثة الملهوف ، رعاية اليتيم ، التورع عن الحرام ، ترك الولوغ فى الأعراض ، نظافة الباطن والظاهر ، السماحة فى الأخذ والعطاء ، الصبر عند النوازل ، شكر الله على النعمة ، التواضع من غير ذلة ، اكرام الضيف •• كل ذلك وأمثاله من الباقيات الصالحات « **والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا** » •

وأما الأمر الذى يؤخذ من هاتين الحقيقتين فهو أن نعرف أن الله لا يبغى بنا الحرج ، ولا يكلفنا فوق طاقتنا ، ولا يريد منا أن نزهد فى الدنيا وفى المتاع الحسن .. ولكن يريد أن نجعل الدنيا مطية ووسيلة ، وأن نتمتع بالطيبات فى غير اسراف ولا شـطط ، وأن نكون دائمـا ذاكرين الله ، ولما عند الله . فاذا تعارض شىء من الدنيا مع شىء من الدين. فلنضح بالأخس منهما للأعز ، وبالعاجل للآجل ، وبالفانى للباقى ، كما هو شأن العقلاء فى كل معاملاتهم وتصرفاتهم . فليكن شعارنا فى هذه الحياة أن نتمتع بما أحل الله من الطيبات ، وأن نرضى طبائعنا بما أباح الله من الزينة ، وأن نعمل ونسعى ، وندأب فى حدود ما شرع الله . فاذا كان شىء من ذلك سيطغينا ويخرجنا عن حدودنا وينسينا ذكر ربنـا وحقوق ربنا جعلناه وراء ظهرنا ، ووضعناه تحت أقدامنـا ، وتلك لعمرى سنة المؤمنين .

١٤ ـ قال الله تعالى :

وَيَوۡمَ
نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ بَارِزَةٗ وَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ
نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفّٗا لَّقَدۡ
جِئۡتُمُونَا كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةِۭۚ بَلۡ زَعَمۡتُمۡ أَلَّن نَّجۡعَلَ
لَكُم مَّوۡعِدٗا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ
مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ
لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ
حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ﴿٤٩﴾

التفسير :

أساليب القرآن الكريم في الأقناع بأمر الساعة :

للقرآن الكريم أسلوب عجيب فى الاقناع بأمر الساعة ، وقدرة الله عليها ، ومايكون فيها من الحساب والثواب والعقاب والجنة والنار والعدل والجزاء • فهو تارة يأتى بالبراهين الدامغة على قدرة الله الذى أنشأ الدنيا لأول مرة ، وجعل خلق الانسان من طين ، والذى جعل من الشجر الأخضر نارا ، والذى أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها ، والذى أخرج من الأرض نباتا مختلفا ألوانه ، يسقى بماء واحد ، ويفضل بعضه على بعض فى الأكل • وتارة يقص عليهم أنباء من كانوا قبلهم ثم طواهم الردى ، ولم تغن عنهم أموالهم ولا كثرتهم شيئا ، فيأتى بالحق والخبر اليقين ،ويذكر من التفاصيل الدقيقة ما لا يعرف الا عن طريقه، ولا يؤخذ عن ثقة الا منه •• ليدلهم ذلك على أن هذا الكتاب من عند الله العليم الحكيم ، فيؤمنوا بجميع أخباره ، ويصدقوا وعده ووعيده • وتارة يخبرهم بالغيب الذى لم يقع بعد ، ليعلموا أن عالم الغيب هو الذى ينبىء بخبر البعث والنشور • وتارة يصور لهم حال القيامة نفسها وما فيها من الأهوال ، كأنها حقائق واقعة يشاهدونها بأعينهم ، ويرون تفاصيلها وأحوالها ، فيستوى عند هذه التفاصيل الحاضرة مؤمن الناس وكافرهم ، لأن الجميع يرون ، ولا سبيل الى تكذيب ما تراه العينان •

ومن هذا الأخير تلك الآية : يصف فيها آخر هذه الدنيا حين تزول الرواسى ، ويحطم كل ما على الأرض من شوامخ صناعية أو طبيعية ، فتسير الجبال سيرا ، وتمور السماء مورا ، وتبدل الأرض غير الأرض والسموات •

وتسيير الجبال : ذهابها وتحولها عن أماكنها الى حيث الفناء والزوال بعد التحطم والتفرق ، ويدل على هذا قوله تعالى : « **وتكون الجبال كالعهن المنفوش** » (سورة القارعة آية ٥) وقوله عز اسمه : « **وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب** » (سورة النحل آية ٨٨) • فهذا يدلنا على أن الجبال الرواسى

سيصيبها الزوال والفناء يوم يريد الله لها الزوال والفناء ، واذا سارت الجبال وزالت ، ولم يبق لها أثر ، أصبحت الأرض كلها خالية بادية ظاهرة ، ليس فيها مكان يوارى ، ولا ملجأ يتحصن به ، بل الخلق كلهم ضاحون ظاهرون لربهم ، لا تخفى عليه منهم خافية . وهذا معنى قوله تعالى : **« وترى الأرض بارزة »** ويدل عليه قوله فى آية أخرى : **« يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية »** (سورة الحاقة آية ١٨)

ثم يساق الناس من لدن آدم الى يوم البعث محشورين الى ربهم **« يخرجون من الأجدات كأنهم جراد منتشر »**(سورة القمر آية٧) لا يغيب منهم عن هذا الحشر أحد ، ولا يتأبى عليه أحد **« قل ان الأولين والآخرين لمجموعون الى ميقات يوم معلوم »** (سورة الواقعة آية ٤٩، ٥٠) **« ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود »** (سورة هود آية ١٠٣) فاذا اجتمعوا فى أرض المحشر عرضوا على الله صفا صفاوفوجا فوجا ، فلم يبق من البشر أحد الا حضر بين يدى أحدكم الحاكمين ، ثم يقال لهم : **« لقد جئتمونا كما خقلناكم أول مرة ، بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدا »** . يقال ذلك تقريعا للمنكرين ، وتوبيخا للجاحدين . وما أبرع هذه الطريقة فى الحجاج والاقناع ، انها خطاب للنفوس والقلوب ، ورجوع بها الى الفطرة التى تخشى الأهوال ، وتخاف العذاب، وتحسب الحساب ليوم الحساب، وان أظهرت بانكاره جحودا وكبرا وشقاقا وجدلا . فهو يقول لهم : انكروا ، واجحدوا ، وجادلوا ما شئتم ، فستحشرون ، وستعرضون ، وستقال لكم ألفاظ التبكيت والتقريع التى بها اليوم تستهزئون ، وعنها تصدون . ولا شك أن هذا تهديد شديد ، وأن قلوبهم ستمتلىء به رعبا ، وتضطرب له فرقا ، ولو حاولوا الظهور بين يدى الرسول بمظهر الآمنين.

وقد ذكر مثل هذا فى كثير من الآيات ، ومنها قوله تعالى فى سورة الأنعام : **« ولو ترى اذ وقفوا على ربهم قال أليس هذا بالحق ، قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون . قد خسر الذين كذبوا**

بلقاء الله حتى اذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون » (سورة الأنعام الآية ٣٠ ، ٣١) **وقوله جل وعلا فى** سورةالسجدة : **« ولو ترى اذ المجرمون ناكسو رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا انا موقنون • ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين • فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا انا نسيناكم وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون »** (سورة السجدة الآيات من ١٢ — ١٤) •

فأى قلب لا ينخلع لهذا التهديد ؟ ! وأى بال لا يقلق ؟ !

ثم يقول عز وجل : **« ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه »** أى خائفين وجلين ، لأنهم يعلمون ما قدموا ، ويعلمون أن الله قد أحصى كل شيء عليهم ، وأن هذا المقام ليس مقام انكار ولا تفلت ، **وليس مقام تأجيل ولا تأخير «ويقولون يا ويلتنا»** أى يا حسرتنا وهلاكنا على ما فرطنا **« ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها »** **أى لا يترك** ذنبا صغيرا ولا كبيرا الا أثبته وسجله فلا سبيل الى انكاره **« ووجدوا ما عملوا حاضرا »** لم يغب منه شيء ، ولم ينس منه شيء **« ولا يظلم ربك أحدا » « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره • ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره »** (سورة الزلزلة آية ٧ ، ٨) **« يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا »** (سورة آل عمران آية ٣٠) **« ينبأ الانسان يومئذ بما قدم وأخر »** (سورة القيامة آية ١٣) **« يوم تبلى السرائر »** (سورة الطارق آية ٩) **أى تظهر** الخفايا والمخبآت •

* * *

١٥ ـ قال الله تعالى :

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ
ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ
عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن
دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾

المفردات :

الملائكة والجن :

كلاهما خلق الله تعالى خفى ، من واجبنا أن نؤمن بوجودهما كما جاء فى كتاب الله ، وأن نقتصر فى أمرهما على ما ذكر الله ، ككون الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع، وكونهم عبادا لله لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون ، وكون الجن قد استمعوا الى القرآن ، ومنهم المسلمون ومنهم القاسطون ، الى آخر ما ذكره الله فى كتابه وعلى لسان رسوله من الأحاديث المفيدة للعلم •

اســجدوا :

السجود فى أصــل اللغة : الخضوع والانقياد والتطامن ، وهو لا يختص بالعبادة المعروفة التى هى وضع الجبهة على الأرض لله تعالى ، ولكن هذه صورة من صوره ، ومظهر لمعناه العام • وقد جاء السجود فى القرآن الكريم : تارة بمعنى الصورة المعينة التى تكون فى الصلاة ، كما فى قوله تعــالى : « **يا مريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين** » (سورة آل عمران الآية ٤٣) « **وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع الســجود** » (ســورة البقــرة الآيــة ١٢٥) • وتارة بالمعنى العام الذى هو الخضوع والانقياد ، اما لله كما فى قوله تعالى : « **والنجم والشجر يسجدان** » سورة الرحمن آية ٦ ، واما لغير الله • وقد جاء ذلك عند القدماء تحية للملوك والعظماء ، كما فى قوله تعالى : « **ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا** » (سورة يوسف الآية ١٠٠) •

فســق :

أصل الفسوق فى اللغة العربية : الخروج ، يقال : فسقت الرطبة عن قشرها ، أى خرجت • وقد جاء هذا اللفظ فى الكتاب الكريم تعبيرا عن الخروج عن أوامر الله تعالى وتعدى حدوده « **أفمن كان**

مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون » (سورة السجدة الآية ١٨) « **وما يكفر بها الا الفاسقون** » (سورة البقرة الآية ٩٩) « **فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين** » (سورة التوبة الآية ٩٦) •

ففسوق ابليس عن أمر ربه خروجه عن طاعته وعصيانه لأمره •

اوليـــاء :

جمع ولى : وهو الحليف والناصر والمعين •

بعد أن ذكر الله فى الآيات السابقة أمر الآخرة والحساب والكتاب الذى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها ، عاد فى هذه الآية الى النشأة الأولى ، وذكر الانسان بما كان من موقف ابليس فى عداوته ، والتكبر على أمر الله فى شأنه •

وبهذا يكون قد جمع فى آيتين متعاقبتين بين أمر الآخرة وما فيهــا من النــدامة التى تحيق بمن آثروا أهواءهم وشــهواتهم واتبعــوا شياطينهم ، وأمر النشأة الأولى للانسان ، حيث كان أول عــدو له ، ومتمرد على أمره ، هو الشيطان الذى أسلس له الانسان قياده ، ونزل على حكم اغوائه ، ونسى عداوته المتأصلة التى نشأت معه ، وبقيت ، وستبقى الى يوم القيامة ! •

وهذا استقصاء عجيب فى التحذير والموعظة والتذكير ، من شأنه أن يلفت العقول ويفتح القلوب •

حديث النشأة الأولى :

تكرر فى القرآن الكريم ذكر هذه القصة : قصة النشــأة الأولى للانسان وما كان فى الملأ الأعلى من حوار فى شأنها ، وتمرد ابليس حين أمر بالسجود لآدم •

وربما كان المذكور فى أوائل سورة البقرة وهو أكثرها تفصيلا ، وأشملها بيانا •

عند أهل التفويض :

وأهل العلم فى هذه القصة فريقان :

فريق يأخذونها أخذ المتشابه الذى لم تتضح حقيقته ، ويجب

التسليم به ، والتفويض لله فى شأنه ، وذلك لأنهم رأوا فيها ما لا يمكن اسناده لله تعالى على ظاهره ـ كمشاورته للملائكة ، ورد الملائكة عليه ، واعتراضهم بما اعترضوا ، وجوابه تعالى بما أجاب ، الى غير ذلك من المواطن التى لا يدرك سرها ولا تتبين حقيقتها •

قالوا : كيف يستشير أحدا من خلقه ؟ ! وكيف يستطيع أحد من الخلق أن يعترض على الله فى فعله أو أمره ؟ !

واذا حصل ذلك من أحد فهل يعقل أن يحصل من الملائكة الذين وصفتهم نصوص الدين بأنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ؟ وكيف عرف الملائكة بأن آدم وذريته سيفسدون فى الأرض ويسفكون الدماء ؟ ! وكيف ساغ أن يعلم الله آدم الأسماء ولا يعلمها الملائكة ، ثم يسألهم ليعجزهم ويتحداهم بآدم فى علمه ؟ ! وكيف قال لهم بعد ذلك : **« ألم أقل لكم انى أعلم غيب السموات والأرض •• الخ»** (سورة البقرة آية ٣٣) •
وهم بذلك يؤمنون وبه معترفون ؟ !

كل هذه أسئلة يوردها العقل ، فيقف منها بعض الناس موقف التسليم على طريقة السلف فيما لم يتضح أمره •

عند أهل التأويل :

وبعض الناس يسلك طريقة الخلف وهى التأويل ، فيجعل هذه القصة كلها تمثيلا وتصويرا ، ويقرر أن جميع ما جاء بها من المخاطبات والمحاورات انما هو بلسان الحال لا بلسان المقال ، وكأن هذا الفريق يقول : ان مشاورة الله تعالى للملائكة فى خلق آدم هى ايذانه تعالى لهذه القوى الغيبية بأمره وتكوينه ، وشعورها ـ بحكم اتصالها بالملأ الأعلى ـ بقرب حدوث تطور فى هذا الكوكب الذى هو الأرض ، ولم يقع منها سؤال أو اعتراض على وجه الحقيقة ، وانما هو لسان حالها يقول : ان هذا المخلوق الجديد ما دام ليس من جنس الملائكة وطبيعتهم الخيرية فلا بد أن يكون فيه استعداد لفعل الشر وسفك الدماء والافساد فى الأرض • فكيف يجعل هذا خليفة وتترك القوى الخيرة المطيعة ؟ !

وهذا مجرد تصوير لواقع الأمر ، ليس المراد أنهم قالوا ذلك فعلا ، أو سألوه عن سره • وفى قوله تعـــالى : « **أنى أعلم ما لا تعلمون** » (سورة البقرة آية ٣٠) ارشاد لكل ذى عقل أنه ليس له أن يحكم عقله وقواعده فى كل شىء حتى فى أفعال الله وتصرفاته ، فان لها حكما قد تخفى عليه ، وقد يحمله خفاؤها على انكارها •

معنى تعليم آدم الاسماء :

وتعليم آدم الأسماء هو تكوينه على طبيعة تمكنه من معرفة أحوال الحياة والتطلع الى أسرارها وخواصها ، فالأسماء كما تشمل اللغات تشمل خواص الكائنات وأسباب المخترعات ، وقواعـــد هـــذا الكون وما فيه من قوى ما زالت تنكشف للانسان شيئا بعد شىء ، والانسان موكل بها وبكشفها وتتبع أسرارها حتى عرف طبيعة الهواء ، وطبيعة الماء ، وطبيعة الحرارة والبرودة ، والنبات والحيوان ، وأن يســـخر موجات الهواء ، وأن يخضع المسافات لصوته ومشاهدته وتصويره ، وأن يصل بالعيون السحرية الى أسرار لا تشاهدها عينه الطبيعية ، وأن يعرف الذرة وما فيها •• الخ !!

هذه كلها هى الأسماء التى علمها الله لآدم ، وليس معنى هذا أن أبانا آدم كان يعرف سر الكهربا أو عنصر كذا وكذا ، أو كان يعرف حمل الأصوات بالأثير •• الخ — وانما طبعه الله ، وطبع جنسه وذريته على سجية من شأنها أن توصلهم الى ذلك ، وتفتح أمامهم الآفاق • ولم يكن فى خلق الله من ذوى الأرواح من لهم هذه السجية ولا تلك القوة ، ومن بين هؤلاء الملائكة • فقوله تعالى : « **يا آدم أنبئهم بأسمائهم** » (سورة البقرة آية ٣٣) لم يحدث بذاته ، ولكن الحال والواقع يقوله به ، فطبيعة الانسان فيها هذ االاستعداد ، وطبيعة الملائكة ليس فيها هذا الاستعداد، فكلتا الطبيعتين المتقابلتين كأنهما تتناقشان وتتجادلان !!

وفى وسط هذا كله تبين أن موقف الملائكة هو موقف الخضـــوع والقبول وعـــدم التمرد ، وقد عبر عن هذا بقبول السجود لآدم أى الاعتراف بما ميزه الله به • أما ابليس فلم يقف من آدم هذا الموقف ،

ولكنه أبى أن يخضع ، واستكبر وحده ، ونوى أن يناجزه العداء ، وأن يثير عليه عوامل الشر كيفما استطاع ومتى استطاع وبأى شىء استطاع ؟! فظهر أنه هو العدو الحقيقى للانسان ، هو الذى ينبغى أن يتقى ويخشى ويحتاط منه ، فكيف يسوغ بعد هذا العلم الذى صوره الله للانسان بهذه الصورة الناطقة ، ومثله بهذا المشهد الواضـــح الرائع أن يغتر الانسان بالشيطان ، ويتخذ من ابليس وذريته أولياء يصافيهم المودة ، ويستمع اليهم ، ويمضى فى خطتهم وما يرسمون ؟ !

١٦ ـ قال الله تعالى :

* مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ
أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ
يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟
لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ
ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾

ما أشهدتهم :

يقال : أشهدت فلانا كذا : أى جعلته شاهدا اياه وحاضرا له يراه بعينـــه •

عضـــدا :

العضد فى الأصل : ما بين المرفق الى الكتف ، ويستعار للمعين ، فيقال : فلان عضد لى ، كما يقال فلان يدى اليمنى مثلا •

موبقــا :

الموبق مأخوذ من وبق بمعنى هلك ، فمعناه : المهلك بوزن المجلس والموعد ، وقد يستعمل بمعنى الحائل الذى يحول بين شيئين ، وهو حينئذ من وبق بمعنى حبس ومنع •

مواقعوها :

يقال : واقعت الأمور : أى دانيتها وباشرتها •

مصرفا :

أى مهربا ومفرا : أى لا يستطيعون أن ينصرفوا عن النار ، وقريب من هذا المعنى ما جاء فى قوله تعالى : **« ألا يوم يأتيهم ليس مصروفا عنهم »** (سورة هود آية ٨) •

كان ذكر النشأة الأولى للانسان وما كان فيها من عصيان ابليس لربه ، برفضه الخضوع لآدم ، واتخاذه اياه عدوا • كان ذكر هـــذه النشأة لفتة بارعة بين ما سبقها وما لحقها من ذكر أمور الآخرة ، وتصوير هولها وشدتها ، واحتياج المرء فيها الى الناصر والمعين • وقد أتبـــع ذلك بتقريع الظالمين الذين استبدلوا بربهم ولاية أولياء الســـوء من شياطين الجن والانس ، وحسبوا أنهم فى هذا الوجود شىء ممتاز له قيمته التى لا تدانى ، فأرادوا لأنفسهم وضعا خاصا فى الحياة يمتازون به على من سواهم من الفقراء والضعفاء •

التفسير :

تأنيب وتحذير لاهل الغرور

هذا الصنف من الناس كأنما يحسب نفسه من طينة غير طينة البشر، وكأنما يجعل لنفسه حقوقا على الناس غير حقوق الناس — فالله سبحانه وتعالى بعد أن يذكر لهم عداوة ابليس الذى يحفزهم الى مثل ذلك ، ويزين لهم الكبر والغرور والاستعلاء بالباطل ، يسخر منهم ويطعنهم فى كبريائهم طعنة نجلاء ، فيقول : « **ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضداً** » يعنى : ما بالهم هكذا يستعلون ويستكبرون ؟ ! أكانوا شركاء فى الخلق مع الله يوم خلق السموات والأرض ولو بمجرد النظر والمشاهدة ؟ ! أرأوا الله وهو يخلق السموات والأرض ، أم رأوه وهو يخلقهم هم ، فعلموا أن لهم مزية على من فى السموات والأرض جميعا ، وأنهم صيغوا على غرار خاص ومن معدن خاص ؟ ! ان ذلك لم يحدث طبعا ، ولم يدر بخلد هؤلاء المستكبرين، ولم يتطرق الى ذهنهم ، ولكن أعمالهم وكبرهم واستعلائهم يمثلهم فى صورة من يتصور ذلك ، ومن يؤمن به ويعتقده فى نفسه • فالله سبحانه وتعالى ينفيه ويرده ، ويختم هذا النفى بأنه ليس فى حاجة الى اتخاذ عضد ومعين ولا سيما هؤلاء المضلين •

ان هؤلاء المستكبرين من أهل مكة انما يصدون فى استكبارهم وطغيانهم عن مبدأ استقر فى أذهانهم ظلما وزورا : هو أن الله من خلقه شركاء ، والاشراك بالله هو أساس البلاء ومبعث الحيرة والاضطراب والضلال : « **ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق** » (سورة الحج آية ٣١) فالمشرك ما دام قد داخله وخالط عقله أن شيئا ما فى الوجود يعادل الله أو له شأن مع الله ، فان ذلك يجره الى تفضيل بعض الناس على بعض ، ويجره الى الاغترار بنفسه ، والزعم بأن له ميزة على من سواه بمقتضى نسبه أو غناه ، أو رياسته وشرفه ، ولذلك انتهزت السورة هذه الفرصة لتضرب الشرك والمشركين وهى تضرب الكبر والمستكبرين ، وعادت الى التحديث عن شأن الآخرة ، فصورت هؤلاء المشركين وقد وقفوا بين يدى ربهم الواحد القهار ، الذى له الأمر وله الملك • وهم فى وقت الشدة أحوج ما يكونون الى عفوه واحسانه

ورضاه ، فاذا هو يقرعهم ويبكتهم ويوسعهم تأنيبا ، ويقول لهم : « **نادوا شركائى الذين زعمتم** » ادعوهم لعلهم يستمعون اليكم ، ويستجيبون لكم، ويخففون عنكم ولو شيئا يسيرا من هول هذا الموقف الرهيب . ادعوهم فطالما دعوتموهم فى الدنيا ، واتخذتموهم أولياء من دون الله ، واستبدلتم أمرهم بأمر ربكم ، ورضاهم برضاء خالقكم . ادعوهم فقد كنتم تدينون لهم فى الدنيا بالتعظيم والاجلال ، وتسيرون وراءهم صما بكما عميا .

يستمع المشركون الى هذا النداء ، يستمع اليه من أشرك مع الله الها آخر ، ويستمع اليه من أشرك هواه وشهوته مع ربه فاتخذ الهه هواه، ويستمع اليه من أشرك المخلوقين مع الخالق فأطـاع العبـد فى معصية المعبود ، ويستمع اليه من عبد الدينار والدرهم فجعل المال غايته ومبلغ ما يريده فى الحياة ، وداس فى سبيله كل أمر من أوامر الله ، وكل معنى شريف أوحى به الله ، يستمع اليه من عبد الشهوة فبـاع دينه وخلقه وايمانه بامرأة أحبها أو عاهر آثرها ، يستمع اليه من باع جاه الله بجاه الدنيا فى الصداقة والولاية فى الحكم والسلطان ، وفى الشهادة والقضاء فى الأمانات ، فى التكاليف . كل هؤلاء يسمعون النداء ، ويقرع آذانهم هذا التبكيت ، ويوجعهم من الله يوم القيامة هذا التأنيب ، فيقال لهم : نادوا شركائى الذين زعمتم ، لأن هؤلاء جميعا قد اتخذوا غير الله شريكا مع الله . والشرك ألوان .

وعندئذ يذهل هـؤلاء المشركون ، ويضطرون الى أن ينادوا فى موقفهم أمام الله الشركاء الذين زعموهم مع الله — فكأنى بمن ينادى : يا هبل — يامناة — ياعزى — يالات — ياشمس — ياقمر . وكأنى بمن ينادى : يامال — يا جاه — يا منصب . وكأنى بمن ينادى : يا فلانة — يا كاس — يا طاس . وكأنى بمن ينادى : يا فلان — يا فلان .

ولكن أحدا لا يستجيب للنداء ، وتتبدد الأصـوات فى الهواء ، ويحال بين هؤلاء جميعا وما يشتهون ، ويجعل بينهم وبين من ينادونهم مهلكا أو حائلا : « **فدعوهم فلم يستجيبوا لهم وجعلنا بينهم موبقا** » . وعندئذ يرى المجرمون النار رأى العين وهى تدعوهم من مكان بعيد ، ويسمعون لها التغيظ والزفير ، فيظنون أنهـم مواقعوها وملابسـوها ومخالطوها ، ولايجدون عنها مهربا ولا مصرفا .

وفى التعبير بقوله : « يظنون » تصـــوير لمبلغ اضطراب هــؤلاء وتمسكهم بالوهم والخيال ، وأنهم حتى فى هذا الموقف يقع فى وهمهم أنهم ربما نجوا ، وان كان أغلب ظنهم أنهم واقعون واقعون ٠

ولا شك أن اليأس كما يقولون احدى الراحتين ، فلو أنهم يئسوا لاستراحوا ، ولكن نفوسهم تسول لهم أنهم بين طرفى هلاك ونجاة ، فيظلوا فى خوف ووجل حتى يرتطموا فى النار وبئس القرار ٠

١٧ ـ قال الله تعالى :

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ
ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن
يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ
سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ
ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟
هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ
عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً
أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ
فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ
لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم
مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ
أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾

معانى المفردات :

جـــدلا :

الجدل والجدال : المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة .

سنة الأولين :

السنة : الطريقة والأمر المتبع . والمراد بسنة الأولين هنا : ما كان يغشاهم من عذاب الله المستأصل .

أو يأتيهم العذاب قبلا :

قرىء : بضم القاف والباء ، وهو على هذا جمع قبيل : أى أصناف العـــذاب نوعا نوعا . وقرىء : بفتح القاف والباء : أى عيانا ومواجهة ، من المقابلة .

ليدحضوا به الحق :

أى ليبطلوه ويزيلوه .

انا جعلنا على قلوبهم أكنة :

الكنان : الغطاء الذى يكن فيه الشىء ، الجمع أكنة .

وفى آذانهم وقرا :

الوقر : الثقل .

لن يجدوا من دونه موئلا :

أى محيصا ومعدلا أو ملجأ .

تصـــريف الامثـــال وطبيعـة التمرد فى الانسان :

لقد ذكر الله ـــ تعالى ـــ قبل هذه الآيات ألوانا من العظات ، ونقل الناس بين الأمثال والقصص والذكريات والأوامر والنواهى ، وما كان فى النشأة الأولى ، ما يكون فى يوم القيامة .

ولهذا قال : « **ولقد صرفنا فى هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الانسان أكثر شىء جدلا** » • أى نوعنا فيه لأصحاب العقول والأفهام جميع أساليب العظة والتعليم والمحاجة والاستدلال ، ولكن من طبائع الانسان أنه يحب الجدل والنقاش ، فهو أكثر خلق الله خصاما وغلابا وأخذا وردا وتعلقا بأسباب المجادلة والمحاورة •

ثم عقب على ذلك ببيان طبيعة التمرد المسيطرة على أهل الكفر فى قديم الزمان وحديثه ، تلك الطبيعة التى تجعلهم يتخـــذون آيات الله هزوا ، ويحسبونها لهوا ولعبا ، فيعاملون الرسل على هذا الأساس ، ويستعجلون بالعذاب الذى وعدهم به تحديا لهم وسخرية بهم •

وقد حدثنا القرآن الكريم عن هذه النزعة ، نزعة البغى والاستهزاء والتكذيب ، فقال عن مشركى قريش •

« **وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا • أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا • أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا • أو تأتى بالله والملائكة قبيلا • أو يكون لك بيت من زخرف • أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربى هل كنت الا بشرا رسولا** » (سورة الاسراء الآيات من ٩٠ ـــ ٩٣) •

استهزاء فاجر يصدر عن نفوس ملتوية وقلوب مكذبة جاحدة ، فهم ينتقلون من تحد الى تحد ، فيطلبون تفجير الأرض عيونا ، أو تمهيدا جنانا ذات نخيل وأعناب تجرى الأنهار خلالها ، ثم يتحولون عن ذلك ويطلبون اسقاط السماء عليهم كسفا ، ويخرجون ذلك فى أسلوب يدل على غاية الاستهزاء والتكذيب اذ يقولون : « **كما زعمت** » يعنون ان كنت صادقا فيما زعمت فهات ما عندك ولو كان فيه هلاكنا ودمارنا •

ومن المعروف أن الانسان لا يطلب هلاك نفسه ودمار دياره وبلاده على الحقيقة ، ولكنهم يطلبون ذلك تحديا وتظاهرا بغاية الأمن والاطمئنان، وأنهم غير عابئين بما يقول ، ولا مصدقين لما يزعم ، ثم يصلون الى الغاية من سوء الأدب ، والنهاية من الطغيان والعتو ، فيطلبون منه أن يأتى بالله والملائكة قبيلا ، كأنهم لم يكتفوا بالسخرية بعباد الله حتى تجرأوا على الله وعلى ملائكة الله . ثم يعودون لما كانوا فيه أولا فيطلبون أن يكون له بيت من زخرف ، أو أن يرقى فى السماء ، على أنه لو رقيها فانهم لا يصدقونه حتى يأتيهم بكتاب منها يقرأونه !!

وحدثنا القرآن عن هؤلاء أيضا بأنهم قالوا فى غمرة من غمرات سخريتهم وتكذيبهم : « **اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم** » (سورة الأنفال آية ٣٢) ومعنى ذلك أنهم واثقون بكذبه ، مطمئنون الى ما هم عليه فى زعمهم !!

وكما قال ذلك مشركو قريش لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال من كان قبلهم من المشركين لأنبيائهم ، فقال أصحاب الأيكة لشعيب: « **انما أنت من المسحرين . وما أنت الا بشر مثلنا وان نظنك لمن الكاذبين. فأسقط علينا كسفا من السماء ان كنت من الصادقين** » (سورة الشعراء آية ١٨٥ — ١٨٧) وقال قوم هود : « **سواء علينا أو عظت أم لم تكن من الواعظين . ان هذا الا خلق الأولين . وما نحن بمعذبين** » (سورة الشعراء آية ١٣٦ — ١٣٨) « **أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين** » (سورة الأعراف آية ٧٠) وقال قوم لوط : « **ائتنا بعذاب الله ان كنت من الصادقين** » (سورة العنكبوت آية ٣٩) .

وهكذا : كلهم سلكوا هذه السبيل الملتوية ، واتخذوا آيات الله ورسله هزوا ، وظنوها لعبا ولهوا . وتلك طبيعة فى أهل العناد واللجاج، لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم ، ولئن أخر الله عنهم العذاب الى أجل هم بالغوه ليقولن : ما يحبسه .

ولا يظنن ظان أن هؤلاء انما كانوا فى عهد الأنبياء والرسل ثم انقرضوا ، فانهم بيننا كثير ، ولهم أفانين خبث ودهاء ، وأساليب مكر واستهزاء لا تقل عن أساليب القدامى من المشركين المكذبين • فمنهم من يقول : ان الأديان ما كانت الا لسياسة الشعوب ، وان الجنة لاغراء الجماهير ، والنار لتخويفهم ، وما الحياة الا سنن مرسومة ، منهاجها القوة وانتهاز الفرصة ، وهيهات بعدها حساب أو عقاب • ومنهم من يقول ـ اذا رغبته فى الجنة أو خوفته من النار ـ : دعنى وليكن مايكون، أحينى اليوم وأمتنى غدا • ومنهم من يقول : ان الفضائل والأخلاق سلوى العاجزين ، ولن تجد قويا يتمسك بها أو يحفل بأمرها ـ وهكذا : من أنواع الفلسفات التى قامت على الانكار ، واتسمت بطابع التكذيب والاستهزاء ، وكثرت فى رؤوس أصحاب الثقافات الدخيلة •

وقد رد الله على هؤلاء المستهزئين المطالبين بالعذاب ، تحديا لرسلهم واظهارا فيما يزعمون لعجزهم ، رد عليهم بأن مهمة الرسل ليست هى الاتيان بالعذاب أو تحقيق ما وعدا الله به ، وانما هى التبشير لمن آمن، والانذار لمن كذب وكفر • والله هو الرقيب الحسيب ، يفعل ما يشاء ، ولكل أجل عنده كتاب ، وان هؤلاء ليقولون ما يقولون جدلا ونقاشا ، يريدون به طمس الحقائق والتغرير بالناس وتصوير باطلهم فى صورة الحق ، وهم من ناحية أخرى مستهزئون ، يتخذون آيات الله وما أنذروا هزوا •

ثم ذكر الله تعالى بعد ذلك هؤلاء الكافرين المكذبين على نحو آخر ، بدأه بتقريعهم وبيان مدى ظلمهم للحق وظلمهم لأنفسهم ، ثم أتبعه ببيان أن هذا صار كالطبيعة والجبلة فيهم ، فلن تغنى عنهم النذر ، ولن تفيدهم المواعظ ولا العبر ، ولن يسمعوا داعى الهدى أبدا •

ذكر الله تعالى ظلمهم فقال : **« ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسى ما قدمت يداه »** يعنى : أنه لا ظلم أعظم من ظلم من جاءته آيات الله بينات ، تناديه بالحق ، وتدعوه الى الهدى ، وتبين

له سبيل الرشاد واضحة جلية • وهو مع ذلك يعرض عنها ، ويشيح بوجهه عن أن ينتفع بها ، وينسى ما قدمت يداه من الذنوب والآثام• والآيات هنا شاملة لآيات القرآن ومواعظه وأمثاله التى ذكرت فى قوله : **« ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل »** وللآيات الكونية التى أقامها الله شواهد بينات على قدرته ووحدانيته وحكمته •

وذكر تعالى انحرافهم عن سبيل الهدى ، وانطباعهم على التكذيب بالحق ومعاداة الداعين اليه فقال : **« انا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا وان تدعهم الى الهدى فلن يهتدوا اذن أبدا »**•

معنى جعل الاكنة على القلوب والوقر فى الآذان وما جاء من أمثال ذلك :

وقديما اختلف الناس فى تفسير مثل هذه الآية : فمنهم من ذهب الى أنها دليل على أن الله تعالى قد يصرف عن الايمان ، ويمنع منه ، ويحول بين القلوب وبينه • ومنهم من يرى ذلك من باب التمثيل ، بيانا لعنادهم والتوائهم عن سلوك سبيل الحق ، فمثلهم كمثل من جعلت قلوبهم فى أكنة ، وثقلت أسماعهم عن السمع فلا يستطيعون سمعا ، وهم اذن لا يجيبون دعوة الداعى الى الهدى ، لأنهم لا يسمعونه ولا يفقهون دعوته ، ويقول هؤلاء : انما يحملنا على القول بذلك أن المعنى الحقيقى الذى يدل عليه اللفظ غير ممكن ، لأسباب منها : أن الله تعالى أنزل القرآن ليكون حجة على الكفار للرسل ، لا حجة على الرسل للكفار ، فلو جاء القرآن يقول لهم : ان الله يمنع بعض الناس عن الايمان لقالوا : لم منعنا ثم ذمنا ؟ وكيف يكلفنا ثم يمنعنا ؟ ومنها أن القوم كانوا يفهمون ويسمعون ويعقلون ، فنفى الفهم عنهم لا بد أن يكون مرادا به غير ظاهره — الى غير ذلك مما يذكرون • وقد أسند الله جعل الأكنة على قلوبهم اليه جل شأنه ترشيحا للتمثيل ، وتقوية لما يراد تصورهم به من المكابرة والعناد والانصراف ، كأنه يقول : ان ذلك قد صار فى طبائعهم الخلقية ، كأنا طبعناهم عليه ، وخلقناهم كذلك بصنع منا كما خلقنا قلوبهم وآذانهم وسائر أعضائهم • فهذا هو السبيل فى كل ما ورد فى القرآن من اسناد أمثال هذا الى الله ، من مثل : **« جعلنا على قلوبهم أكنة »** أو **« جعلنا فى أعناقهم أغلالا »** (سورة يس آية ٨) **« ختم الله على قلوبهم »** (سورة البقرة آية ٧) وقد تقدم ذلك مرارا •

ثم قال تعــالى ختاما لذلك كله : « **وربك الغفــور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب بل لهم موعد لن يجدوا من دونة موئلا** » .

وفى هذا رد بليغ على الذين يتحدون الرسول ، ويطالبون بالعذاب استهزاء وتكذيبا . فلولا أن الله غفور رحيم لآخذهم بذنوبهم ، وعجل لهم ما طلبوا ، وأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، وليس هذا فى قدرة الله بشىء، فللظالمين فى ذلك سابقات ، وقد أخذ الله أقواما بذنوبهم ، فمنهم من أرسل عليهم الصيحة ، ومنهم من قذفهم بحجارة من سجيل ، ومنهم من خسف بهم الأرض ، ومنهم من أغرق ــ كل ذلك فعله بقدرته وحكمته، وجعل لهم أجلا معينا ، فاذا جــاء أجلهم لا يستأخرون عنه ســاعة ولا يستقدمون ــ وهذا هو معنى قوله تعالى بعد هذا : « **وتلك القرى أهلكناهم لمــا ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا** » .

* * *

١٨ ـ قال الله تعالى :

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ
أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا
فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ
ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَـٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ
أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ
وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَـٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ
فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ
ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾

المفردات

أو أمضي حقبا :

الحقب : الدهر والزمان الطويل ، والأصح أنه لا تحديد فيه بعدد من الأيام أو الأشهر أو السنين .

سربا :

السرب : من معانيه القناة التى يدخل منها الماء ، ويقال : طريق سرب (بفتح السين والراء أيضا) أى يتتابع الناس فيه .

نصبا :

النصب : التعب والشدة .

الحوت :

السمك ، وقد غلب فى الكبير منه .

قصصا :

القصص : ارتسام الأثر واتباعه .

قصة موسى وفتاه والعبد الصالح :

هذه قصة مليئة بالعبر ، مشحونة بالفوائد والاشارات النافعة — ولعلنا نوفق الى ذكر بعض ذلك ان شاء الله فى تضاعيف تفسيرنا للآيات التى نتحدث عنها .

ترشد هذه القصة الى خلق كريم لو استقر فى مجتمع من المجتمعات لكان له آثار قوية فى صلاح هذا المجتمع، واستقامة أحواله، ورقى شأنه. ذلك هو ما ينبغى أن يشعر به كل انسان — مهما علا منصبه — من أنه محدود ، فلا يطغيه علمه ولا عقله ولا منصبه ، ولا يحمله شىء من ذلك على الاستكبار والعلو بغير الحق ، ولا يحول بينه وبين طلب الكمال أنى وجد الكمال .

فموسى — عليه السلام — قد رحل فى طلب عبد من عباد الله عرف أن عنده علما لا يعلمه ، ولم يمنعه منصبه — حيث كان نبيا رسولا

بل كليما لله عز وجل — من أن يقف بنفسه عند حدها ، ويطلب المزيد حيثما يجد المزيد •

فائدة ذكر القصة فى هذه السورة :

وقد كان لذكر هذه القصة فى تلك السورة فائدتان : احداهما فى شأن المشركين من أهل مكة ، والثانية فى شأن أولئك اليهود الذين كانوا يؤازرونهم مؤازرة أدبيـــة ، فيمدونهم من يثرب بما يظنون أنه يقلق محمدا ويحرجه ويزلزل عليه •

فأما فائدة ذلك فى شأن المشركين من أهل مكة فقد كانوا — كما هو معروف فى السير والأخبار عامة — يكرهون أن يؤمنوا بهذا الرسول، فيتساووا بهذا الايمان مع ضعفائهم وأرقائهم • وذلك شأن المستكبرين فى كل أمة مع الرسل ، بل مع سائر المنادين بدعوات الاصلاح ، فــان كثيرا منهم يستكبرون عن قبولها ، ويزعمون لأنفسهم حقا خاصا فى أن يلتفت اليهم على نحو خاص ، وأن يعاملوا معاملة خاصــة • واذن فالحديث عن التواضع والرضا بأخذ العلم من أى أفق يسترق منــه نوره يكون له موضعه وتأثيره فى هذا المقام •

وأما فائدة ذلك فى شأن اليهود فانهم كانوا يحسبون أنهم أهــل العلم ، ويفخرون بما عندهم من أنباء الرسل والأقوام الســابقين ، ويحاولون أن يصوروا محمدا أمام العرب بأنه مدع للرسالة — فــاذا قص الله على نبيه قصة من قصص موسى العجيبة كان لذلك أثره فى كبحهم والجامهم ، وكان له تبعا لذلك أثر فى نفوس العرب ، حيث يعلمون أن اليهود أو غيرهم من أهل الكتاب ليسوا هم فقط أهل العلم والمعرفة بما كان •

هاتان فائدتان لانزال هذه القصة فى تلك السورة ، حيث الأمر بين المشركين واليهود على ما وصفنا ، وحيث أرادت السورة أن تضرب بسهم فى علاج ذلك •

والقصة فى ذاتها مبنية على أمر طبيعى : هو أن لكل انسان حدا من العلم والمعرفة ولو كان نبيا مرسلا ، واذا استقر ذلك فى قلوب الناس استراحوا ، ولم يكن هناك داع لاثارة بعض الشبه على ما قد ينقل عن بعض الأنبياء والرسل من أقوال فى غير ما جاء به الوحى فيهـا مخالفة لمـا يراه الناس أو لمـا يقرره العلم .

النبوة لا تستلزم العلم بكل شىء :

بيان ذلك أن النبوة — كما ترشدنا هذه القصة وغيرها — لا تستلزم العلم بكل شىء ، فان النبى ما هو الا بشر ممن خلق الله ، أوحى اليه بقسط من العلم ليعلمه أو ليبلغه . فهو فيما وراء ذلك كسائر الناس ، قد يعلم وقد يجهل ، وقد يصيب وقد يخطىء ، وقد يوجد فى الناس من هو أعلم منه بشأن من الشئون ، فلا يكون ذلك قدحا فى نبوته ، ولا طعنا فى علمه الذى كان به نبيا أو رسولا .

وعلى هذا يجب التفريق بين ما ورد عن النبى — صلى الله عليه وسلم — فى الأمور التى يتبين أنها من الله ، أو بيان لما جاء عن الله مثلا، وبين ما ورد عنه — صلى الله عليه وسلم — فى الأمور العادية ، كما اذا وصف دواء لمرض مثلا فان الشأن فى مثل ذلك ألا يكون عن وحى من الله ، وانما هو عن اجتهاد من النبى ، أو تجربة خاصة ، أو نقل عن غيره، كما يحدث فى العادة بين الناس . وقد رأيت فى الحديث الصحيح أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال ما معناه : **« من اصطبح فى كل يوم سبع تمرات فانه لا يضره سم ولا سحر ذلك اليوم الى الليل »**. وسمعت بعض الناس يحاول أن يتشكك فى سند هذا الحديث ، وبعض الناس يقبل السند ويفوض فى المتن ، كما يفوض المؤمنون فيما لا يدركون معناه ، أو فيما تكون معلوماتهم القاطعة تناقضه . ولكن التشكيك فى السند هنا غير سائغ ، لأنه مروى عن طريق صحيح لا يتطرق اليـه الوهن ، والتفويض فى مثل هذا الموضوع قد لا يستريح اليه كل الناس، وقد يبقى فى نفوسهم الشك وان كان خفيا ، ورأيت مقابل هؤلاء من

يبرهن على أن المعنى صحيح ، ويقول : ان حلاوة البلح أو التمر هى السبب فى تضييع آثار السم أو السحر ، أو أن الكلام عن تمر المدينة وله فى ذلك خصوصية . والحقيقة أن ذلك كله ان استراح اليه شخص فلن يستريح اليه آخر ، وان أقنعنا به مؤمنا بالرسول فلن نستطيع أن نقنع به أولئك الأعداء الذين يتصيدون لهذا الدين بعض ما يظنونه عيبا، ليحملوا عليه بذلك حملاتهم الشعواء ، ويشككوا فيه أبناءنا وأبناءهم ، صدا عنه ووضعا للعراقيل فى سبيله .

وعندى أن الأمر لا يستدعى ذلك كله ، فهذا شأن ليس من شئون الدين ، والرسول لم يخبر به فى سياق يدل على أنه من عند الله ، وانما قاله كما قال فى أمر النخل : « لو تركتموه لصلح » أو لعله جرب فائدة ذلك ، أو سمع به من أحد الذين جربوه فيما نسميه : سما . وليس هو السم القاتل المميت ، وانما هو تأثير بعض المأكولات ــ مثل المملحات أو الحريفات ، كما يقول العامة : ان الليمون اذا عصر على كذا فانه يكسر سمه : أى يطفىء حدته ، ويخفف ضرره الذى يوجد فى طبعه ــ فلعل التمر يفعل مثل ذلك فى تخفيف ضرر الطعام اذا أخذ صباحا قبل تناول شىء . أما تأثيره فى منع السحر فلعل المراد به أنه يمنع ما عسى أن يلحق بالانسان من فتور وكسل فى يومه ، يبدو معه معتل المزاج ، خائر القوة ، ضعيف النفس ، كأنه مسلوب أو مصاب بالسحر .

ومهما يكن من شىء فلا يعدو الأمر فى مثل ذلك أن يكون تجربة علمها الرسول على مثل هذا النحو الذى ذكرناه ، أو سمعها ممن جربها على مثل ذلك . فان كانت صوابا فذاك ، وان كانت خطأ فليس يعيب الرسول مثل ذلك الخطأ ، لأنه ليس فى الدين عقيدة أو شريعة . وانما هو فى شأن من شئون الناس ، ليست موافقته للواقع بذاتها دليلا على نبوة النبى ، وليست مخالفته للواقع بذاتها دليلا على بطلان دعواه النبوة .

وأقول هذا وما أريد به الا أن يكون مثالا لما يراه العلماء من التفريق بين ما يلزمنا اتباعه واعتقاده والعمل به وما لا يلزمنا فيه ذلك.

فلنفرق بين ما به تكون الرسالة ، وما يكون من الرسول أو لا يكون باعتباره بشرا كسائر الناس .

بعض ما يفيده اللفظ والاسلوب فى هذه الآيات :

بعد هذا أحب أن ألفت الى بعض المعانى التى ترشد اليها الآيات، سواء فى ألفاظها أو تركيبها ، فان من خصائص القرآن أن من يتأمل فى عباراته وتراكيبه يوقفه الله على فوائد جمة فوق ما يفيده من علم فى الغرض الذى سيق له الكلام . فمن ذلك ما يوحى به التعبير بقوله تعالى: « **واذ قال موسى لفتاه** » وأقصد التعبير بكلمة « الفتى » فى هذا المقام ، فان المعروف عن الفتى أنه الشاب فى قوته وميعة صباه ، وقد جاء فى القرآن الكريم بهذا المعنى فى قوله تعالى عن أهل الكهف : « **انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى** » وقد فسرنا تلك الآية ولفتنا الى ما يرشد اليه التعبير « بالفتية » فيها من أن الشباب فى العادة هم عماد الاصلاح وسناد الخير والبر ، على كواهلهم تحمل التبعات ، وبسواعدهم تتم الصالحات ، اذا صلحوا واستقاموا ، وحفظت قواهم بنية خالصة لله والدين والوطن . وقد جاء التعبير بالفتى على هذا المعنى أيضا فى القرآن الكريم عن ابراهيم — عليه السلام — حيث يقول جل شأنه حكاية عن أهل الأوثان : « **قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم** » (سورة الأنبياء آية ٦٠) وقد كان ابراهيم ممتلئا بالفتوة : فتوة الشباب والعقل والعلم حين ثار على الأصنام ، وعلى عابدى الأصنام من دون الله ، وحين دعا قومه الى الحق ، وحاجهم فى ربه ، وناقش أباه ثم اعتزاله — كما اعتزل فتية الكهف قومهم حين رأوهم متمسكين بالباطل ، لا يريدون أن يحيدوا عنه — ثم حطم الأصنام ، وأحدث فى أمرها رجة فى قومه وزلزالا شديدا.

التعبير عن التابع بالفتى :

أما التعبير « بفتاه » فى الآية التى نحن فى تفسيرها فليس من هذا القبيل ، وانما هو تعبير على سبيل الكناية ، فقد جرت عادة العرب أن يستخدموا فى أعمالهم وشئونهم فتى جلدا يستطيع أن يقــوم بها ، ويصبر على متاعبها ، ويؤديها أداء حسنا وهم لذلك يعبرون عن التابع الخادم بكلمة « الفتى » فيقولون : هذا فتاى • وهو تعبير كريم يؤثره القرآن حين يذكر الخدم والأتباع ، فلا يسميهم خدما ، ولا يعبر عنهم بعبارة فيها ايلام لهم ، ولكنه يسميهم : « بالفتى والفتيان والفتيات » ومن ذلك قوله تعالى : « **وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم فى رحالهم** » (سورة يوسف آية ٦٢) المراد لخــدمه وأعوانه ، وفى آية أخرى : « **ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء أن أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا** » (سورة النور آية ٣٣) وفى آية أخرى « **فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات** » (سورة النساء آية ٢٥)

وفى هذا التعبير ارشاد كريم الى ما يجب علينا من الرفق والتلطف فى معاملة من نملك من عباد الله ، خدما كانوا ، أو أتباعا وعمالا وأعوانا• فقد ألفنا أن نخاطب هؤلاء بألفاظ بذيئة ، فننعتهم بأقبح الصفات ، ونسبهم ونضربهم ، ولا نشعرهم بأنهم أناس مثلنا ، وانما يخيل الينا أنهم دواب لمجرد حمل الأثقال وقطع المسافات وقضاء الحاجات ليس الا• وترى الواحد منا يتمتع بأن يقول له الخادم : « يا سيدى » واذا أراد أن يشترى شيئا لخادمه اشتراه من أحط صنف ، وقال للبائع على مسمع منه : هذا للخادم أو للخادمة ، كأنه يتلذذ بايلامه وجرح كرامته ، وليس هذا من أدب الدين • فقد روى أنه — صلى الله عليه وسلم — قال : « ليقل أحدكم : فتاى وفتاتى ، ولا يقل : عبدى وأمتى » • وقد سمى — عليه الصلاة والسلام — الخدم والخول — أى الأعوان — اخوانا ، فقال : « اخوانكم خولكم » وقال فى تعبير عاطفى رحيم : « فمن جعل الله أخاه تحت يده » الخ ، ونهر — صلى الله عليه وسلم — أحد أصحابه حين عير رجلا بسواد أمه ، فقال له — صلى الله عليه وسلم — : « انك امرؤ فيك جاهلية » والاسلام يأمر بعتق العبد الذى يمثل به صاحبه أو يسىء عشرته • فانظر الى هذه الآداب الاسلامية العالية ، وكيف يصل

الأمر فيها الى اختيار لفظ لطيف مهذب فى التعبير عن العبد والخادم ، هو لفظ الفتى •

قوة العزيمة :

فهــذا معنى مما يوحى به التعبير واللفظ فى الآية ، ومن ذلك ما يوحى به التركيب فى قول موسى لفتاه : « **لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقبا** » فان معناه : لا أزال سائرا ، ولا أبرح ماشيا حتى أصل الى مقصودى ، ولو سرت حقبا ومضيت أزمانا •

وفى هذا معنى العزم والتصميم وقوة الارادة ، حيث يجعل الانسان لنفسه بغية ، ويرسم له مقصدا ، ثم يسير اليه لا يلوى على شىء ، ولا يلتفت يمنة ولا يسرة ، ولا يعوقه عنه عائق ، ولا يهتم فيه بتعب ولا نصب • وتلك لعمرى أخلاق الرجولة وعزيمة أهل الايمان ، وكثير من الناس يقتنع بالعمل ، ويؤمن بأنه خير وصواب ، ومع ذلك لا ينشط لعمله ، ولا يتحرك للقيام به وتنفيذه ، ولكن يسوف ويؤجل حتى تفوته الفرصة ، وتصبح فى نفسه ألمــا وغصة • وانى لأعرف من هذا الصنف أشخاصا تسمع لهم فى مجال القول حديثا معسولا ، ومشروعات خلابة ، وخططا يخيل اليك معها أنهم مثال للحزم والعزم ، عن علم وبصر وبحث ودرس • ولكن الأيام تمر والليالى تكر ، ولا تزال مشروعاتهم فى ضمير الغيب وظلام الأحلام ، لا تطلع عليها شمس ، ولا يمر عليها نسيم • وما ذلك الا لأنهم يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم ، ويتباهون بالقول دون العمل ، وقد جربت فى نفسى أن أى عمل من الأعمال ــ مهما كان ثقيلا ومهما كان طويلا ــ ينتظم أمره اذا صحت النية على الاضطلاع به ، ومعالجة أمره ، وأخذ المرء فى تنفيذه على سبيل التدرج • فليس على العزائم الصادقة صعب ، وليس فى قاموس العاملين المجدين مستحيل ، ولكن النفوس تكبو كما قد يكبو الجواد ، والعقول تخبو كما قد يخبو المصباح •

فهذا المعنى يجب أن نستحضره دائما ، وأن هذه الجملة على قصرها لتمثل لنا موسى — عليه السلام — وهو مشمر عن ساعد الجد ، وفى عينيه بريق العزم وقوة التصميم ، وهو يقول لفتاه : هيا بنا ، لنسر فى طريق غايتنا حتى نحققها ، ولو تحملنا فى ذلك ما تحملنا ، وسرنا فى سبيله الأزمان والأحقاب .

الرحلة فى سبيل العلم :

ومعنى آخر أود أن ألفت اليه هنا أيضا : ذلك هو شأن الرحلة فى سبيل العلم ، فهذا هو موسى يرحل ، ويترك بلاده ومسكنه وقومه ، ليطلب العلم . والرحلة لطلب العلم ، والتزود بالمعرفة مقصد شريف لا يرتقى اليه الا أصحاب النفوس الحية ، وقديما كان رواة الحديث يسافرون من بلاد الى بلاد ، ويقطعون آلاف الأميال ، ويتزودون بالزاد والمال ، أو بالصبر والاحتمال ، حتى يصلوا الى عالم فى زاوية من زوايا بلد صغير فيسمعوا رواية يرويها ، أو يفقهوا منه مسألة يخرجها ويدريها ، ولذلك زكا العلم ونما ، وبارك الله فيه ، وبارك حوله !!

والأمم الحية فى عصرنا الحاضر تعنى بالرحلات العلمية أو الكشفية أو السياسية ، وتجعل لها حسابا فى أموالها ، وتنفق عليها بسخاء وما ذلك الا لقيمتها التعليمية والتهذيبية .

والآيات الكريمة تتضمن بعض نواحى الأدب المتصلة بالرحلة والرفقة فيها : ذلك أن موسى — عليه السلام — كان هو صاحب الرحلة ، واليه تعود المصلحة فيها ، فهو الذى رسمها واستصحب فتاه اليها ، فكان منه العزم والتصميم ورسم الخطة ، وكان من فتاه المطاوعة والقبول والمشاركة فى التنفيذ . وهذا هو الشأن الطبيعى فى التابع والمتبوع ، ولذلك كان التعبير عن ذلك بضمير المفرد الراجع الى موسى: **« لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقبا »** ولم يكن التعبير : لا نبرح حتى نبلغ أو نمضى . فلما انتقل الأمر الى التنفيذ وقصته جاء التعبير بضميرهما معا ، وذلك قوله تعالى : **« فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما » « فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا**

هذا نصبا » لأنهما أصبحا رفيقين ، يسيران معا ، ويأكلان من طعام واحد ، وينزلان معا ، ويرحلان معا ، وقد لقيا التعب والنصب معا ، ورجعا حين رجعا معا ، ووجدا العبد حين وجداه معا — وكل هذا يؤذن بأن الفروق بينهما — وهما فى الرحلة — قد ارتفعت ، فأصبح التعبير عنهما بضميريهما فى نواحى تصرفهما • وذلك أدب من آداب السفر ، أو كما يقولون فى العصر الحاضر : من آداب الكشف ، حيث يشعر أفراد الفرقة جميعا بأنهم كشخص واحد ، لا فرق بين كبير وصغير •

ولم يقل موسى لفتاه : آتنى غدائى فقد لقيت من سفرى هذا نصبا ، لأنه اعتبره زميله فى السفر ، فقد تعب مثله ، واحتاج الى الطعام مثله ، وله حق مشاركته فيه ومجالسته عليه •

ولم يقل الفتى لموسى : فانا نسينا الحوت ، ولكن قال له : فانى نسيت الحوت ، فنسب النسيان لنفسه مع أنه واقع منهما جميعا ، تأدبا منه فى الخطاب ، وشعورا بأن المسئولية فى ذلك عليه هو دون متبوعه •

وقال الفتى : وما أنسانيه الا الشيطان أن أذكره • وهو أدب مع الرب الأعظم ، ولفتة من القرآن الكريم بارعة لبيان سبب النسيان ، والوقوع فى مظاهر الغفلة ، وهو التلهى ، وتعلق القلب بمصدر الوسواس ، والتشتيت الذى سببه الشيطان •

فهذه بعض المعانى التى ترد على الذهن اذا تأملنا فى الآيات لفظا وتركيبا ، عنيت بها أكثر من عنايتى بما هو مشهور ومعروف مما يدور على ألسنة المفسرين ، محاولة لزيادة النفع ، ولفتا الى ما فى الكتاب الكريم من أسرار •

من هو موسى المذكور فى القصة :

اختلف المفسرون — أولا — فى موسى الذى ذكر فى هذه القصة : **فمنهم من يرى انه موسى بن عمران النبى المرسل الى بنى اسرائيل** بالتوراة ، وصاحب المعجزات الظاهرة • ومنهم من يقول : **انه موسى ابن ميشا بن يوسف بن يعقوب** •

وأكثر العلماء على الرأى الأول ، وهو صحيح فيما أرى ، وقــد أيده القفال بمعنى مقبول : هو أن الله ــ تعالى ــ حينما يذكر موسى فى أى موضع من كتابه فانما يريد به موسى بن عمران ، وهو المشهور المعروف •• فلو أراد شخصا سواه اسمه موسى لبينه بوصف أو أوصاف تميزه عن موسى المعروف المشهور ، وحيث لم يميزه بوصف خاص فان ذلك دليل على أنه موسى بن عمران المعهود ، وذلك كما يقول القائل : قال أبو حنيفة كذا ، فان هذا انما يراد به أبو حنيفة صاحب المذهب المعروف وهو النعمان ، فلو أراد القائل شخصا آخر اسمه أبو حنيفــة لميزه بوصف أو علامة ، كأن يقول مثلا : أبو حنيفة الدينورى •

ومن هو فتاه :

واختلفوا أيضا فى فتى موسى : فمنهم من يقول : انه كان يوشع ابن نون ومنهم من يقول : انه أخو يوشع • ثم اختلفوا : أكان فتاه تلميذا له ، أو تابعا عبدا • وليس فى القرآن دليل على أنه يوشع أو أخوه أو عبد موسى •• غير أن اللغة تحتمل أن يقال عن التلميذ فتى • وعن العبد فتى • والأخير أقرب احتمالا •• وآيات القرآن الكريم فى غير هذا الموضع تعبر عن العبد بالفتى ، والعبيد أو التابعين بالفتيان ، والاماء بالفتيات كما أوضحنا ــ فهذا اذن هو الأقرب قبولا •

سبب القصة :

أما سبب القصة فقد ورد فى الروايات عنه أمور متعددة ، تدور كلها حول الافادة بأن موسى عليه السلام قد ظن أنه أوتى من العلم ما لم يؤت أحد فى عصره،فأراد الله أن يعلمه أن فى عباده من هوأعلم منه•

وليس فى القرآن ما يدل على تأييد رواية من هــذه الروايات بتفاصيلها التى ذكروها ، وكل ما يشعر به أن الله ــ سبحانه وتعالى ــ أراد أن يعلم موسى علما لم يكن يعلمه ، فأوحى اليه ، أو ساق اليه من رغبه فى أن يرحل هذه الرحلة ، وجعل له علامة معينة على الموضــع المقصود منها ، الذى سيلقى فيه من يعلمه هذا العلم • ويلمح هذا من قوله فى القصة :« **ذلك ما كنا نبغ** » والقرآن الكريم ليس من عادته أن يعنى بالتفاصيل التى لا تقدم ولا تؤخر فى الموضوع كما بينا مرارا •

هذا ما يتعلق بحواشى القصة وبعض ما ذكر من مقــدمات فى تفسيرها •

موضوع القصة كما دلت الروايات :

أما الموضوع نفسه فقد وردت فيه روايات وأحاديث خلاصتها : أن موسى وفتاه لمــا رحلا كان معهما حوت : أى سمكة كبيرة ، فى مكتل : أى زنبيل من خوص ، فلما بلغا مجمع البحرين طفرت السمكة الى البحر• وقد ذكروا فى كيفية طفرها روايات : فمن ذلك أن الفتى كان يغســل السمكة لأنها كانت مملحة ميته ، فأحياها الله ، فطفرت وسارت • ومن ذلك أنها تحــركت فى نفس المكتل وطفرت الى البحــر • وفى بعض الروايات أنهما : لمــا بلغا مجمع البحرين — وفيه الصخرة وعين الحياة التى لا يصيب ماؤها ميتا الا حيى — وضعا رأسيهما على الصخرة فناما، فلما أصاب الحوت برد الماء ردت اليه الحياة ، وقد كانا أكلا منه ، وكان ذلك بعد ما استيقظ يوشع عليه السلام • وقيل : توضأ — عليه السلام — من تلك العين ، فانتضح الماء على الحوت فعاش ، فوقع فى الماء ، فاتخذ سبيله فى البحر سربا : أى مسلكا فى الماء كالسرب •• الى آخر ما ذكروه فى ذلك ، ونصوا على أنه معجزة لموسى أو للخضر أو لهما معا •

رأيى فيما تفيده تلك الروايات :

ولا شك أن بعض هذه الروايات صحيح رواه البخارى وغيره ، ولكنها تأتى بتفاصيل لم يأت بها القرآن ، فهى زيادة عليه ليست متعلقة بأمور عملية تشريعية حتى يجب التعويل عليها والعمل بها ، كمــا هو الشأن فى أخبار الآحاد التى يؤخذ بها فى الأحكام ، وانما هى متعلقة بهذه التفاصيل الخبرية القصصية ، فمن رأى الاكتفاء بماء جاء به الكتاب الكريم فليس بضاره ذلك فى عقيدته وايمانه ، ولا يقال : انه رد حديثا صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكنه توقف فى اعتقاد مضمونه، لأنه لا ينهض فى تكوين العقيدة الا ما ثبت يقينا لا ظنا • ثم ان هــذه التفاصيل التى جاءت بها تلك الروايات موضع للنظر من وجوه :

فمن ذلك أن يقال : اذا كان الفتى يغسل السمكة فتطفر منه فى البحر وهى ميتة مملحة ، أفلا يلفت ذلك نظره ويذكره ؟ ! وكيف ينسى مع هذا الحادث ويقول لموسى بعد أن غادرا المكان ومضيا فى طريقهما : « انى نسيت الحوت » ؟ ! وهل يقال فى مثل هذه الحادثة : « انى نسيت»، والفرض أن الحوت قد حيى بعد أن كان ميتا ، وطفر من المكتل ، وسار فى البحر ، والمفسرون يوردون هذا النقد ، ويحاولون الرد عليه بأن الفتى كان قد أبصر كثيرا من المعجزات لموسى ، فلم يعد يتأثر بها ، ولم يبق لها فى نفسه وقع عظيم، فجاز حصول النسيان. أو أن الله تعالى قد أزال عن قلبه هذا العلم الضرورى ليدلهما على أن العلم لا يحصل الا بتعليم الله. وكل هذا لا يقبل بسهولة ، ولا ضرورة للقول به فى تفسير هذه الآيات — وسنرى فى تفسيرها أن الأمر غير محتاج الى ذلك .

ومن ذلك أن يقال : ان ظاهر القرآن يفيد أنهما نسيا الحوت ، فاذا كانت هذه الحادثة — وهى حياة الحوت — قد حدثت ولم يرياها — كما هو ظاهر من الكلام — فلماذا اذن أحيا الله الحوت ، وجعله يسلك سبيله فى البحر على هذا المنوال العجيب ؟ ! ومن الذى يريد الله هدايته بهذه المعجزة ، والفرض أن أحدا لم يرها ولم يتعظ بها ؟ !

ان المعجزات أمر مسلم ، ومن أنكره فقد أنكر معلوما من الدين وكذب القرآن . هذا أمر لا شك فيه . ولكن يجب أن يفهم أن المعجزة هى الأمر الخارق الذى يحصل على يد نبى مقرونا بالتحدى ، فهل حصل هذا هنا ؟ لم ير موسى السمكة حتى طفرت ، ولم يرها فتاه — كما هو واضح فى القرآن — بدليل نسيانهما أمر الحوت ، وطلبهما له بعد تذكرهما اياه ليأكلاه . ومن قال : ان هذه الحادثة قد مرت بموسى أو بفتى موسى وعلماها ، ومع ذلك نسياها ، وطلبا الحوت الذى طفر وهرب فى البحر واتخذ سبيله فيه ، طلباه ليأكلاه . من قال ذلك فكأنه قال : ان موسى وفتاه قد بلغ بهما السهو والذهول حدا غير معهود فى أصحاب

العقول العادية فضلا عن نبى وصاحب نبى ، وكما أن موسى وفتاه لم يريا هذا الحادث فليس فى القرآن ولا فى الروايات ما يدل على أن أحدا رآه •• فما هى الفائدة فيه اذن ؟ ! وأين التحدى أو ظهور الخارقة ما دام صاحبها لا يعلمها ، وليس فى الناس من علمها ؟ ! •

بقى أن يقال : ان القرآن قد جاء بذلك ، فيكفى هــذا ، ويجب التصديق به ، والا كان ذلك تكذيبا للقرآن •

نعم قد يقال هذا ، ولكنى أقول لمن يقوله : على رسلك ، فــانى سأوفيك برأيى فى تفسير الآية ، ثم ننظر هل تفيد ذلك أو لا تفيد ؟ •

ومن ذلك أن يقال : ان الروايات التى تذكر شأن حياة الحــوت وانطلاقه فى البحر ، بعضها يذكر أن ذلك حدث وهما نائمان • وفى هذا دليل على أنهما لم يرياه حين حيى ، وأنهما نسيا وسارا فى طريقهما بعد استيقاظهما من نومهما ، فيأتى الكلام الذى قلناه من أن المعجزة لم تظهر لأحد • وبعض الروايات يذكر — كما قلنا — أن الفتى شهد حياة الحوت ، وانطلاقه وهو يغسله ، وذهابه فى البحر ، وأنه بعد ذلك نسى فلم يذكر ذلك لموسى ، لتعوده رؤية المعجزات ، وعلى هذه الرواية يكون انفلات الحوت قد حصل أولا ، ثم حصل النسيان بعد ذلك • ولكن القرآن يقول : « **نسيا حوتهما فاتخذ سبيله فى البحر** » والفاء تدل على الترتيب •• فاذن حدث النسيان أولا ، ثم اتخاذ الحوت سبيله فى البحر ثانيا ، وهذا ينافى ما ذكر فى الرواية من العكس •

وبذلك يتبين ما فى هذه الروايات التى عنيت بما لم يعن به القرآن من التفاصيل •

ما يفهم من القرآن فى هذه القصة :

بعد هذا ننظر فيما يدل عليه القرآن ، لمن أراد أن يكتفى به ، ولا يتجاوزه الى تلك الزيادات التى جــاءت بها الروايات الآحادية ، والطريق الى ذلك واضح لا تعقيد فيه ولا اضطراب • اذ يقال : ان موسى رحل هو وفتاه ، حتى اذا بلغا مجمع البحرين أويا الى صخرة فمكثا عندها ماشاء الله أن يمكثا ، وكان معهما حوت لا ندرى : هــل

أحضراه معهما ، أو اصطاداه فى أثناء رحلتهما ، أو اشترياه من أحد صادفهما ؟ فلما بارحا الصخرة ماضيين فى طريقهما نسيا حوتهما .

كان الحوت حيا فنسياه فاتخذ سربا وصل منه إلى البحر

ويفهم من قوله : « **فاتخذ سبيله فى البحر سربا** » أنه كان حيا لم يمت بعد ، وهذا كثيرا ما يحدث ، وليس عجيبا أن يشترى المرء حوتا وهو فى طريق قريب من البحر ، فيصادف أن يكون هذا الحوت حيا ، ويصادف أن ينساه فى مكان يجلس فيه ، قاصدا أن ينال قسطا من الراحة ، وأن يضطرب هذا الحوت الحى ، فيتحرك الى سرب : أى قناة يدخل منها الماء ويوصل الى البحر ، فيتخذ هذا السرب سبيله الى البحر، فيمضى فيه عائدا سيرته الأولى فى الماء .

وعلى هذا يكون الضمير فى قوله : « فاتخذ سبيله » للحوت ، **ويكون قوله : « فى البحر » بمعنى الى البحر : أى فاتخذ الحوت سبيله** الى البحر قناة تسرب فيها حتى وصل اليه . فاذا قيل : وهل ترد « فى » بمعنى « الى » قلت : نعم ، فانها وردت بمعنى « على » فى قوله تعالى: **« ولأصلبنكم فى جذوع النخل »** (سورة طه آية ٧١) وقد **تفسر فى هذا الموضوع بمعنى « الى » أى ولأصلبنكم رابطا** اياكم الى جذوع النخل ، فانه يقال : ربطته الى جذع النخلة ، وربطه الى سارية المسجد . فلما كان الصلب يتضمن **الجاء الجسم المصلوب الى الجذع وربطه به جاز أن يفسر الحرف** بحرف يدل على ذلك . والنكتة كما ذكر البلغاء هى التى ذكرت فى تفسير « فى » بـ « على » أى ما فى معنى الظرفية من التمكن ، فيقال فى آيتنا : انما عبر بقوله : « فى البحر » دون قوله : « الى البحر » ليدل على سرعة انبعاث الحوت ووصوله الى البحر ، حتى كأنه اتخذ سبيله فى البحر لا فى السرب — باعتبار السرعة — أو ليدل على أنه بمسيره فى السرب كأنه سائر فى البحر ، لاتصال السرب بالبحر ، واعتبار انفلات الحوت فيه كأنه انفلات فى البحر نفسه باعتبار اتصالهما .. وهذا كما يقول القائل فى سمكة انفلتت من يد ممسكة بها ، فسقطت على الأرض

قريبة من البحر : لقد سقطت فى البحر ، اما باعتبار سرعتها فى الوصول اليه ، أو باعتبار قربها منه ــ وذلك من باب تصوير ما هو متحقق الوقوع واقعا كما يقولون •

واذن فالمعنى : اتخذ الحوت الذى لم تكن الحياة قد فارقته بعد سبيله الى البحر قناة متصلة بالبحر ، فلما جاوزا هذا المكان قال لفتاه : آتنا غداءنا •• الخ : أى آتنا الحوت كى نعده وننضجه ، وهذا أيضا شىء يحدث كثيرا للمسافرين فى رحلة كهذه ، فانهم قد يعدون غداءهم قبيل تناوله على هذا النحو ــ وحينئذ تذكر الحوت ، وتبين له أنه قد نسيه ، فذكر له ذلك ، واعتذر عن هذا النسيان بأنه من الشيطان ، واتخذ سبيله فى البحر يعجب عجبا من هذا النسيان !! فقال له موسى : ذلك ما كنا نبغ ، فان هذه هى العلامة التى أترقبها ، فارتدا على آثارهما يقصانها قصصا ويتتبعانها تتبعا •

الذى اتخذ سبيله فى البحر متعجبا هو الفتى

وعلى هذا يكون الضمير فى قوله : « **واتخذ سبيله فى البحر عجبا** » لفتى موسى • وانما كان هذا سبيلا للفتى لأنه هو الذى نسى ، وهو المكلف بالحفظ ، وبالعود لما نسى ليستحضره • فالفتى قال لموسى : انه نسى الحوت ، وقفل راجعا يظن أنه سيدركه فيحضره ، ولكن موسى لم يتركه ، فعاد معه ، لأنه عرف الموعد والعلامة فرجعا معا • فاذا قيل : وما معنى اتخاذ الفتى سبيله فى البحر ؟ وهل كان الفتى فى البحر أو كان فى البر ؟ قلنا : ان البحر ليس اسما للماء ، وانما هو اسم للمجرى الواسع الذى فيه الماء • فلنا أن نفهم أنهما كانا يمشيان على ساحل البحر القريب من مائه ، فانه لا مانع من أن يقال لمن مشى على الساحل المجاور للماء على حافة المجرى : انه فى البحر • ويؤيد ذلك أنهما كانا قبل ذلك يستريحان الى صخرة ، والشأن الغالب أن تكون الصخور بجوار الماء على ساحله الملاصق ، والظاهر أن موسى كان يتوقع أن يجد طلبته بجوار البحر حسب العلامة التى جعلت له •

هذا هو الذى يفهم من الآيات اذا قطعنا النظر عن الروايات ، والله أعلم •

١٩ ـ قال الله تعالى :

فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ
رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ
هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ
إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ
مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ
صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا
تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾

معانى المفردات :

عبدا من عبادنا :

لم يسم القرآن هذا العبد ، ولكن جاء فى الأحاديث الصحيحة أن اسمه « الخضر » أو « خضر » وقيل : بل « الخضر » لقبه ، واسمه « بليا بن ملكان » وكنيته « أبو العباس » .

وقد أحيط اسم « الخضر » بحكايات وروايات وآثار كثيرة ، وتحدثوا فى كونه باقيا الى الآن ، ثم الى يوم القيامة ، أو مات كغيره من الناس ، حتى قال بعضهم : انه يمر بمن يتذكره ويقرئه السلام ، ولذلك يجب رد السلام عند تذكره .. الخ .

قال الحافظ ابن كثير : ولا يصح شىء من ذلك ـ الى غير ماجاءت به الأحاديث الصحيحة من اسمه ـ وحسبنا أن نعلم أنه عبد من عباد الله ، علمه الله علما خاصا كما سيجىء .

رحمة من عندنا :

الرحمة من الله ـ سبحانه وتعالى ـ انعام وافضال ، وقد وسعت كل شىء من خلقه جل وعلا ، فما من مخلوق الا وعليه أثر من آثارها ولو تخلت رحمة الله وعنايته عن شىء من الأشياء ـ آدميا أو غيره ـ طرفة عين لهلك والتحق بالعدم . ولله رحمة عامة هى هذه التى عمت جميع الكائنات ، باعطاء كل شىء خلقه ، وهدايته وتوفيقه لما يصلحه ويبقى عليه ويؤدى الغاية المرجوة منه . ورحمة خاصة ومنها المواهب التى يختص بها من يشاء من عباده، كاختصاص بعض الناس بالعلم ، وبعضهم بالرأى ، وبعضهم بحسن التدبير ، وبعضهم بالقدرة على الاختراع والانشاء الى غير ذلك .

وفى الكتاب الكريم ذكر للرحمة العامة فى قوله تعالى : « **ورحمتى وسعت كل شىء** » (سورة الأعراف آية ١٥٦) وفيه أيضا ذكر للرحمة الخاصة فى قوله تعالى : « **يختص برحمته من يشاء** » (سورة آل عمران آية ٧٤) والرحمة فى الآية التى معنا هى رحمة خاصة آتاها الله لهذا العبد الصالح ، فكانت له مزية ، وكان له بها

فضل ، واستحق بها أن يرحل اليه نبى من أنبيائه تعالى !! ويدلنا الكلام على أن هذا العبد كان مكلفا بأنواع من التكليف غير ما ألفه الناس فى التكاليف ، وأنه قام بها حق القيام بتأييد الله وتوفيقه.

من لــدنا :

عند ولدن : ظرفان للمكان ، والله ــ جل علاه ــ منزه عن المكان، غير أن هذا التعبير يراد منه صدور الرحمة والعلم عن الله .

ولدن ــ كما قلت فى تفسير قوله تعالى **« لينذر بأسا شديدا من لدنه »** ــ أخص من (عند) وأقوى فى افادة المعنى ، لدلالتها على تمكن الصدور عمن أضيفت له . والغرض هنا افادة أن هذا العلم الذى علمه الله للعبد الصالح هو علم له خصوصية وتمكن ، فليس هو العلم المعتاد الذى يحصل عليه الناس ، وانما هو علم ممتاز غير مألوف صادر عنه تعالى مباشرة .

مرشــدا :

الرشد خلاف الغى ، وكل علم اهتديت به الى خير ، ونفعك فى دينك أو دنياك فهو رشد . وقد قابل الله بين الضدين فى قوله : **« قد تبين الرشد من الغى »** (سورةالبقرة الآية٢٥٦) مريدا بهما الايمان والكفر . وسمى بلوغ اليتامى حد التصرف واحسـان التدبير « رشدا » حيث يقول : **« فان آنستم منهم رشدا فادفعوا اليهم أموالهم »** (سورة النساء الآية ٦) والرشد فى الآية التى نفسرها صادق بما يفيده المرء من علم دينى أو دنيوى مطـابق للصواب والهدى .

خبرا :

الخبر ــ بضـم الخاء ــ : علم الشىء عن تجربة ، والخبر ــ بفتحها ــ : هو ما ينقل ويتحدث به ، ومن كلام العرب (صدق الخبر الخبر) أى أثبتت التجربة والمشاهدة صدق الخبر المسموع.

والمعنى فى الآية التى معنا : وكيف تصبر على شىء لم تحط بأسبابه والبواعث عليه خبرا ، ولم تعلمه علم تجربة ، وذلك لأن موسى عليه السلام انما علم نوعا من العلم يختلف عن النوع الذى علمه من العبد الصالح •

بعد أن عرفنا معانى هذه المفردات يسهل علينا ادراك الكلام كله وفهم المراد منه ، فهو فى غاية الوضوح والافادة ، ولعمرى أنه ليس بحاجة الى تفسير •

عبد مشمول برحمة من الله ، مزود بعلم من لدنه :

ولكنى أنبه الى بعض المعانى التى تدل عليها هذه الآيات فأقول :

١ ــ ان الله سبحانه وتعالى دلنا فى أول الكلام على أن هذا العبد الذى لقيه موسى وفتاه مشمول برحمة من الله ، معلم علما ممتازا من لدنه ليس للناس عهد به ، فانما ألف الناس الظواهر وكلفوا بها كما هى • ومن رحمة الله ونظام الدنيا أنه لم يكلف عباده بمثل ما كلف به العبد الصالح ، فيما ستعرض هذه القصة له ، ولو كان كلفهم بذلك لشق عليهم ولما استقامت الدنيا على النحو الذى أراده الله لها ، وانما أراد الله ــ تعالى ــ أن يعلمنا أن هناك أسرارا له فى خلقه ، وأن ما قد يبدو نكبة من النكبات فى ظاهر الأمر قد يكون فى الحقيقة نعمة من النعم ، وأن الله تعالى قد احتفظ بسر ذلك ولم يعلمه لسائر الناس لحكمة جليلة : هى أن يسيروا على طبيعتهم ، ويتصرفوا فى الأمور بفطرتهم ، ويعتمدوا فى نفس الوقت على الله الخالق للأسباب ، المحكم للسنن ، معتقدين أن وراء علمهم علما ، ووراء تصرفهم وقدرتهم تصرفا وقدرة وحكمة قد تخفى عليهم ، وقد تظهرها الأيام والأحداث• وما منا الا من يعلم أنه قد مرت به فى حياته ظروف يتمنى فيها شيئا على أنه غاية أمله ، وقصارى ما يراه لنفسه من الخير والصلاح ، فاذا فاته ذلك أهمه الأمر ، وأقض مضجعه الفوت ،

وعاش متألما ساخطا على دنياه شاكيا سوء حظه • ثم يتبين له بعد زمن أنه لو كان قد نال ما تمناه ، ووفق الى الحصول على بغيته ، لكان فى شر عظيم • وعلى العكس من ذلك ربما وقع لأحدنا ما يعتبره نكبة من النكبات ، ثم يتبين فيما بعد أنه عين الخير ، وفى ذلك يقول الله عز وجل : « **وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم • وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم • والله يعلم وأنتم لا تعلمون** » (سورة البقرة آية ٢١٦) •

أدب المتعلم مع المعلم :

٢ — ويقص الله علينا أن موسى — عليه السلام — حينما لقى العبد الصالح عرض نفسه عليه • فقال له : « **هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا** » وهذا هو أدب المتعلم مع المعلم ، يبدو له خاضعا تابعا ، طالبا لعلمه ، حريصا على الانتفاع به والتلقى منه • ومركز المتعلم يقضى عليه بذلك ، فان المعلم لا بد أن يكون قواما على المتعلم ، ولا بد أن يشعر منه بالاحترام والتعظيم والاجلال ، لأن العلم روح ، وليس أمورا محسوسة تنقل وتؤخذ ، كالسلعة فى البيع والشراء مثلا • فالمتبايعان ينقد كل واحد منهما صاحبه ما عنده من الثمن والمثمن ، وليس بينهما صلة غير ذلك ، فقد تشترى ممن تحب وممن تكره ، كما تشترى ممن تعظم وممن تحتقر ، وينتهى الأمر بينك وبين صاحبك بانتهاء الصفقة • أما العلم فلا ينتقل اليك بهذه السهولة ، بل لا بد من أن تكون روحك مستعدة لتلقيه وتقبله والحرص عليه ، ولا بد أن تكون روح أستاذك حريصة على منحه لك وبذله واضحا جليا •• وهذا وذاك لا يكونان الا اذا شعر المتعلم بأن أستاذه جليل عظيم ، فأدى اليه حقه ، وقام بتعظيمه وتوقيره ، وشعر المعلم بأن تلميذه خاضع له ، حريص على علمه ، مدرك لما له عليه من فضل• هنا يسرى الروح العلمى بينهما أداء وتلقيا ، ويبارك الله فى هذا الروح ، وقد كان ذلك شأن القدماء ، فأفلحوا ونجحوا وبذوا ،

واطردت فيهم العلوم والمعارف ميراثا واضحا صافيا قويا ، وعرف كل حق الآخر واعتز به • أما الآن فقد خلف من بعدهم خلف نظر بعضهم الى بعض نظر العدو الى العدو ، فالتلميذ يعامل أستاذه معاملة مجردة عن التوقير والاجلال ، ويرد عليه قوله بدون حق ، وربما أساء اليه فى غيبته أو حضوره • والمعلم شعر بأن تلميذه متمرد عليه ، عاص لأمره ، غير حريص على علمه ، فغاض معين العلم بينهما ، فلم يستطع هذا أن يفيد ذاك ، ولم يستطع ذاك أن يستفيد من هذا ، وانحلت الروابط ، وكانت الخسارة على العلم والنبوغ والخلق •

وقد رأينا فى زماننا هذا طلابا يضربون عن تلقى العلم ، وأساتذتهم حاضرون مستعدون لتعليمهم • ورأينا طلابا يهبون فى وجوه أساتذتهم ثائرين •

ورأينا طلابا يدبرون لأساتذتهم مؤامرات الاعتداء والايذاء ، فانقطعت الصلة الروحية بين العالم والمتعلم ، وأصبح كل منهما لا يعامل صاحبه الا على أنه مكلف بدرس يلقيه أو يسمعه ليحصل على أجره ، ويقبض راتبه اذا كان معلما ، وليحفظ حقه فى دخول الامتحان والانتساب الى مدرسته أو معهده ان كان طالبا ، أما العلم للعلم والدرس للدرس فذاك شىء قد عفى عليه الزمان •

ولن تستقيم الحالة العلمية الا اذا احترم التلميذ أستاذه ، وأحب الأستاذ تلميذه ، وقد رأينا نوعا آخر من انقطاع الصلة بين المتعلم والمعلم ، هو كراهية المتأخرين للعلماء والمؤلفين من المتقدمين ، فنرى الواحد منهم يطعن فى شيوخ العلم والدين من القدماء ، ويرميهم بالجهل أحيانا ، وبالتعسف أحيانا ، ليظهر بمظهر الفاهم المدرك ذى العقل النير والفكر الحر ، والله يعلم انكاره ما أنكر انما هو من سوء فهمه وسوء أدبه :

وكم من عائب قولا صحيحا * وآفته من الفهم السقيم

ان المتقدمين هم أساتذة المتأخرين فى كل فن ، وضعوا لهم أسس الفهم والنظر ، وقواعد الاستنباط والحكم ، وتتبعوا فى الدين والشريعة واللغـــة كل شاردة وواردة ، باحثين منقبين حتى ملأوا الكتب علما ، وملأوا الخزائن كتبا ، وألقوا ضوءا على كل ناحية من نواحى الفكر ، فسرنا فى نورهم مهتدين ، واقتفينا آثارهم راشدين • فما بالنا — اذن — نسمح لأنفسنا بالزراية عليهم والتنقص منهم ، وكلما نشأ فينا ناشىء متعالم كان همه وقصارى سعيه أن يحاول الظهور على أكتاف هؤلاء العلماء الأجلاء ، وهو يعلم فى قرارة نفسه أنه عالة عليهم ، وأنه لولاهم لـــا خطا فى العلم والتفكير خطوة مأمونة •

أنا لا أنازع فى حق النقد والتمحيص للآراء ، ولست من أنصـــار الجمود وأخذ كل كلام يقال بالتسليم والاذعان ، الا كلام الله ، وسنة رسوله المطهرة ، وما أجمع عليه المسلمون اجماعا صحيحا — ولكنى أكره البذاء واطلاق الألسنة فى العلماء لمجرد مخالفتهم فى الرأى أو الوقوف على بعض العثرات التى لا يسلم منها انسان • فليكن شأننا مع من تقدمنا من العلماء شأن المتعلم مع المعلم ، يوقره ويجله ، ولا يمنعه ذلك من مناقشته والاعتراض المهذب عليه •

وها هو ذا موسى — عليه السلام — يضع نفسه من العبد الصالح موضع المتعلم ، فيعطى له حق قيادته وارشاده ، ويطلب منه أن يفسر له ما لم يفهم ، فاذا نبهه الى أمر تنبه ، واذا بين له ما وقع فيه من خطأ بادر بالاعتذار ، ووعد بالتزام الحد وعدم الخروج عما قبل من الشرط • ولسنا بأكثر علما من موسى ، ولا بأكثر منه تحمسا لـــا نعتقده حقا • وعلى ما نعتقده باطلا ، ولكنه ضعف فى علمنا وتفكيرنا ، نشعر معه بما يسمونه فى العصر الحاضر (مركب النقص) فيحملنا ذلك على أن نشيد بما نرى ، ونهدم ما رأى غيرنا ، لا لشىء الا لنظهر ونذكر ، وهو لعمرى ظهور يقصم الظهور •

عدم استعداد التلميذ للعلم يبيح للمعلم تركه :

٣ ــ ومن المعانى التى أحب أن أنبه اليها فيما تضمنته هذه الآيات : أن العبد الصالح رد على موسى حين طلب اليه أن يقبله تابعا متعلما يستفيد منه الرشد فقال له : **«انك لن تستطيع معى صبرا•وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا»** لم يرده عن العلم والصحبة الا بمانع يرجع اليه هو ــ أى الى موسى باعتباره متعلما ــ وذلك أن المانع من عقد صلة بين العالم والمتعلم اما أن يرجع الى العالم، واما أن يرجع الى المتعلم • فاذا كان عالما شحيحا بعلمه ، حريصا على كتمانه أو متكاسلا ، أو طامعا فى أخذ مال ، أو الانتفاع بشىء فى مقابل علمه ، ومنعه شىء من ذلك عن بذل العلم والجود به ، كان المانع راجعا اليه لا الى المتعلم • أما اذا كان المعلم مستعدا لبذل العلم ، والمتعلم منصرفا عنه بالكسل أو التمرد ، أو قاصرا عن تقبل علمه ، فليس أهلا لتلقيه ، فالمانع حينئذ راجع الى المتعلم لا الى المعلم • وقد بين العبد الصالح فى هذه الجملة أنه لا مانع لديه من بذل العلم واهداء الرشد ، ولكن المانع هو ما يلمحه فى موسى من عدم استعداد لتلقى علمه ، والصبر على ما فيه من عجائب •• وهذا أمر يقدره العالم الحاذق ، فهو لا يلقى علمه الا لمن كان مستعدا له ، قادرا على الصبر عليه • أما من يكلون عنه ، أو تزدحم عقولهم بالمعلومات المخالفة له ، فانهم لن يكونوا متعلمين ولا متقبلين ، ويكون تضييع الوقت معهم عبثا ، وقد نعلم أن كثيرا من أصحاب العقول الراجحة وأولى الألبــاب والنهى يعيشون بين أقوامهم غرباء ، وهم خزائن علم ومنابع فضــل ، فلا يبدو منهم أنهم عالمون بشىء ، بل يعيشون ما عاشوا صامتين، لأنهم لم يجدوا البيئة الصالحة لأن يبثوا فيها علومهم ، ولم تسمح لهم عقولهم الخصبية وقلوبهم البصيرة بأن يمالئوا النــاس ، ويسيروا فيما يسيرون فيه ، ويوافقوهم التماسا للرواج عندهم، والحظوة لدى رؤسائهم ، والعيش الخافض الناعم على حساب ضمائرهم وما يعلمون أنه الحق •• وتلك آفة من آفات المجتمع

الذى يكره الحرية العلمية ، وينفر من كل ما يخالفه ، ولا يصبر على ما لم يعرف ، بل يثور فى وجه قائله ، ويذيقه الوبال والنكال، وكم جرت هذه الخطة ذيل العفاء على كثير من الأفكار النافعة والآراء الطيبة ، فذهبت مع أصحابها الى القبور ، وانطوت بموتهم، فليس لها بعد ذلك من نشور .

ولقد نبه العبد الصالح موسى الى ذلك ، ليعرف مدى استعداده لتلقى ما ليس له به عهد .

فقال له موسى : « **ستجدنى ان شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا** » فكان ذلك بمثابة عهد بينهما قبل المصاحبة والمتابعة ، رجا فيه موسى أن يكون صابرا على علم ما لم يعلم ، ولجأ الى الله فى ذلك مستثنيا بقوله : « **ان شاء الله** » وفى ذلك تأدب مع صاحبه ، وتأدب مع ربه ، وعدم اسراف فى الثقة بنفسه ، وابقاء لمنفذ يستطيع أن يتخلص اليه اذا لم يستطع أن يفى بوعده ، وحينئذ تقبل العبد الصالح هذا التعهد ، ورسم له خطة السير التى يجب أن يسير عليها وهو يصاحبه : « **قال فان اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرا** » وانما شرط عليه ذلك لأنه يعلم أن ما سيقع من الحوادث فى رحلتهما سيكون غريبا على موسى ، وسيثير فى نفسه غريزة التعرف وحب الاستطلاع، فلعله يسأل ويناقش ويجادل ، فينفق معه فى المناقشة والجدال وقتا لا يريد انفاقه وتضييعه ، فهو لذلك يقول له : دع كل ما تراه فلا تسأل عنه ، واصبر حتى أحدث لك تفسيرا له وبيانا فى الوقت المناسب .

وقد سلك أهل التصوف وأصحاب الطرق هذه السبيل، فنرى المريد يجرى مع شيخه على الخطة التى رسمها العبد الصالح لموسى ، وقد بلغ من شدة تمسكهم بهذه الخطة أن المريد يلتزم ما أمره به شيخه عشرات من السنين دون أن يسأله : لم أمره

بذلك ؟ وأن الشيخ يعتبر مريده أهلا لما يريد اذا نجح فى هذا الاختبار الشاق وتبينت قوته وشدة عزيمته — وتلك منازل يعرفها السالكون ، وليس فى الامكان ولا من المطلوب أن يكون الناس على مثل ذلك فى شئونهم وصلاتهم ، فان هذا مستوى يشق على الأوساط ، ولا يكلف الله به العامة .. وانما ذكرناه للعبرة الاجمالية مما يدل عليه من طاعة المتعلم لمعلمه، واجتهاده فى تحمل مايرضيه.

العالم يمنح علمه لمن يستحقه بمقدار :

٤ — ومما ينطوى عليه الكلام من معان فى هذه الآيات الكريمة أن العبد الصالح يقول لموسى : « **فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرا** » فهو يعد بأنه سيذكر منه لا بأنه سيذكره ، وذلك أن العالم كالطبيب ينفق من الدواء مقدار ما يصلح به ، فهو لا ينفق جزافا وكيفما اتفق ، ولو أن عالما من العلماء حاد عن هذه الخطة ، ولم يلتزم تلك الجادة لأتعب نفسه وأتعب تلاميذه.

وقد كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — على بينة من ربه، وعلم بكثير من الأسرار والأخبار ، ومع ذلك لم يكن يلقى لأصحابه بكل ما يعلم ، بل كان مقتصدا ، لا يعطيهم الا ما يعلم أنه يصلحهم فى شئون دينهم ودنياهم . وهذا — طبعا — فى غير ما أمر بتبليغه . ومن كلام على رضى الله عنه فى خطبة من خطبه (ان قلت يقولوا حرص على الملك ، وان سكت يقولوا فر من الموت ، هيهات بعد اللتيا والتى . والله لابن أبى طالب آنس بالموت من الطفل بثدى أمه ، ولكن انطويت على مكنون علم لو بحت به لاضطربتم اضطراب الأرشية فى الطوى البعيدة) أى لاضطربتم واهتززتم كما تهتز الحبال المتصلة بالدلاء ، حين تلقى فى البئر العميقة البعيدة القعر .

وسنعلم أن العبد الصالح قد التزم هذه الخطة مع موسى فيما أنبأه به من أسرار ، فلم يضن عليه بكل شىء ، ولم يبح له بكل شىء ، ولكن كان بين ذلك قواما .

٢٠٠ - قال الله تعالى :

فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا لَقَدۡ
جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرٗا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ﴿٧٢﴾ قَالَ
لَا تُؤَاخِذۡنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرۡهِقۡنِي مِنۡ أَمۡرِي عُسۡرٗا ﴿٧٣﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ
إِذَا لَقِيَا غُلَٰمٗا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا زَكِيَّةَۢ بِغَيۡرِ نَفۡسٖ لَّقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا
نُّكۡرٗا ﴿٧٤﴾ * قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن
سَأَلۡتُكَ عَن شَيۡءِۭ بَعۡدَهَا فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرٗا ﴿٧٦﴾
فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا
فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ﴿٧٧﴾ قَالَ
هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا ﴿٧٨﴾
أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا وَكَانَ
وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلۡغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤۡمِنَيۡنِ
فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدۡنَآ أَن يُبۡدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيۡرٗا
مِّنۡهُ زَكَوٰةٗ وَأَقۡرَبَ رُحۡمٗا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي
ٱلۡمَدِينَةِ وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٞ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ
أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ ذَٰلِكَ
تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا ﴿٨٢﴾

المفردات :

امــرا :

الامر ــ بكسر الهمزة ــ الأمر العظيم الشنيع ، وهو مثل «الاد» فى قوله تعالى : **« لقد جئتم شيئا ادا » وأصله من أمر الأمر اذا** اشتد أو كثر • ومن الأول حديث أبى سفيان : لقد أمر أمر ابن أبى كبشه وارتفع شأنه ، يريد النبى صلى الله عليه وسلم ومن الثانى قولهم : (من قل ذل ومن أمر فل) أى من قل عدده ومن كثر عدده •

ترهقنى :

الرهق ــ بالتحريك ــ حمل المــرء على ما لا يطيقــه ، ومثله الارهاق • يقال : أرهقه من أمره عسرا : أى كلفه اياه وحمله عليه، والارهاق أيضا : ادراك الشىء بما يغشاه ، ومنه « المراهق » للغلام الذى قارب أن يغشاه حال البلوغ ، ويقال : أرهقه ظلما أو طغيانا أو كفرا : أى ألحقه اياه •

غــلاما :

الغلام يطلق على الصبى الصغير وعلى الشاب ، الا أنه فى الأول أشهر ، ومن الثانى قول ليلى الأخيلية :

شفاها من الداء العضال الذى بها * غلام اذا هز القناة سـقاها

وقد فسر الغلام فى الآية بالتفسيرين •

نــكرا :

النكر : الأمر الفظيع المنكر : قيل : هو أشد من الامر ، وقيل : بل الامر أشد منه •

يريد أن ينقض :

الانقضاض : السقوط بسرعة ، ومنه قول الشــاعر : (فانقض كالكوكب الدرى منصلتا) واضــافة ارادة الانقضاض الى الجدار

مجاز عن قرب سقوطه ، وذلك على التشبيه بحال من يريد الفعل. وله نظائر فى الكلام الفصيح ، منها (يريد الرمح صدر أبى براء) (يشكو الى جملى) (فشكا الى بعبرة وتحمحم) وفى القرآن الكريم : « **ولما سكت عن موسى الغضب** » (سورة الأعراف آية ١٥٤) « **فاذا عزم الأمر** » (سورة محمد آية ٢١) .

خيرا منه زكاة وأقرب رحما :

الزكاة : الطهارة والصلاح ، والرحم والرحمى ــ بضم الراء فيهما ــ كالرحمة : رقة فى القلب ، وانعطاف يقتضى الاحسان : أى ولدا خيرا منه صلاحا وطهارة ، وأبر بهما وأرحم .

أن يبلغا أشدهما :

أى يكبرا ويعقلا ، والأشد قيل : جمع شدة كنعمة وأنعم ، والشدة: القوة والجلادة ، وقيل : هو جمع لا واحد له ، وقيل : هو مفرد على وزن الجمع ، وقد عبر « ببلوغ الأشد » فى مواضع من القرآن الكريم أخذ منها أنه من وصول الانسان الى نحو سبع عشرة سنة الى أربعين ، لأنه قال عن يوسف : « **ولما بلغ أشده** » (سورة يوسف آية ٢٢) وقال فى اليتيم « **ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده** » (سورة الأنعام آية ١٥٢) مع قوله : « **فان آنستم منهم رشدا فادفعوا اليهم أموالهم** » سورة النساء آية ٦ وقال عن موسى : « **ولما بلغ أشده واستوى** » (سورة القصص آية ١٤) وقال عن الانسان : « **حتى اذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة** » (سورة الأحقاف آية ١٥) وقالوا : فبلوغ الأشد محصور الأول ، محصور النهاية ، غير محصور ما بين ذلك .

التفسير : هذه الآيات واضحة ظاهرة المعنى فى ذكر تفاصيل القصة ، ولسنا بحاجة الى تلخيص حوادثها أو بيان ما كان من موسى ومن العبد الصالح فى مراحلها ، ولذلك نكتفى بتقرير بعض المعانى الهامة التى تستفاد من الكلام مع التعريج على بعض البحوث المتصلة بالتعبير واللفظ ، مما له فائدة يحسن الوقوف عليها ، فنقول وبالله التوفيق :

مما توحى به القصة الصحبة والتجانس :

١ ـــ ذكر الله فى هذه الآيات ما كان من أمر موسى والعبد الصالح ، من لدن رضى بمصاحبته على الشرط الذى كان بينهما ، الى أن افترقا بعد أن ظهر لهما عدم امكان استمرار هذه الصحبة. وقد يدلنا ذلك على أن صحبة غير المتجانسين لا تدوم ولو كان كلاهما على حق ، ذلك بأن اختلاف الأساليب والطرق التى يتوصل بها الى الخير والصلاح كاختلاف الأغراض والمقاصد ، كلاهما يفضى بالمختلفين الى الافتراق ، ويقطع حبل الاتصال . غير أن القطيعة الناشئة عن اختلاف الأغراض والمقاصد تقتضى العداوة والتباغض ، وأن ينظر كلا المختلفين الى الآخر نظرة الكراهية والمقت : لأن الخلاف حينئذ فى الأصول . أما القطيعة الناشئة عن اختلاف الأساليب الموصلة الى الخير ، مع الاتفاق على الصلاح والخير نفسه ، فانها لا تقتضى ذلك ، وانما تقتضى أن يعذر كل فريق مخالفه ، وأن يعمل كل على شاكلته دون أن يترامى الفريقان بالتهم ، أو يتبادلا ظن السوء .

التريث فى الحكم على ما لا نعلم :

٢ ـــ ونفهم من هذه القصة أيضا أن كثيرا من المسائل التى تبدو أمام أنظارنا باطلة أو فاسدة ، قد يكون لها وجه من الصحة أو الصلاح فى الواقع ، ولا سيما اذا صدرت عن مصدر ظاهر الصلاح غير معروف بسوء . وفائدة ذلك عظيمة، لأن الناس اذا أدركوا ذلك تريثوا فى الحكم على الأشياء ، واستمعوا الى صوت مخالفيهم فى شأنها ، فلعلهم يصلون الى ما يقتنعون به ، واذا كان أحد من الناس أولى بهذه الخطة فهم أهل العلم والرأى والحكم .

روايات لا تصح :

٣ ـــ لم يذكر الله ـــ تعالى ـــ شيئا عن فتى موسى بعد اتصال موسى بالعبد الصالح ، وذلك لأن المقصود بالسياق انما هو قصة موسى مع العبد الصالح ، وما كان فتى موسى الا تابعا لموسى، فمن الجائز أن يكون قد رجع أدراجه بعد أن وصل موسى الى بغيته ، ومن الجائز أن يكون قد صحبهما هو أيضا ، ومن الجائز

أن يكون غير ذلك ، ولا يعبأ القرآن — كما قلنا مرارا — بمثل هذه التفاصيل التى لا فائدة من ذكرها ، ولذلك لا ينبغى أن نلتفت الى ما يروى فى شأن هذا الفتى ، من مثل رواية ابن جرير عن ابن عباس التى يقول فيها : (شرب الفتى من الماء فخلد ، فأخذه العالم فطابق به سفينة ثم أرسلها فى البحر ، فانها لتموج به الى يوم القيامة ، وذلك أنه لم يكن له أن يشرب منه فشرب) وقد طعن ابن كثير فى سند هذه الرواية الطريفة .

وكذلك لم يذكر القرآن اسم الملك الذى كان يأخذ كل سفينة غصبا ، ولا كيف التقى موسى وصاحبه بالغلام ، وهل كان يلعب مع الصبيان أو كان منفردا ؟ وهل كان مسلما أو كان كافرا ؟ وهل قتله بقلع رأسه أو بحزها أو بغير ذلك ؟ ولا ذكر اسم القرية التى استطعما أهلها ، ولا اسم الغلامين اليتيمين، ولا اسم أبيهما ، وهل هو الأب المباشر ، أو بينه وبين اليتيمين عدة آباء ؟ . ولا حدثنا عن الكنز الذى كان تحت الجدار ، وهل هو من مال أو من علم وحكمة ؟. كل ذلك لم يذكره القرآن.وقد عنى المفسرون بايراد الروايات فيه على نحو عجيب : فاسم الملك هدد بن بدد ، وهو من ذرية العيص بن اسحق . والفتى كان يلعب مع الصبيان، وقيل : بل كان منعزلا ، واسمه جيسون ، وقيل : بل جنتبور ، وقد اقتلع الخضر رأسه بيده ، وقيل : بل احتزه ، وقيل : بل رضخه بحجر ، وقيل : ضربه فى جدار . واسم القرية أنطاكية أو الأيله ، وهى أبعد الأرض من السماء ، أو برقة . وعن أبى هريرة أنها بلد بالأندلس ، واسم الغلامين أصرم وصريم ، واسم أبيهما كاشح ، وصناعته نساج . والكنز كان مالا مدفونا ، أو علما وحكمة ، أو ذهبا وفضة ، وقيل : بل كان لوحا من ذهب مسمط كتبت فيه عبارات اختلف فيها ، فقيل : نصها « عجبت لمن أيقن بالقدر لم نصب ! وعجبت لمن ذكر النار لم ضحك ! وعجبت لمن ذكر الموت لم غفل ! لا اله الا الله محمد رسول الله » وقيل : كانت سطرين ونصف سطر لم يتم الثالث ،

ونصها : « عجبت للمؤمن بالرزق كيف يتعب ؟ ! وعجبت للمؤمن بالحساب كيف يغفل ؟ ! وعجبت للمؤمن بالموت كيف يفرح ؟ ! »

وقد قال الله : « **وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين** » (سورة الأنعام آية ٤٧) •

وهكذا تضرب الروايات فى هذه الأودية ، وتأتى بهذه الألوان من الأعاجيب •

امثال العبد الصالح واعتراضات موسى : السفينة

٤ ــ الظاهر أن العبد الصالح قد غافل أصحاب السفينة ، فخرقها دون أن يروه ، والا لأخذوا على يده • والظاهر أيضا أنه خرقها فى موضع لا يجعل الغرق يسرع اليها ، كأن يكون الخرق أعلاها، حتى اذا حملت وأثقلت وغاص جسمها فى الماء وصل الماء الى ذلك الخرق فدخلها •

والقرآن لا يعين شيئا من ذلك،ولكنه يفهم منه علىالاجمال• فمعنى قوله : « **أخرقتها لتغرق أهلها** » أفعلت بها ذلك الذى يؤدى الى غرق أهلها حين يركبون فيها ، دون أن يعلموا ما أحدثت بها ؟ ! •

لفظ الأمر ولفظ النكر :

٥ ــ **اختلفوا فى لفظ « الامر » ولفظ « النكر » أيهما أبلغ فى معنى الشناعة ؟ فقيل الامر أبلغ ، والنكر أخف ، وانما اختار التعبير** بالأول فى جانب السفينة لأن غرق السفينة يترتب عليه هلاك نفوس كثيرة • أما قتل الغلام فازهاق لنفس واحدة ، ولا شك أن اهلاك الكثير أفظع من اهلاك واحد • وقيل : بل النكر أفظع وأهول ، وانما عبر بالأول فى السفينة لأنه لم يحصل اغراق فعلا، وانما هو شىء قد يؤدى الى الاغراق ، فهو هلاك متوقع• أما قتل الغلام فاهلاك واقع فعلا ، ولا شك أن ما وقع فعلا أشد وأفظع مما قدر أنه ربما وقع • والرأى الثانى أرجح عندى ، لأن لفظ « الامر » **لا يتضمن معنى الفظاعة والشناعة الا لزوما ، لأن**

أصله كما بينا فى المفردات الكثرة أو الشدة ، ويؤول ذلك هنا الى أنه أمر ثقيل كريه ، شديد على النفس أن تقبله ، اذ أنه أمر عجيب خفى سببه ، ولا يستدعى ذلك حتما أنه منكر فى نفسه. أما لفظ « النكر » فهو أقرب فى معنى الشناعة مع امتيازه بزيادة: هى أن مادته من الانكار الذى هو الرفض وعدم القبول • وقد عبر فيه بلفظ يدل على أنه هو نفس الفظاعة ، وهو لفظ نكر الشبيه بعدل فى قولهم : زيد عدل • ثم ان قرب موسى من عهده مع العبد الصالح ومن تنبيهه حين أراد مصاحبته الى أنه سيصادف معه ما لا يستطيع أن يصبر عليه ، يرجح أنه يختار للاعتراض فى أول مرة لفظا أخف ، وذلك هو لفظ « الامر » الذى بينا وجه خفته فى معناه عن لفظ « النكر » •

٦ ـــ لما اعترض موسى أول مرة رد عليه العبد الصالح بقوله : **« ألم أقل انك لن تستطيع معى صبراً »** ولما اعترض عليه فى المرة الثانية قال : **« ألم أقل لك انك لن تستطيع معى صبراً »** فزاد لفظ « لك » والأمر فى ذلك شبيه بما قدمناه من ارادة معنى التدرج فى التعبير بالأمر ثم بالنكر •• فالعبد الصالح اكتفى أول مرة بتذكيره بما كان منه حين أراد موسى أن يصاحبه ، حيث قال له : **« انك لن تستطيع معى صبراً »** والتعبير بقوله : **« ألم أقل انك »** ليس فيه التصريح بأنه قال ذلك له ، وان كان المفهوم ذلك ، فهو أخف فى اللوم من حيث أنه ترك فى الظاهر دون تحديد للمقول له ، لكن لما تكرر من موسى الاعتراض والنسيان ناسب أن يكون لفته فى هذه المرة أشد ، فقال له : **« ألم أقل لك »** أى قلت لك أنت لا لغيرك ، فكان حقك أن تتنبه ، وأن تحفظ العهد الذى بينى وبينك •

٧ ـــ قول موسى ـ عليه السلام ـ : **«لا تؤاخذنى بما نسيت»** يتبادر منه أنه نسى : أى سها وغفل عما كان بينه وبين العبد الصالح من شرط ، وهذا أمر طبيعى ، فان المرء اذا جابهته العجائب بهرته وأنسته سابق أمره ، حتى يحتاج الى من يذكره ما قد

نسى ، ولذلك لا أرى تفسير النسيان هنا بالترك كما فسره به بعض المفسرين ، ليقول : ان موسى لم يغفل ، ولكن ترك قصداء

وقوله :« **نسيت** » من باب استعمال المعاريض ، فلا يكون كذبا: أى أنه لفظ محتمل لمعنيين ، ففيه تورية قصد به موسى «تركت» وفهم منه العبد الصالح « غفلت » — لا أرى ذلك ، لأن هذا يبعد أن يلجأ اليه موسى مع عبد صالح أمره الله باتباعه ، وجاء هو اليه خاضعا شاعرا بأن عنده علما ممتازا ، فليس المجال مجال تورية، فان هذا بعيد أن يخطر بباله — ويؤيد ما ذهبت اليه أن موسى يقول بعـد ذلك : « **ولا ترهقنى من أمرى عسراً** »وهو بذلك يلتمس منه ألا يشدد عليه ، وأن تكون مصاحبته اياه مبنية على المساهلة والمسامحة معه •• وهذا لا يقوله الا من شعر بأنه فى موقف المقصر الآسف ، لا المصانع الذى يلجأ الى العبـارات والألفاظ تورية ولحنا بها ، ولو أن ذلك كان فى نفسه لاستطاع أن يكبح جماحها ، فلا يعترض ولا يعتذر ، بل يصبر حتى يرى ما يكون ، ثم يفارق عزيزا مختارا •

الغلام : ٨ — تقدم فى كلامنا عن المفردات أن الغلام يطلق على الصبى الصغير وعلى الشاب ، ولهذا اختلف المفسرون ، واستشهد كل على ما يرجحه برواية — ولا نعرض لهذه الروايات ، وانما نعـرض للمعنى الذى أيد به كل ما ادعاه •

فالذين قالوا: انه هو الشاب استدلوا على ذلك بأنه قتله بسبب كفره ، وذلك أنه قال : « **فكان أبواه مؤمنين** »فيفهم من هذا أنه هو كان كافرا ، وقد صرح بذلك فى بعض القراءات : وهى القراءة المروية عن أبى وابن عباس : « وأما الغلام فكان كافرا وأبواه مؤمنين » والكفر لا يوصف به الصبى الصغير • واستدلوا كذلك بقوله : « **أقتلت نفسا زكية بغير نفس** »ونفس الصبى لا تقتل بنفس ولا بغير نفس ، وقد كان وصفها بكونها نفسا زكية من

كلام موسى لا من كلام العبد الصالح ، وذلك حسب الظاهر لموسى الذى لم يكن يعرف كفره •

والذين قالوا: انه الصبى الصغير استدلوا على ذلك بشهرة اللفظ فى هذا المعنى ، وبأنه ليس فى القرآن أنه مسلم أو كافر ، والقراءة المروية عن أبى وابن عباس آحادية لا يثبت فيها الزيادة ، ولعلها تفسير منهما لا رواية ، ولا يفهم من قوله : « **فكان أبواه مؤمنين** » الا أن الله أراد اكرامهما بألا يعيش هذا الغلام ، فيكون سببا فى ارهاقهما طغيانا وكفرا • فالمعنى : أن الغلام وان لم يظهر منه الآن شىء لكن علم الله أنه سيكون سببا فى هذا الارهاق •

والرأى عندى هو ترجيح كون المراد بالغلام الصبى الصغير، لما ذكروه من تبادل اللفظ ، ولوصف النفس بالزكاة ، وهو وصف لم ينكره العبد الصالح ، بل قال : « **خيرا منه زكاة** » فهو يفيد أن أصل الزكاة متحقق فى الغلام ، ولا زكاة فى الكافر ، ولأنه لو كان كبيرا لما كان سؤال موسى : « **أقتلت نفسا زكية** » بهذا التعبير الذى يفيد الجزم والتحقق ، ولكن بأن يقول مثلا : هل فعل هذا ما يستحق عليه القتل ؟ •

٩ ـــ لما اعترض موسى أولا • ذكره العبد الصالح ، فاعتذر اليه بالنسيان ، وطلب منه المسامحة • ولما اعترضه ثانيا ذكره تذكيرا أقوى ، فاستحيا موسى استحياء شديدا ، وندم ندامة كبرى ، وقال له : « **ان سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى قد بلغت من لدنى عذرا** » أى قد نلت من صميم قلبى قبولا ورضا حيث احتملتنى مرتين ، فعداك لوم وخلاك ذم ، ولن أطلب منك بعد هذه المرة استمرارا فى الصحبة •

والتعبير بقوله : «**فلا تصاحبنى**» ظاهر فى أنه يريد بعد هذه المرة قطع هذه الصحبة، وقد يفهم منه معنى: فلك ألا تصاحبنى،

أى فالأمر مفوض اليك ، ان شئت صاحبتنى مشكورا ، وان شئت فارقتنى معذورا ، وذلك لأن موسى راغب فى الصحبة ، يود لو استمرت ، لكنه استحيا ففوض .

والرأى عندى ترجيح المعنى الأول، لتبادر اللفظ فى افادته، ولأن موسى بعد أن شهد ما شهد كره أن يستمر فى هذه الصحبة ، واكتفى بما علم ، وحقق به ما أراد الله أن يحققه له من عبرة .. غير أنه تأدب فلم يقطع الصحبة مرتجلا وهو الذى طلبها مرتجيا ، فأفهم صاحبه أنه قد أعذر له ، وأنه قد فرط منه ما يستحق عليه بعد ذلك أن تقطع صحبته .

أهل القرية :

١٠ ــ قوله تعالى : **« حتى اذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها »** فيه سؤال هو : لم قال : استطعما أهلها ، وكان من الممكن أن يأتى بتعبير أخصر فيقول : استطعماهم ، لأن أهل القرية قد سبق ذكرهم فى قوله : **« حتى اذا أتيا أهل قرية »** وبعبارة أخرى: لم أظهر فى موضع الاضمار ؟

وقد اختلف الجواب فى ذلك ، فمنهم من قال : ان أهل القرية الذين أتياهم هم بعض سكانها ، أما أهل القرية الذين استطعماهم فهم كل سكانها، فلمااختلف المراد كرراللفظ، وهذا الجواب غير سديد ، لأنه ليس الشأن فيمن استطعم أهل قرية أن يتقصاهم واحدا واحدا حتى يستطعم جميع سكانها .ومنهم من قال : ان **« استطعما أهلها »** جملة فى موضع جر صفة للقرية ، فلا بد فيها من ضمير رابط يعود على الموصوف ، فلو قال : « استطعماهم » لما وجد هذا الضمير الرابط ، وهذا الجواب أيضا فيه شىء ، اذ يحتمل أن تكون هذه الجملة صفة لأهل القرية ، أو جزاء للشرط فى قوله : **« حتى اذا أتيا أهل قرية »** ومنهم من قال : ان التكرير فيها للتأكيد كقول الشاعر:

ليت الغراب غداة ينعب دائما * كان الغراب مقطع الأوداج

وهذا الجواب يحتاج الى شيء من الايضاح وبيان وجه التوكيد ، ولعل ذلك يلتقى مع جواب رابع : هو أن ذلك لزيادة التشنيع عليهم ، فانهم ذكروا من دواعى الاظهار فى مقام الاضمار قصد التشنيع كما يقال : زرت العالم فاستفتيت العالم فكتمنى ، فمقتضى الظاهر أن يقال : فاستفتيته فكتمنى لتقدم ذكره ، لكنه أظهر ليبشع الأمر حيث يكون الاستفتاء حينئذ متوجها للعالم ظاهرا لا الى ضميره ، تلميحا الى موطن العجب والاستنكار ، فالأمر هنا — والله أعلم — كذلك ، فانه يقول : « **حتى اذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها** » ليصور أن الاستطعام موجه الى أهل القرية ظاهرا لا الى ضميرهم ، وكأن كونهم « أهل قرية » فيه معنى التوطن والغنى والقدرة على اجابة المستطعم ، ومثل هذا أو قريب منه قوله تعالى : « **فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء** » (سورة البقرة آية ٥٩) حيث لم يقل : فأنزلنا عليهم ، ليشعر باستحقاقهم العذاب لظلمهم .

واعلم أن الكلام فى هذه الآية قائم على التشنيع بأهل القرية ووصفهم بزيادة اللؤم وفرط البخل ، ويبدو ذلك من وجوه :

أولها : أنه كان من الممكن أن يقول : حتى اذا أتيا أهل قرية لم يضيفوهما ، فنفهم من هذا أنهما تعرضا لأهل القرية، فلم يحصل منهم اضافة لهما ، وهذه مرتبة فى البخل لم يكتف بها .

ثانيها : أنه كان من الممكن أيضا أن يقول : حتى اذا أتيا أهل قرية أبوا أن يضيفوهما ، فنفهم من هذا أنهما تعرضا لضيافتهم ، فكان منهم أمر ايجابى : هو اباء هذه الضيافة ورفضها ودفعها عن أنفسهم ، لا مجرد عدم حصولها

منهم ، الذى يحتمل أن يكون مصادفة أو سهوا ، وتلك مرتبة أبعد فى البخل واللؤم من الأولى •

ثالثها : أنه كان من الممكن أيضا أن يقول : استطعما أهلها فأبوا ، دون أن يذكر مفعول أبوا ، اكتفاء بفهمه من الكلام ، فنفهم أن الاستطعام حصل ، وأن اباء حصل ، ولكن لا يكون الاباء مسلطا على صريح الاستطعام بل على ضميره ، وتلك مرتبة أشد فى اللؤم والبخل من سابقتها •

رابعها : أنه كان من الممكن أن يصرح بمفعول « أبوا » فيقول : فأبوا الاستطعام ، فيكون ذلك مرتبة رابعة فى البخل واللؤم ، ولكن يكون الكلام حينئذ محتملا لقبولهم التضييف دون اطعام •

لهذا كله جاء التعبير القرآنى مستكملا لجميع أوجه التشنيع عليهم ، حيث قال : **« حتى اذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما »** ولا شك أن قوما مستقرين فى قرية ، يأتى اليهم ضيفان مسافران ، فيتعرضان لضيافتهم بهذا الاتيان ، ثم يطلبان الطعام صراحة منهم ، ولكنهم يأبون مجرد اضافتهما ولو بلا اطعام — لا شك أنهم قوم لئام قد ضربوا فى اللؤم بعروق •

فهذا هو الوجه لما ذكروه مجملا لقولهم: ان التكرير للتوكيد، ورجوت أن يكون ملتقيا مع قول من قال : انه لزيادة التشنيع•

هذا فراق بينى وبينك :

١١ — **قول العبد الصالح : « هذا فراق بينى وبينك »** الاشارة فيه اما الى الاعتراض الأخير : أى هذا السؤال ، أو الى الأوان الحاضر : أى هذا أوان فراقنا •

وقوله : « بينى وبينك » قد أضيف فيه الفراق الى الظرف توسعا ، والأصل : هذا فراق بينى وبينك — بتنوين فراق

ونصب بينك على الظرفية — وهى قراءة ابن أبى عبلة ، وقد جاءت الاضافة الى الظرف أيضا فى قوله تعالى : « **وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها** » (سورة النساء آية ٣٥) وفى ذلك يقول صاحب الكشاف: (أصله شقاقا بينهما ، فأضيف الشقاق الى الظرف على طريق الاتساع ، كقوله : « **بل مكر الليل والنهار** » (سورةسبأآية٣٣) وأصله : بل مكر فى الليل والنهار ، أو على أن جعل البين مشاقا ،والليل والنهار ماكرين ، على حد قولهم : نهارك صائم) •

ونقل عن سيبويه أن معنى مثل هذا التوكيد يعنى هذا فراق بيننا : أى فراق اتصالنا ، ومثله من الكلام (أخزى الله الكاذب منى ومنك) أى منا •

واعلم أن كلمة « بين » تأتى بمعنى الفراق والبعد ، كما يقال: غراب البين • وتأتى بمعنى الوصل ، كما فى قوله تعالى : « **لقد تقطع بينكم** » (سورة الأنعام آية ٩٤) على قراءة ضم النون ، أى لقد تقطع وصلكم ، فهى من أسماء الأضداد وفسر بالوصل أيضا فى قوله تعالى : « **وأصلحوا ذات بينكم** » (سورة الأنفال آية ١) أى الأمور التى يرجع اليها وصلكم وتوصف بأنها صاحبة اجتماعكم وألفتكم ، وهى الأصول التى تبنى عليها الوحدة ، ولا يضر الخلاف فيما وراءها ، وقد تأتى « بين » ظرفا •

والآية التى معنا يظهر فيها على قراءة ابن أبى عبلة أن « **بينى وبينك** » ظرف ، كما فى قوله تعـالى : « **ذلك بينى وبينك** » وقوله : « **ياليت بينى وبينك بعد المشرقين** » (سورة الزخرف آية ٣٨) وقوله : « **تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا** » (سورة آل عمران آية ٣٠) أما على قراءة حفص بالاضافة الى فراق

فجائز أن تكون ظرفيتها باقية ، والأمر كما قال الزمخشرى فى فى الكشاف عن « **شقاق بينهما** » (سورة النساء آية ٣٥) . وأن يكون الأمر كما نقل سيبويه ، فتكون الجملة فى معنى : هذا فراق وصلنا . ولكن ما ذكره سيبويه بناه على أن فى الكلام تكريرا للفظ بين « **بينى وبينك** » مرادا به التوكيد ، وأن المعنى: هذا فراق بيننا ، ولا يظهر جليا لم كان قوله : « **بينى وبينك** » آكد من قوله « **بيننا** » ؟ وقد جاء بهذا التعبير قوله تعالى : « **شقاق بينهما** » .

فالرأى عندى أن معنى الظرفية باق كما هو فى «**شقاق بينهما**» غير أن التكرير فى الآية التى معنا أريد به افادة معنى شريف قد لا يؤديه التعبير بلفظ « بيننا » ذلك هو أن الفراق واقع عن تراض منهما ، فهو أمر قد قرراه معا ، ولم يستقل به أحدهما . وذلك أن العبد الصالح قد أظهر من أول الأمر أنه يرى هذه الصحبة عسيرة ، ولذلك يرغب عنها ويحاول صرف موسى عن التمسك بها ، وموسى قد شرط الفراق على نفسه ان سأل صاحبه عن شيء بعد اعتراضه على قتل الغلام ، فكلاهما راض بها مقرر لها ، ولو قال : هذا فراق بيننا لكان التقدير : هذا فراق وصلنا ، أو فراق حاصل بيننا ، فلا يدل على أنه مرتضى منهما .

ثم الدلالة على أن الفراق حاصل عن تراض منهما فيه أدب عال من العبد الصالح ، حيث لا يحصر عوامل الفراق فى صاحبه أو يرجعها الى نفسه ، فيدل على تضجره وتبرمه ، ولكن يقول : هذا ما اتفقنا عليه وما قررناه جميعا ، لم أستقل فيه ولم تستقل .

أسرار معنوية لاختلاف التعبير فى حوادث القصة :

١٢ — يرى بعض الناظرين فى هذه الآيات الكريمة أن التعبير فى شأن الغلام قد اختلف — لحكمة ترجع الى المعنى — عن التعبير فى شأن السفينة والقرية ، وذلك يستدعينا أن نلخص هذا الاختلاف فى التعبير ، ثم ما ذكروه فى حكمته ، ثم ندلى بعد ذلك برأينا :

فأما الاختلاف فان الله سبحانه قال فى شأن ركوبهما السفينة: **« حتى اذا ركبا فى السفينة خرقها »** فجاء قوله : **« خرقها »** بدون فاء ، فكان بذلك صالحا لأن يكون جوابا للشرط من جهة الصناعة النحوية ، كما هو صالح لذلك من جهة المعنى ، اذ هو على معنى : حصل الخرق بعد الركوب • وقال الله تعالى فى شأن اتيانهما القرية : **«حتى اذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها»** فجاء قوله : « استطعما » أيضا من غير فاء ، فصلح لأن يكون جوابا من جهة الصناعة النحوية ، وهو صالح لذلك أيضا من جهة المعنى — وان كان يحتمل أنه صفة للقرية أو لأهل القرية — فيكون التقدير على جعله جوابا : حتى اذا حصل الاتيان حصل الاستطعام •

أما فى شأن لقياهما الغلام فقد قال جل شأنه: **«حتى اذا لقيا غلاما فقتله »** فجاء لفظ القتل فعلا ماضيا مقترنا بالفاء ، وهو وان كان صالحا للجزائية من جهة المعنى على تقدير : حتى اذا حصل اللقاء حصل القتل عقبه مباشرة ، لكنه غير صالح لذلك من جهة الصناعة النحوية ، اذ هو ماض مقترن بالفاء ، والقواعد تأبى أن يقترن جواب « اذا » الماضى بالفاء ، ولذلك قال المفسرون : انه فى حيز الشرط ، أما الجزاء فهو قوله تعالى : **« قال أقتلت نفسا »** الخ ، والمعنى : حتى اذا حصل لقاؤهما

الغلام ، وحدث من العبد الصالح قتله عقيب هذا اللقاء دون تراخ ، قال موسى : أقتلت نفسا زكية .. الخ .

أما ما ذكروه فى تعليل هذا الاختلاف فى التعبير فهو ارادة التنبيه على أن قتل الغلام حصل بعد اللقيا مباشرة دون تراخ. وهذا المعنى كأنه ضرورى فى القصة ، لأنه لو كان العبد الصالح قد تريث بعض الوقت فلعل موسى كان قد تبين شأن الغلام فعلم أنه يستحق القتل ، وليس الأمر كذلك فى شأن السفينة، فلم يرد تقرير أنه خرقها عقب ركوبهما مباشرة ، ولا فى شأن الاستطعام،فلم يقصد أنه حصل بعد اتيان أهل القرية مباشرة.

وفى هذا الموضع كلام طويل ليس فى ايراده كبير فائدة ،فنكتفى بهذا التلخيص . ثم نقول : ان النحويين قد أجازوا اقتران الجزاء بالفاء على تقدير « قد » ومن الممكن أن يفتح لنا ذلك تقدير فعل محذوف يتفق والمعنى المفهوم من اقتران اللفظ بالفاء ، كأن تقول مثلا : التقدير حتى اذا لقيا غلاما بادره فقتله ، أو أسرع اليه فقتله ، فتكون الفاء عاطفة على شىء فى حيز الجزاء لا فى حيز الشرط ، ويكون الحامل على هذا التقدير ما يرشد اليه النسق فى الموطنين الآخرين .

هذا — وقد رأى كثير من المفسرين أن قوله : **« استطعما »** صفة للقرية أو لأهل القرية ، وأن الجزاء هو قوله تعالى : **« قال لو شئت »** بحجة أن الاستطعام ليس هو المقصود حتى يجعل جزاء ، وأقول : ان الاستطعام ليس هو المقصود وحده ، وانما المقصود هو ذكر ما حدث بعد اتيانهما القرية أو أهل القرية من الاستطعام وما تلاه ، فالمعنى : حتى اذا أتيا أهل قرية — أى من القرى لم يتعلق بتعريفها غرض — حصل منهم

استطعام **لأهلها** ، **فاباء من الأهل** ، **فوجدا جدارا على وشك** السقوط ، فأقامة العبد الصالح **لهذا الجـدار** ، فالجزاء هو الاستطعام وما عطف عليه بالفاء ، **لأن** هذا كله هو **الذى** يكون الغرابة فى الأمر ، ويروج لسؤال موسى واعتراضه ، فان موسى لم يعترض الا على اقامة الجدار دون مقابل مع ما حصل من الاستطعام فالاباء .

١٣ ــ نبأ العبد الصالح موسى عليه السلام **بتأويل** ما لم يصبر عليه من الأمور التى شاهدها ، وينبغى أن **يدرك** هنا أن ما أدلى به العبد الصالح ليس هو كل شىء فى هذه القضايا ، وانما هــو بعض العلم المتصل بها ، فقد بينا فيما تقدم أن موسى عليه السلام حين عرض على العبد الصالح أن يتبعه قال له : **« هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا »** وأن العبد الصالح حين رضى بهذا الاتباع قال : **« فان اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرا »** فقد تلاقيا عند معنى واحد : هو افادة بعض العلم ، كما يدلنا لفظ **« مما علمت »** فى كلام موسى ، ولفظ « منه » فى قول العبد الصالح وعلى هذا فقد يبدو فى بعض الأجوبة عما سأل موسى ما يستدعى أسئلة أخرى ، أو مناقشة وجدالا فى موضوعها ، كأن يقال مثلا : هل كان قتـل الغلام ضروريا لا مناص منه ، لتحقيق المصلحة التى أشار اليها العبد الصالح ؟ أليس من المستطاع اماتته ــ مثلا ــ بفعل الله دون قتل ، أو توفيق الله اياه الى الايمان والعمل الصالح ، أو عدم ايجاده من الأصل .. الى غير ذلك مما قد يرد الى الذهن ؟ ومثل ذلك يقال فيما يتساءل عنه بعضهم : من أنه : هل يجوز لمن علم فى حادثة ــ ما ــ مثل ما علمه العبد الصالح من حقيقة الأمر فيها ــ المترتبة أو المتوقعـة ــ أن يخـالف

تأويل العبد الصالح لحوادث القصة :

الظاهر ؟ وهل يكتفى فى ذلك بالعلم العادى ؟ وهل يعمل بالالهام ؟ .. الخ . وقد اهتم بعض المفسرين بترديد أمثال هذه الأسئلة والمناقشات والاجابة عنها ، وتخريج ما يحتاج الأمر فيه الى تخريج منها ، كأن الأمر أمر أحكام تشريعية أو بيان لموضوعات خلافية . والواقع أنه لم يقصد بهذه القصة الا الاقناع بالمبدأ الذى ذكرناه من قبل ، من أن الانسان مهما اتسع عقله ، وسمت مداركه ، وعلا منصبه ، محدود فى علمه ، وأن كثيرا من الأمور يخفى عليه وأن لله عبادا قد يخصهم بنوع من العلم لا يبذله لجميع الناس ، ولا يستقيم حال الناس على بذله لجميع الناس .

اختلاف النسق فيما أجاب به العبد الصالح ورأينا فيه :

١٤ ـ اختلف النسق أيضا فيما أجاب به العبد الصالح عن اعتراضات موسى ، ففى أمر السفينة قال : **« فأردت أن أعيبها »** فأسند الارادة والتعييب الى نفسه ، وفى أمر الغلام قال : **« فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا فأردنا أن يبدلهما ربهما »** فأسند الخشية والارادة الى ضمير المتكلم المعظم نفسه أو معه غيره ، مع اسناد الابدال الى الرب جل شأنه ، وفى أمر الجدار قال : **« فأراد ربك »** فأسند الارادة الى الله جل شأنه .

وقد ذكرت أوجه كثيرة فى تخريج ذلك . والذى أراه بعد التأمل ومراجعة ما قيل فى هذا الشأن ـ وقد يتلاقى فى بعض جزئياته مع آراء الآخرين ـ أن يقال :

الجواب فى أمر السفينة :

(أ) فى أمر السفينة علم العبد الصالح أن ملكا غاصبا سيقدم على هذا الموضع ، وأنه يجمع السفن الصالحة ، ولما كانت هذه السفينة لمساكين ليس لهم غنى عنها ، اجتهد فى وسيلة يدرأ بها ذلك عنهم ، فأداه ذلك الى أن يعيبها عيبا يمكن اصلاحه فيما بعد ، حتى اذا رآها الملك ظنها غير صالحة فتركها ، فيصلحها أصحابها وتسلم لهم .

وهذا التصرف يمكن أن يلجأ اليه الناس عادة ، فهو من فعله ، ومن جهة أخرى كان اعتراض موسى على خرقه السفينة بأسلوب قد يدل على أنه موجه الى النية والقصد من هذا الفعل ، لا الى الفعل نفسه ، لأن الخرق — كما استظهرنا من قبل — لم يكن فى موضع من السفينة يؤدى الى غرقها سريعا ، وانما كان فى موضع يؤدى الى ذلك فيما بعد ، بدليل أنهما لم يغرقا عند خرقها ، فكأن موسى يشير فى اعتراضه الى أن هذا قصد اعتدائى ونية سيئة ، ولذلك أجابه العبد الصالح بكلام يفهم منه أنه فعل ما فعل قاصدا به أمرا حسنا ، بناء على ما تبين له من أمر الملك الغاصب ومن حال المساكين ، فاسناده الفعل الى نفسه طبيعى ، لأنه تحديث عن الواقع ، اذ كان هذا هو ما لجأ اليه تحايلا على تحقيق مصلحة رآها •ووضعه لهذا القول الذى هو : **«فأردت أن أعيبها»** بين ما سبقه من أنها **«لمساكين يعملون فى البحر»** وما لحقه من أنه **«كان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا»** فيه ايحاء بأن ارادة تعييبها تصرف قد اكتنفه سببان حملا عليه، وأنه لم يكن عن نية فاسدة وقصد اعتدائى •

بقى أن يقال : ان قوله فى آخر القصة : **«وما فعلته عن أمرى»** يدل على أن ذلك بأمر الله لا برأيه وتصرفه هو • والجواب أن اجتهاد المجتهد لتحقيق مصلحة من المصالح فى دائرة ما علمه الله هو استلهام لأمر الله وحكم الله •

وفى أمر الغلام :

(ب) أما فى أمر الغلام فقد كان العبد الصالح يعلم عن أبويه وعنه ما لا يعلمه موسى ، فأبواه مؤمنان ، والغلام — فيما يظهر — كانت تظهر عليه علائم الفساد منذ الصغر ، ولعله كان معروفا

فى البيئة التى كان فيها بذلك ، ولعل هذه البيئة كانت تخشى منه ضررا على أبويه اذا كبر ، وكانت تتوقع أن يرهقهما طغيانا وكفرا اذا عاش ، وكانت تتطلع الى موته رفقا بحال هذين الأبوين ، فلذلك فعل العبد الصالح ما فعل ، وعلل ذلك بقوله : **« فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا فأردنا أن يبدلهما ربهما »** فالخشية ليست منه فقط ، والارادة ليست منه فقط ، وانما كان ذلك هو احساس من يعرف الغلام وأبوى الغلام ، وكانت هذه هى ارادتهم: أى رجاؤهم وتطلعهم — فالارادة هنا بمعنى الرجاء ، وما يكون من حديث النفس فى مثل هذا الشأن حيث يلتمس من الله أن يريح مثل هذين الأبوين المؤمنين من مثل هذا الغلام الشرير ويرزقهما بدله مولودا أبر بهما وأرحم — أما ابدالهما خيرا منه فقد أسند ذلك الى الله ، وهو يتضمن معنيين : معنى اهلاك الغلام ، ومعنى تعويضهما خيرا منه ، وكلاهما لا يكون الا بأمر الله . وقد أمر الله العبد الصالح بقتل الغلام تحقيقا للشطر الأول ، بدليل قوله فى آخر القصة : **« وما فعلته عن أمرى »** ولم يحدثنا عن تعويضه اياهما عن هذا الغلام المقتول ، كما هى سنة القرآن فى عدم استقصائه من الحوادث الا ما تدعو اليه العبرة ويتطلبه الحال .

فالحاصل أن قوله : **« فخشينا »** وقوله : **« فأردنا »** الضمير فيهما للعبد الصالح ومعه غيره من عباد آخرين يلمح الله لهم ولا يصرح بذكرهم ، وليس فى الكلام ما يدل على أن العبد الصالح كان منفردا بهذا العلم عن غير موسى .

وفى أمر الجدار :

(ج) أما فى قصة الجدار فالأمر ظاهر ، حيث أسندت الارادة الى الله حيث قال : **« فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما**

رحمة من ربك » ولا شك أن ارادة بلوغهما أشدهما لا تكون الا الله ، لأنها بمحض قدرته ، وأن ارادة استخراجهما كنزهما كذلك ، لأنها حكم بما يكون فى الغيب المستقبل الذى لا يعلمه الا هو ، فأمر الله العبد الصالح ببناء هذا الجدار واقامته ليكون ذلك وسيلة عادية فى حفظ الكنز على صاحبيه ، وتنبيها على أن الله فى رحمته ولطفه قد يكرم الأبناء اكراما لآبائهم الصالحين ، ولا يأخذهم بما فشا فى مجتمعهم من فساد أو اعوجاج .

٢١ ـ قال الله تعالى :

وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ

قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ

وَءَاتَيْنَـٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ

إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ

وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ

وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ

نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا

مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ

لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾

القــرنين :

القرن له معان : منها قرن الشاة وغيرها ، وقرن الشعر • أى الذوائب التى تطول وتجدل ، والأمد الطويل من الزمان ، والجيل من الناس ، وغير ذلك •

ذكــرا :

الذكر من معانيه القول ، يقال : ذكر لفلان حديثا : أى قاله له •

مكنــا له :

مكنه وأمكنه من الشىء : جعل له سلطانا عليه ، ومكن الله لفلان فى الأرض : جعل له فيها حكما وسلطانا وقوة • وقد جاء هذا التعبير فى القرآن كثيرا بهذا المعنى ، ومن ذلك قوله تعالى : « **الذين ان مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة** » (ســورة الحج آية ٤١) « **ونمكن لهم فى الأرض** » (سورة القصص آية ٦) « **وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض** » (سورة يوسف آية ٢١) •

ســببا :

السبب فى الأصل: الحبل، وعبر به عن كل ما وصل شيئا الى شىء• يقال للطريق الى الشىء : سبب ، وللباب سبب ، ولصلة القربى أو الصحبة سبب •• الخ •

أتبــع :

تبع الشىء تبعا : سار فى أثره ، واتبعه ـ بتشديد التاء ـ وأتبعه ـ بقطع الهمزة •• قفاه وتطلبه متبعا له • وقال أبوعلى : تبع فعل يتعدى الى مفعول واحد ، فاذا ثقلته بالهمزة تعدى الى مفعولين• يدلك على ذلكَ قوله تعالى : « **وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة** »

(سورة القصص آية ٤٢) وأما اتبع — بتشديد التاء — فانه — افتعل — يتعدى الى مفعول واحد كما يتعدى فعل اليه ، مثل حفرته واحتفرته وشويته واشتويته • ومن قرأ « **فأتبع سببا** » — بقطع الهمزة — تقديره : فأتبع سببا سببا ، أو أتبع أمره سببا ، أو أتبع ما هو عليه سببا ، فحذف أحد المفعولين كما حذف فى قوله: « **لينذر بأسا شديدا** » « **ولا يكادون يفقهون قولا** » — فى قراءة يفقهون بضم ياء المضارع — والمعنى : لينذر الناس بأسا شديدا ، ولا يكادون يفقهون أحدا قولا •

حمئــة :

الحمأة : الطين الأسود ، والعين الحمئة هى التى صار فيها هذا الطين الأسود •

وسنقول له من أمرنا يسرا :

ليس القول هو النطق والتلفظ فقط ، فاللغة تعرفه لغير ذلك أيضا، فمنه : قال بيده هكذا : أى أومأ بها ، أو أهوى بها وأخذ ، وقال برأسه : أشار ، وقال برجله : مشى ، وقال الحائط : سقط • ويعبر بالقول كذلك عن التهيؤ للأفعال والاستعداد لها ، فيقال : قال فأكل ، وقال فضرب ، ونحو ذلك •

التفسيــر من هو ذو القرنين

اختلف الناس فى ذى القرنين المذكور فى هذه الآيات : من هو ؟ ويرى كثير منهم أنه هو الاسكندر الأكبر اليونانى ، ملك مقدونيـــا المشهور فى التاريخ • ومن هؤلاء الامام الرازى ، فقد أطال فى الاحتجاج لذلك مستدلا بوجوه منها : أن ملكا كهذا الملك الواسع الذى بلغ أقصى المغرب والمشرق والشمال لا شك أنه على خلاف العادات ، وما كان كذلك وجب أن يبقى ذكره مخلدا على وجه الدهر ، وألا يبقى مخفيا مستترا ، والملك الذى اشتهر فى كتب التاريخ أنه بلغ ملكه الى هذا الحد ليس

الا الاسكندر ، ثم انتهى الرازى الى ما يشبه الجزم بهذا الرأى حيث يقول : فوجب أن يكون المراد بذى القرنين هو هو — يريد الاسكندر الأكبر — لكنه أورد بعد هذا اشكالا لم يحله : هـو أنه كان تلميذا لأرسطو الحكيم ، وكان على مذهبه ، ومدح الله اياه يوجب الحكم بأن مذهب أرسطو حق وصدق ، وذلك مما لا سبيل اليه • وقـد حاول النيسابورى الرد على هذا بأن مذهب الفلاسفة ليس بباطل كله ، فربما كان الاسكندر على الحق الذى فيه دون الباطل •

وبعض المفسرين يذكر غير ذلك ، ومنهم من يرى أنه كان نبيا يوحى اليه ، بدليل قوله تعالى : « **قلنا يا ذا القرنين** » وقد رد ذلك بأن القول فى القرآن كثيرا ما يراد به غير الخطاب اللفظى كالوحى ، ومن ذلك قوله تعالى : « **فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين** » (سورة فصلت آية ١١) وقوله تعالى : « **وأوحى ربك الى النحـل** » (سورة النحل آية ٦٨) فمعنى قوله تعالى : « **قلنا يا ذا القرنين اما أن تعذب واما أن تتخذ فيهم حسنا** » : ألهمناه ذلك •

والذى أميل اليه أن ذا القرنين المذكور فى القرآن هو الاسكندر الأكبر كما ذكر الرازى والنيسابورى وغيرهما ، للأدلة التى استدلوا بها • أما الاشكال الذى ذكره الامام الرازى فانه لا يقوم عقبة فى طريق هذا الرأى • لأن الله سبحانه وتعالى لم يصرح عن ذى القرنين بأكثر من أنه قد مكن له فى الأرض ، وآتاه من كل شىء سببا ، وهذا قدر لا يدل على أنه كان رجلا مثاليا فى دينه وعقيدته ، وكل ما يمكن التمسك به فى تعزيزه أنه كان متصفا بصفات أهل الايمان وهو ما جاء فى قوله تعالى: « **قلنا ياذا القرنين** » وقوله : « **قال ما مكنى فيه ربى خير** » وقوله : « **قال هذا رحمة من ربى** » •

تحقيق لنا فى الأقوال التى نسبها القرآن لذى القرنين :

وهذه المحاورات والأقوال فى رأيى ليست على ظاهرها المفيـد

صدورها كلها عن ذى القرنين لفظا ونطقا ، وانما هى تصوير لحــديث نفسه والهام الله اياه بما يفعل • ولا شك أن الملوك حين يفتحون بلدا أو اقليما تدور فى خواطرهم أحاديث نفسية عما يفعلون بالمغلوبين ، وقد علمنا فى تاريخ الاسكندر أنه كان حكيما ، أو أنه كان واسع العقل متصلا بالفلسفة ، فمن الطبيعى — وهذا شأنه — أن الله قذف فى روعه هذه المعانى التى تحدثت عنها الآية ، ويسرها الى نفســه ، فكان له مرحلتان فى التأمل : أولاهما : أنه — بحكم الفتح والغلب — قادر على أن يعذب هؤلاء القوم أو يعفو عنهم • الثانية : أنه يجب أن يفرق بين من ظلم فيعذبه ، ومن لم يظلم فيعفو عنه •

فالآية تفسر هذا الحديث النفسى ، ولكن بأسلوب القرآن الذى يعبر عن خلجات النفوس وخواطر الأشخاص ، تعبيرا فيه مزج بين ما يكون من الناس وما يكون من الله ، يراد منه الاشعار بأن الأمر كله لله ، وأن هذا تيسير الله وفعله وتوجيهه •• فهو يجرى قول الله الذى هو بمعنى سنته وتيسيره وتهيئته على لسان من يقص عنه ، لأنه أراد هذا المعنى فى نفسه ، أو لأنه سخره فى تحقيقه ، وما كان القول المنسوب الى ذى القرنين الا قولا لله فى الحقيقة ، فهو الذى يقرر بسنته وتيسيره وتوجيهه لعباده أن الظالم يقع فى الدنيا تحت سلطان من يعذبه وينتقم منه ، وفى الآخرة يرد الى ربه فيعذبه عذابا نكرا ، وأن المؤمن الذى يعمل الصالحات له فى الآخرة جزاء الحسنى ، وله فى الدنيا التيسير وأن يحيا حياة طيبة **« وسنقول له من أمرنا يسرا »** أى سنجعل أمره ميسرا هانئا ، لا صعوبة فى حياته ولا عسر فى أمره ، وشبيه بذلك قوله تعالى: **« فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى »** (سورة الليل آية من ٥ — ١٠) ولا أجد فرقا بين قوله : **« وسنقول له من أمرنا يسرا »** وقوله : **« فسنيسره لليسرى »** أو : **« فسنيسره للعسرى »** وعلى هذا

الكلام كله فى الآية منسوبا الى ذى القرنين ، لأنه حديث تحدثت نفسه به على الاجمال ، وهو من حيث المعنى والتعبير عنه بهذه الصورة المركزة التى فيها الحديث عن جزاء الدنيا وجزاء الآخرة وعن التيسير لليسر قول من الله أضافه الى من صدر عنه الفعل ، وكان مظهرا لتحقيق مضمونه .

أسلوب القرآن فى تكميل المعانى ومزجها بأقوال من يحكى عنهم أعتمادا على القرائن :

وهذا الأسلوب فى القرآن الكريم كثير ، وأمره يختلط على الناس، ومما يوضحه قوله تعالى فى آخر هذه القصة : « **قال هذا رحمة من ربى فاذا جاء وعد ربى جعله دكاء وكان وعد ربى حقا . وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض ونفخ فى الصور فجمعناهم جمعا . وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضا** » فقد مزج فى هذه الآيات بين ما يمكن أن يكون صادرا عن ذى القرنين وهو: « **هذا رحمة من ربى** » **الى** «**وكان وعد ربى حقا**» وبين ما هو صادر عن الله جل علاه ، وهو قوله :« **وتركنا بعضهم** » الخ، فالقرآن يسوق ذلك كله ، ولا يعبأ بتحقيق اسناد الأقوال الى مصادرها، لأنه لا يريد الا أن يفهم الناس معنى القول فى ذاته .. سواء فهموا أنه صادر منه تعالى ابتداء ، أو حكاية عن مصدر آخر لم يكن الا مظهرا لتحقق قول الله وسنة الله ، والله قائل بلسان هذا المصدر .

ولعل مما يقرب هذا المعنى ما جاء فى قصة الهدهد وسليمان ، اذ يقول الله تعالى حكاية عن الهدهد : « **انى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شىء ولها عرش عظيم . وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون . الا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون . الله لا اله الا هو رب العرش العظيم** » (سورة النمل آية من ٢٣ ــ ٢٦) .

فمع الاعتراف بأن الكلام المروى على ألسنة الطير أو الحيوان قد يأخذ فى معنى نسبته حكما غير الكلام الذى يروى عن الناس ، فانى

أكاد أجزم بأن الأمر فى الحالتين واحد من حيث عناية القرآن بابراز المعنى فى ذاته وتتميمه ، دون أن يعبأ كثيرا بتحديد مصدر القول : أهو المتحدث عنه فى القصة أم الله جل جلاله ؟ وهنا نجد الكلام منساقا على ظاهر يحمل من يقف عند حرفيته على أن ذلك كله من كلام الهدهد ، مع أنه من حيث المعنى يشتمل على أصول دينية كثيرا ما يتكلم فيها القرآن صادرة من الله جل جلاله — وليتأمل القارىء فى قوله : **« يســجدون للشمس من دون الله » الخ •**

ومما يقرب من ذلك أيضا قوله تعالى ضمن ما حكاه عن الجن :
« وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا • وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا • وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا لنفتنهم فيه ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعدا • وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا »(ســورة الجــن الآيات من ١٤ — ١٨) •

فلست أقول : انه لم يصدر من الجن قول ، وانما هو تصــوير وتمثيل ، والا لكنت حاكما بخلاف الظاهر فى أمر غيبى أخبرنا الله به ، وانما أقول : ان الجن صدر منهم كلام كما قال الله ، ولكن السياق قد يبدو منه أن هذا الكلام كله من قول الجن ، لأنها جمل متعاطفة تتصل بمعنى واحد ، بينما نجد فى بعض هذا الكلام قرينة لفظية على أنه من كلام الله **لا** من كلامهم • هو قوله : **« لأسقيناهم ماء غدقا لنفتنهم فيه »** الخ • فهذا يؤيد المعنى الذى أردت بيانه ، ويدل على أن القــرآن يسترسل فى تتميم المعانى ، وهو بصدد الحكاية عمن يقص عنهم ، وقد وجدت فى هذه الآية قرينة لفظية ، وفى آيات أخرى قد لا توجــد مثل هذه القرينة اللفظية ، لكن يرشدنا أسلوب القرآن فى هذه المواضع وأمثالها الى ما ترشد اليه القرينة اللفظية • وهذا فهم أقرره ولست محتذيا فيه أحدا قبلى •

نتيجة التحقيق . ذو القرنين هو الأسكندر الأكبر :

وأرجو أن يفتح الله لى فيه أبوابا من التمثيل ، ويوفقنى الى تتبعه وترسيخه .

ونرجع الى النسق فنقول :

اذا كانت هذه الأقوال المنسوبة الى ذى القرنين على ما وصفنا ، فلا يبقى فى القرآن دليل على أنه كان بحالة من التدين الصحيح المرضى عند الله ، حتى يعترض على كونه الاسكندر بأنه كان متبعا لأرسطو . فالقرآن لا يصرح بأن ذا القرنين كان على حق فى تفاصيل عقيدته ودينه، وانما يفيدنا أن الله مكن له فى الأرض ، وينسب اليه أقوالا قد بينا وجه الرأى فى نسبتها . وبهذا لا نرى مانعا من أن يكون ذو القرنين هـو الاسكندر الأكبر بعد حل هذا الاشكال ، بل يكون الراجح هو ذلك ، للأدلة التى ذكرها الرازى وغيره ، والله أعلم .

ومن السهل بعد هذا أن نفهم أن تلقيبه بذى القرنين : اما تلقيب قد لوحظ فيه عادة بنى جنسه من ارخاء ضفيرتين . واما لأنه قد ملك المشرق والمغرب ، ووصل اليهما بفتوحه ، وهما قرنا الدنيا .

وقد أورد المفسرون هنا أقوالا — كعادتهم — بعضها طريف غريب، ولا داعى للاطالة بذكرها .

* * *

والسائلون عن ذى القرنين قيل : هم اليهود ، سألوا رسول الله عن ذلك بأنفسهم . وقيل : هم المشركون ، سألوه عن ذلك بايعاز من اليهود. وقوله تعالى :« **ويسألونك عن ذى القرنين** »أى عن نبئه وشأنه، وقد أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهم : « **سأتلو عليكم منه ذكرا** » أى خبرا وحديثا ، ذلك هو قوله تعالى : « **انا مكنا له فى الأرض** » **الخ** .

وتمكين الله لعبد من عباده فى الأرض هو ايتاؤه السلطان والقوة فيها ، وهو تعبير جاء فى غير موضع من القرآن ، فمن ذلك قوله تعالى: **« ولقد مكناكم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معايش »**(سورة الأعراف آية ١٠) وقوله تعالى : **« وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض »** (سورة يوسف آية ٢١) وقوله تعالى : **« ولقد مكناهم فيما ان مكناكم فيــه »** (سورة الأحقاف آية ٢٦) وفيه اشعار للانسان بأنه فى هذه الدنيـا لا بقوته ولا بحوله ، وانما هو مدين لله جل وعلا ، وكما قدر على تمكينه يقدر على نزعه وتبديل حاله . وقد بينا أن هذه السورة معنية بأمر البعث ، وأن جميع القصص التى سيقت فيها ترمى الى الاقناع به وتقريب أمره للناس ، ففى ابتداء هذه القصة اشارة الى قدرة الله تعالى ، ورجوع الأمر اليه فى كل ما ينعم به على الناس، وهو قوله تعالى : **« انا مكنا له فى الأرض وآتيناه من كل شىء سببا »** أى أن أمره كله — مما تسألون عنه وأقصه عليكم — هو بتمكين من الله وعناية واقدار ومنح واعطاء . وهذه الجملة بمثابة المغزى والعبرة فى القصة ، وفى نهاية القصة تخلص السورة — كما قلنا من قبل — الى أمر الآخرة ، وأن لكل مظهر من مظاهر تمكين الله لعباده فى هذه الدنيا نهاية ، فاذا جاء وعد الآخرة بطلت كل قوة الا قوة الله وضـاع كل تمـكن فى الأرض فلم يبق لأحـد ولا لشىء شأن معه جل وعلا ، وذلك هو قوله تعالى : **« فاذا جاء وعد ربى جعله دكاء وكان وعد ربى حقا » الخ** .

وقوله تعالى :**« وآتيناه من كل شىء سببا »** معناه : وفقناه الى أن يتخذ لكل شىء يريده ويبتغيه من كان مثله فى الملك والتمكن سببا يوصله اليه من الآلات والعلم والمواصل والسياسة والتدبير والفكر وسائر ما يصلح عليه أمر الملك .

تفصيل قصته كما جاءت بها السورة (المرحلة الأولى) :

والى هنا انتهى وصفه ، وبدأ بعد ذلك بذكر أخباره ، فأنبأنا بأنه « أتبع سببا » **أى اتبعه واتخذه** ، وتوسل به الى ما أراد . ويدلنـا قوله : **« حتى اذا بلغ مغرب الشمس »** على أن فى الكلام محذوفا مقدرا، والأصل : فأراد بلوغ مغرب الشمس فاتبع سببا ، وبلوغـه مغرب

الشمس معناه : وصوله الى بلاد فى أقصى المغرب بالنسبة لمن نزل فيهم القرآن : وهم أهل جزيرة العرب ، ومعنى قوله : « **وجدها تغرب فى عين حمئة** » : أى كان منظرها حال غروبها فى هذا المكان منظرا يخيـل للرائى معه أنها تغرب فى عين ماء مختلط بالحمأة • ويدلنا ذلك على أنه وصل الى بلاد ليس بعدها من جهة المغرب الا البحر ، لأن الناظر الى الشمس حال غروبها يخيل اليه أنها تغرب فى البحر ، واللون الداكن الذى يكون فى أقصى الأفق عند غروب الشمس يصور منظر المـاء بصورة المختلط بالحمأة : وهى الطين الأسود كما قلنا ، وقوله : « **ووجد عندها قوما** » أى عند هذا الموضع الذى يرى للشمس منه هذا المظهر من الأرض المسكونة ، وقد بينا فيما سبق معنى المحاورة التى بدأت بقوله تعالى : « **قلنا يا ذا القرنين** » الى قوله عز وجل : « **وسنقول له من أمرنا يسرا** » وعلم منه أن هذه المعانى دارت فى نفس ذى القرنين اجمالا ، وعبر الله تعالى عنها بقول يمثل حقيقة الأمر وما كان عليه ، اذ هو المسخر للملوك، المسلط للأقوياء ، الموجه للفاتحين على سنة منه وتدبير • ولعل قوله تعالى : « **وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسرا** » شبيه بما مثلنا به من قبل ، مما حكى فى ضمن كلام الجن، حيث اتصل به ضمير هو أقرب الى أن يعود لرب العزة ، ذلك هو الضمير فى « **سنقول** » و « **أمرنا** » فكان ذلك قرينة لفظية كقرينة الضمير فى قوله : « **لأسقيناهم** » وقوله : « **لنفتنهم** » والله أعلم •

٢٢ ـ قال الله تعالى :

ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا
بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل
لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا
لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾

المرحلة الثانية :-

هذه مرحلة ثانية من المراحل التى قصها الله علينـــا من أنبـــاء ذى القرنين ، والمعنى : ثم اتخذ سببا يوصله الى المشرق ، فاتبعـــه وتوصل به الى مقصوده حتى اذا بلغ أقصى ما يخيل للناظر أن الشمس تطلع عليه من المسكونة أول ما تطلع ، وجد هناك قوما لم يجعل الله لهم من دون الشمس سترا ، وهذا الوصف قد يكون معناه : أن القوم كانوا يعيشون فى بادية ضاحين لا يظلهم شجر ، ولا يكنهم من دون الشمس صخر ولا جبل ولا بناء • وقد يكون معناه : أنهم كانوا قـــوما عراة لا يعرفون الملابس ، وليس على أجسامهم ما يسترها ويقيها من الشمس، وكلا الوصفين يشعر بأن الذين ورد عليهم ذو القرنين آخر المشرق كانوا قوما متأخرين ، ليست لهم أساليب الحضارة •

والغرض من ذكر هذه المرحلة فى قصة ذى القرنين ــ مع أنه لم يتصل بها عبرة أو بيان عقيدة كما فى المرحلة الأولى ــ هو بيان أن الله عالم بتفاصيل أمره ، مخبر به رسوله على وجه الدقة ، ولذلك عقب ذلك بقوله : « **كذلك وقد أحطنا بما لديه خبرا** » أى كذلك كان خبره وشأنه، وقد أحطنا به وبأنبائه علما ، كأنه يقول : كذلك أمره وشأنه ولا ينبئك مثل خبير •

٢٣ ـ قال الله تعالى :

ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ
ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ
قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ
مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ
بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ
فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى
زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ
حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾
فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾
قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ
وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ * وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ
يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾
وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ٱلَّذِينَ
كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ
سَمْعًا ﴿١٠١﴾

بين السدين :

السد : الحاجز بين الشيئين ، ومن معانيه أيضا : الجبل ، وهو بفتح السين وضمها ، وقد قرىء بهما •

يفقهــون :

فقه الكلام يفقهه ــ كعلمه يعلمه ــ فهمه ، ويتعدى بالتضعيف والهمز ، يقال : فقهته وأفقهته ، وقد قرىء « يفقهون » بفتح الياء : أى يفهمون قولا ، وبضمها : أى يفهمون أحدا قولا •

خرجــا :

الخرج : اسم لما يخرج من المال كالخراج ، وبهما قرىء ، وقيل : الفرق بين الخرج والخراج أن الخراج اسم لما يخرج من الأرض، والخرج اسم لما يخرج من المال ، وقيل : الخراج الغلة ، والخرج: الأجرة •

ردمــا :

الردم : السد والحاجز ، يقال: ردم فلان موضع كذا ،يردمه ردما•

زبر الحديد :

الزبرة ــ بضم الزاى وتسكين الباء ــ : القطعة الضخمة من الحديد ، ويسمى بها لذلك « سندان الحداد » والجمع زبر بضم الزاى وفتح الباء •

بين الصدفين

الصدف : منقطع الجبل وجانبه • قال الأزهرى : يقال لجانبى الجبل صدفان لتصادفهما : أى تحاذيهما وتلاقيهما •

قطــرا :

القطر : الحديد أو النحاس المذاب ، وأصله من القطر ــ بفتح القاف ــ لأن النحاس أو الحديد اذا ذاب قطر كما يقطر الماء •

اسطاعوا ـــ واستطاعوا :

استطاع الأمر : أطاقه وقدر عليه ، ويقال : اسطاع بحذف التاء تخفيفا ، وقيل فى وجه التعبير بالمخفف فى الأول وذى التاء فى الثانى : أن الأول عدى الى قوله : « أن يظهروه » أى يصعدوا عليه ، والثانى عدى الى نقبه واختراقه • فلما كان الصعود أسهل من الاختراق عبر فى جانب الأسهل بالفعل الأخف ، وفى جانب الأصعب بالفعل الآخر • وقيل : لمـا عدى أولا الى أن وما دخلت عليه كان الأمر يقتضى اختيار الأخف تسهيلا للنطق • أما فى الفعل الثانى فقد عدى الى « نقبا » ولا ثقل فيه ، فجىء باستطاعوا •

أن يظهروه :

يقال : ظهرت الجبل • أى علوته : أى فما اسطاعوا أن يرتفعوا فوقه لينتقلوا الى ما وراءه •

يموج فى بعض :

ماج البحر : هاج واضطربت أمواجه ، وماج القوم : اضطربت أمورهم • وماج بعضهم فى بعض : أى تداخلوا وتشابكوا فى اضطراب وخلل •

التفسير :
المرحلة الثالثة :

وهذه مرحلة ثالثة من مراحل قصة ذى القرنين : ينبئنا الله تعالى أن ذا القرنين بعد بلوغه المغرب وأقصى الشرق تبع سببا آخر ، توصل به الى منطقة أخرى ذكر لنا وصفها أو بعض وصفها ، فهى منطقة قريبة من جبلين يتكون منهما سدان حاجزان لمـا وراءهما ، ويتقابل جانباهما عند نقطة • وقد كان فى هذه المنطقة قوم ذوو لغة تخالف لغة ذى القرنين، فهم لا يكادون يفقهون قولا يوجه اليهم منه ، ولا يكادون يفقهون أحدا من رجاله قولا ـــ كمـا تدل عليـه القراءتان ـــ والتعـبير بقوله : « لا يكادون » يدل على أن التفاهم يحصل ، ولكن بعسر وبعد مشقة

حتى لا يكاد يحصل ، وقد شكوا اليه ما يفعله قوم آخرون ســماهم القرآن « **بيأجوج ومأجوج** » ووصفهم بأنهم مفسدون فى الأرض ، وعرضوا عليه أن يعطوه مالا ليجعل بينهم وبين هؤلاء القوم ســدا ، ولكن ذا القرنين لم يقبل المال ، لأنه يرى الاصلاح حقا عليه ، ويرى نفسه غنيا بفضل الله وتمكينه ، فهو غير محتاج الى مال ، ولكن عليهم أن يقدموا له عونا من القوة الآلية بالأيدى العاملة والمواد القابلة للالتهاب، فطلب منهم أن يؤتوه قطع الحديد العظيمة ، وجعل يرصها بين جانبى الجبلين ، ويضع معها المواد القابلة للالتهاب ، حتى اذا ساوى بين جانبى الجبل بالحديد وما معه على شكل ردم وسد أمرهم بايقاد النار والنفخ عليها ، ثم طلب أن يأتوه بقطر : أى حديد أو نحاس مذاب ، فصب ذلك على كتل الحديد المحمية بالنار ، فتم له بذلك انشاء سد قوى عظيم لم يستطع يأجوج ومأجوج أن يرتفعوا اليه لعلوه وملاسته ، وعدم قدرتهم على الاستعانة فى ذلك بوسائل صناعية ، اذ كانوا على حالة من البداوة والتأخر كجيرانهم ، ولم يستطيعوا كذلك أن ينقبوه لمتانته وقوته .. وبهذا استطاع ذو القرنين بهذا العمل الهندسى العظيم أن يحول بين هؤلاء القوم وما كانوا عليه من الافساد ، وأن يريح حلفاءه أو رعاياه من شرهم وشر افسادهم ، فكان ذلك رحمة من الله حيث مكن لعبد من عباده ، وعلمه ، وألهمه ما لم يمكنهم من قبل أن يفعلوه ، فأصلح بذلك شأنهم ، وأقام به أمنهم وطمأنينتهم — وسيبقى هذا السد ما شاء الله أن يبقى ، ولعله قد اكتسى بصورة طبيعية من فعل القدم والرياح ، وما سفى عليه من تراب ، وما تراكم حوله من صخور وأحجار وأمثال ذلك ، فدخل بذلك فى عداد الجبال الطبيعية أو أمثالها ، فخفيت بذلك معالمه ، وضاعت آثاره ، فلم يعد أحد يعلم أين هو على اليقين . وهنــا يلفت القرآن الى غرض من أغراضه الهامة وهو « البعث » فيتخلص من هذه القصة التى فيها تمكين الله لبعض عباده من فعل شىء عظيم كهذا ، يعد أعجوبة فى تاريخ البشر ، الى تقرير أنه لن يصبر على ما يكون فى آخر الدنيا حين يجىء وعد الله ، ويتزلزل كل شىء على هذه الأرض ، فتزول الجبال وتتحرك الرواسى ، فيندك هذا السد أيضا ، لأن وعد الله حق ، وقدرة الله لا يعجزها شىء — وبهذا تنهدم الحوائل والسدود ، فيختلط الناس بعضهم ببعض ، ولا يعرف نوع من الناس

لأنفسهم أو لبلادهم حدا ، وكأن ذلك عهد من الاضطراب والتقطع والاختلاف فى هذا العالم ، تشير الينا هذه الآية بأنه كائن بين يدى الساعة ، وكم بين يدى الساعة من غرائب وعجائب !! لأن الساعة ما هى الا انتهاء حياة هذا الكوكب وما حوله من الكواكب فى وقت يعلمه الله ، وسيحدث بين يدى ذلك أهوال وشدائد وأحداث وغرائب ، ثم ينفخ فى الصور ولا ندرى ما هذا الصور ! وما كيفية النفخ فيه ! ومن النافخ ! ولكنا نؤمن بذلك على الاجمال الذى أجمله الله به ، ونعلم أنه حدث يكون بين يدى الساعة كما أخبر الله ، ويدخل الناس بذلك فى يوم شديد تعرض فيه جهنم على الكافرين عرضا هائلا مخيفا ، هؤلاء الذين كانوا ينكرون ، ويصممون على انكارهم ، ويكذبون تكذيبا شديدا، فكأنما كانت أعينهم فى غطاء عن ذكر الله وعما ينذر به الله ، وكأنما كانوا غير مستطيعين سمعا •

روايات لا تصح فى شأن يأجوج ومأجوج :

هذا هو المعنى الذى تفيده تلك الآيات الكريمة ، وقد جاء فى كتب التفسير فى هذا الموضع كلام كثير عن يأجوج ومأجوج ، فوصفوهم وحددوا أطوالهم وألوانهم وما كانوا يفعلون ، بل تكلموا فى أصلهم ونسبتهم الى آدم أبى البشر ، حتى رووا فى ذلك كله الغرائب والعجائب، شأنهم فى كل ما يتصل بأمثال هذا • ولعل من أطرف ما ذكروه هو تلك الرواية التى نسوقها — لما انطوت عليه من اسراف فى الخيال — وهى أن يأجوج ومأجوج هم أبناء آدم وليسوا أبناء حواء ، والسبب فى ذلك أن آدم احتلم ذات يوم ، فاختلط ماؤه بالتراب ، فخلق الله من ذلك الماء يأجوج ومأجوج • فهم اخوة البشر لأبيهم دون أمهم !! •

ولسنا بحاجة الى تكرير القول بأن هذه خرافات وأباطيل لم يقم عليها دليل ، وأن من الخير ابعادها عن القرآن ، ذلك الكتاب المطهر الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد •

وحسبنا فى شأن « يأجوج ومأجوج » أن نعلم :

الرأى الصواب فى شأنهم :

١ — أنهم — فيما ذكره القرآن الكريم — خلق لله تعالى ، وصفهم بالافساد فى الأرض ، فقال على لسان المستغيثين بذى القرنين :

« ان يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض ولم يقل جل شأنه : انهم قوم مفسدون فى الأرض ، حتى نفهم أنهم قوم بعينهم، وأصل خاص من الأمم أو الشعوب .

٢ ــ وأن اللفظين اللذين عبر بهما عنهم ، لو كانا من أصل عربى ، لكان اشتقاقهما من مادتين تفيد احداهما الاضطراب ، وتفيد الأخرى المرارة فى الذوق وعدم الاستساغة :

بيان ذلك : أن « يأجوج » يشبه أن يكون مشتقا من أجيج النار، تقول : أجت النار تئج أجيجا ، اذا سمعت صوت لهبها ، أو من أج فى سيره يؤج أجا ، اذا أسرع وهرول ، كما يقول الشاعر:

(يؤج كما أج الظليم المنفر)

ــ والظليم : ذكر النعام ــ

أما « مأجوج » فكأنه مأخوذ من المـــاء الأجاج ، وهو الملح الشديد الملوحة الذى يمج ولا يساغ .

قال ابن منظور فى لسان العرب فى كلامه عن يأجوج ومأجوج : (واشتقاق مثلهما من كلام العرب يخرج من أجت النار ، ومن الماء الأجاج ، وهو الشديد الملوحة ، المحرق فى ملوحته .. قال : وهذا لو كان الاسمان عربيين ، لكان هــذا اشتقاقهما ، فأما الأعجمية فلا تشتق من العربية ، ومن لم يهمز وجعل الألفين زائدتين يقول : (ياجوج) من يججت ، و (ماجوج) من مججت، وهما غير مصروفين .

٣ ــ وأن الله تعالى ذكرهم فى هذا الموضع من سورة الكهف ، وذكر السد الذى بناه ذو القرنين دونهم ، ثم عقب بقوله : **« قال هذا رحمة من ربى ، فاذا جاء وعد ربى جعله دكاء وكان وعد ربى**

حقا ، وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض ، ونفخ فى الصور فجمعناهم جمعا » فربما كان ذلك اشارة الى ما يكون بين يدى الساعة من فساد عام ، بكثرة المفسدين وغلبتهم وظهور أمرهم، كما ذكرهم الله تعالى أيضا فى سورة الأنبياء ، حيث يقول : **« حتى اذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون، واقترب الوعد الحق فاذا هى شاخصة أبصـــار الذين كفروا يا ويلنا قد كنا فى غفلة من هذا ، بل كنا ظالمين »** (سورة الأنبياء الآيتان ٩٦ ، ٩٧) فربمـــا دل هـــذا الاقتران بين فتح يأجوج ومأجوج ، واقتراب الوعد الحق ، على ما لمحناه فى آية الكهف من اقتران شأن يأجوج ومأجوج ــ فى الحديث عن السد ــ بالنفخ فى الصور بعد اضطراب أمر الناس وموج بعضهم فى بعض ، والله أعلم •

٢٤ ـ قال الله تعالى :

أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي
مِن دُونِيٓ أَوۡلِيَآءَۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ
نُزُلٗا ﴿١٠٢﴾ قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ﴿١٠٣﴾
ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ
يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ
وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ
وَزۡنٗا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمۡ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ
ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾
خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا ﴿١٠٨﴾

تمضى هــذه الآيات فى وعيد الكافرين وتقريع المبطلين فتقول : أيحسب هؤلاء الذين كفروا بالله ، واتخذوا عباده الذين خلقهم أولياء من دونه ، أنهم ناجون من عقابه وعذابه ! كلا .. انا اعتدنا جهنم للكافرين مأوى ومنزلا . يستهزىء بهم . فان النزل هو ما يهيأ للضيف من منزل مريح أو طعام جيد ذى فضل ، فيقول لهم : هذا هو نزلهم ، كما جاء فى آية أخرى بعد وصف جهنم وما فيها من زقوم وحميم : « **هذا نزلهم يوم الدين** » (سورة الواقعة آية ٥٦) وهو شـــبيه من حيث التهكم بقوله تعالى : « **فبشرهم بعذاب أليم** » (سورة آل عمران آية ٢١) وقول الشاعر :

نقربهم لهذميـــات نقدبهـــا * ما كان خاط عليهم كل زراد

ثم صور حال هؤلاء الضالين المستكبرين المدعين المعرفة : وهم جهلاء المؤملين الفوز والنجاح وهم الأخسرون ، صور هؤلاء فى أسلوب سؤال وجواب ، فأمر نبيه بأن يعرض عليهم هذا النبأ ، ليلفت بذلك أنظارهم ، ويهيىء لمـــا بعده عقولهم : قل هل ننبئكم بأخسر الناس أعمالا وأضيعهم مآلا ، الذين يفعلون ما يفعلون ، ويسعون ما يسعون فى الحياة الدنيا ، حاسبين أنهم محسنون صنعا وفاعلون خيرا . ثم أتى بالجواب على هذا السؤال الذى فرضه وألزمهم به فقال : أولئك هم الذين كفروا بآيات ربهم ، وكذبوا بلقائه فى يوم البعث والحساب ، فضيع ذلك أعمالهم هباء ، فلا وزن لهم ولا قيمة لمـــا عملوا ، وسيصيرون الى جهنم بكفرهم واستهزائهم بآيات الله ورسله .

ثم وضع الى جانب هذه الصورة صورة أخرى مقابلة لها : هى حالة المؤمنين الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، فجزاهم الله بجنـــات الفردوس نزلا ومأوى ، لهم فيها نعيم مقيم ، خالدين فيها لا يبغون عنها تحولا ، ولا يطلبون بها بديلا .

ولا شك أن فى هذه الموازنة ايلاما للكافرين ، وتبشيرا للمؤمنين.
هذا هو المعنى الاجمالى للنظم الكريم فى هذه الآيات . ويتصل بها بعد ذلك بعض الفوائد :

اتخاذ العباد أولياء من دون الله :

١ — فمن ذلك ما يفيده قوله تعـالى : « **أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادى من دونى أولياء** » الخ ، فان المفسرين يذكرون أن المراد به عبده عيسى والملائكة ونحو ذلك من ألوان الشرك، باتخاذ بشر وليا يعبد من دون الله • وهذا صحيح • لكن الآية تشمل نوعا آخر هو ما يعهده الناس فى كل زمان من اتخـاذ الملوك والرؤساء وذوى الجاه والمناصب أولياء من دون الله ، يتقربون اليهم بمعصية الله ورسوله ، ويشترون رضاهم بغضب الله ورسوله • فالتهديد موجه الى هؤلاء أيضا ، لأن الذين يفعلون ذلك — وان كانوا يزعمون أنهم مؤمنون بالله ربا ، تشهد أفعالهم بأن هذا الايمان قول لسانى لا أثر له فى أعمالهم ولا دليل على أنه خالط قلوبهم ، وأنهم أدركوا حـق الادراك لوازمه ولواحقه — فالمؤمن الذى خالط الايمان قلبه ، وملأت الثقـة بالله نفسه ، لا يبتغى مرضاة أحد من الخلق مهما سما شـأنه وعلا منصبه باغضاب الله ورسوله ، فاذا ابتغى أحد ذلك فقد أشرك بالله ، لأنه لا معنى للعبادة الا الخضوع ، ومن فعل ذلك فقد خضع لغير الله ، وتمرد على الله • وقد سمى الله اتخاذ العباد أولياء من دونه كفرا ، وأوعد عليه بعقاب الكفر • ومعنى قوله : « **أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا** » أظنوا أن يفعـلوا ذلك وننجيهم من عقابنا وعذابنا ؟ ! أى لمجرد أنهم يلتمسون لأفعالهم مبررات ، كأن يقول بعضهم : ان عيسى ابن الله ، وان الملائكة بنات الله ، أو اننا نتخذهم وسائل الى الله أو شفعاء عند الله ، افتراء على الله فى كل ذلك وكذبا مبينا • أو يقول بعضهم : انما نتقرب الى هذا الحاكم اتقاء شره ، أو ابتغاء خيره ، أو تحايلا على الوصول الى منزلة عنده ، كى نصلح بواسطة ذلك بعض الاصلاح ، أو نخفف بعض الشر •• الى غير ذلك مما يبررون به أعمالهم ، ويزيدون به قبائح فعلهم ، وهم يحسبون أن ذلك لباقة وسياسة ودهاء ، ولذلك يقول الله بعد هذا : « **قل هل ننبئكم**

بالأخسرين أعمالا • الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيـا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » فما جاءت هذه الآية الا لأن معنى الآية قبلها يوحى باستحسانهم صنع أنفسهم ، مع أنهم يفعلون القبيح ، ويأتون الضلال ويتظاهرون بأنهم أهل الحنكة والمعرفة والبصر والدهاء •

لا يقيم الله وزنـا لاعمال أهل الكفر :

٢ — ومن ذلك ما يدلنا عليه قوله تعالى : **« قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا »** ••• الخ فقد بين لنا ذلك أن الكافر المكذب بآيات ربه ، المنكر للبعث ، المستهزىء بالرسالات الالهية وما أنزل الله من الآيات يحبط عمله ، ولا يكون لهذا العمل فى حساب الله قيمة ، ولا يقام لصاحبه يوم القيامة وزن •

وقد زعم قوم أن أفعال الخير والبر والاصلاح تفيد صاحبها ولو كان غير مؤمن ، وهو زعم باطل بنصوص كثيرة من كتاب الله، وهى نصوص معروفة مشهورة كقوله تعالى : **« لئن أشركت ليحبطن عملك »** (سورة الزمر آية ٦٥) وقوله : **« أعمالهم كسراب بقيعة »** (سورة النورآية ٣٩) و **« أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف»** (سورةابراهيمآية١٨) • الى غير ذلك، فلا نطيل بذكرها وبيان معناها ، ولكن ننظر فى ذلك نظرة عقلية• فان الكافر المنكر ليوم البعث والجزاء قلما يصدر عنه فعل من أفعال الخير والبر ، لأنه يكون قاسيا متحجرا شهوانيا ، لا يبحث الا عن مصلحته ، ولا يبتغى نفعا من وراء معروفه ، واذا فعل أحدهم شيئا رفقا — كما يقولون — بالانسانية ، أو تمسكا بالمعانى والمثل الشريفة فى ذاتها ، فان هذا— على فرض وقوعه — انما يتستر بهذا الغطاء ، وهو فى الحقيقة تجارة مع الناس وابتغاء لمقابل خفى يستره فى نفسه ، ويحاول الوصول اليه ،

ولا يؤدى مثل هذا فى الغالب الى خير الانسانية ، ولا يبارك الله فيه ، ولا أحسب أن تاريخ البشر قد مر به فى أى عصر من العصور انسان ملحد منكر تماما للألوهية وللبعث ، ثم كان خيرا رحيما بالانسانية برا بها ، فان الرحمة والبر لا تعرف القلوب المنكرة الجاحدة ، والانسان بفطرته وطبيعته مؤمن بقوة فوق قوته ، يرهب هذه القوة ، ويخشى سلطانها ، ويعلم أنه فى حاجة الى رضاها ، وأنه غير قادر على مناهضتها • فاذا وجد شخص متنكر لهذه الفطرة ، خارج عليها ، قاس فى رفضها وعدم الاذعان لها ، فلا بد أن يكون فاسد الطبع ، خارجا على مقتضيات انسانيته • ومثل هذا لا يكون رحيما ولا كريما ، ولا يعمل عملا يبارك الله فيه ، ويؤدى الى خير بالناس • ولو عمل لكان عمله : اما خوفا من الناس ، ورضوخا لنزعة الخوف منهم • واما اجتلابا لرضاهم ، فان الذى لا يشعر قلبه بالخوف من الله يكون ماديا ضاربا فى ماديته بسهم عظيم • وأهل المادة يخافون الناس ويتملقونهم ، أو — على الأقل — يجاملونهم ، لاعتقادهم أن فى هذه المجاملة نفعا ماديا لهم •

بهذا يتبين أن الجحود لا خير فيه ، وأن القلب الذى لا يعمره الايمان بالله واليوم الآخر لا يمكن أن يعمره معنى شريف ، ولا أن يوحى بعمل شريف •

٣ — ومن ذلك ما يدل عليه قوله تعالى : « **كذبوا بآيات ربهم ولقائه** » وقوله : « **بما كفروا واتخذوا آياتى ورسلى هزوا** » فقد وصف الله الأخسرين أعمالا بالكفر ، وأوعدهم بجهنم لأنهم :

أنواع التكذيب :

أولا : « كذبوا بآيات ربهم » والتكذيب بآيات الله نوعان : تكذيب بالآيات الكونية التى تدل على وجود الله وقدرته

ووحدانيته •• وغير ذلك من العقائد المتصلة بالاله الخالق جل جلاله • وهؤلاء هم الملاحدة الزاعمون بأن لا اله ، وأن الحياة ان هى الا مصادفات أو تفاعلات مادية •• الخ • والنوع الثانى : التكذيب بالآيات الكلامية التى أنزلها فى كتبه ، ومن بينها أحكام العقائد والعبادات والمعاملات ، والتكذيب بها صادق باعتقاد أنها غير كفيلة باسعاد البشر ، أو أنها جاءت لقوم مخصوصين ، فى زمان كانت البشرية فيه متأخرة غير متحضرة ، وقد فات أوانها بتقدم الناس وحضارة الأمم ، أو بتفضيل أى نوع من أنواع التشريع البشرى على ما شرع الله ، أو بالتصرف فى عقيدة من العقائد على نحو لم يأذن به الله ، أو بافتراء الكذب على الله فى التحليل لما حرم ، أو التحريم لما أحل •• الى غير ذلك مما يشمله قوله تعالى : « **الذين كذبوا بآيات ربهم** » •

ثانيا : كذبوا بلقاء ربهم ، وذلك هو انكار البعث ، واستبعاد أن ينشر الناس بعد الموت والفناء ، والحكم بأن هذه الحياة الدنيا هى كل شىء فى أمر الانسان ، وليس بعدها حياة أخرى !

ثالثا : اتخذوا آيات الله ورسله هزوا ، وهذا لون آخر من التمرد على الله ورسالاته • وقد شهدنا بعض من يدعون الفلسفة، ويشار اليهم فى مجتمعنا الحاضر بالزعامة والتقدم العلمى، يحلو لهم دائما أن يعرضوا لآيات الله ورسل الله بألوان من الغمز والاستهزاء والسخرية ، يعلنون ذلك فى

مجالسهم الخاصة ، وحيث يأمنون على أنفسهم ومناصبهم. ويخفونه ويسرونه ويلوحون به فى خبث ومكر ، حين يتصلون بالناس أو يخشون غضبهم • والحقيقة أن هؤلاء المستهزئين منســاقون مع شهوة التميز على النــاس والاستهتار بأنهم أعلام الفكر وأساطين العقل والعلم ، لا مع أدلة أفضت بهم الى ذلك ودفعتهم اليه •

٢٥ ـ قال الله تعالى :

قُل لَّوْ كَانَ
ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ
كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠
بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن
كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ
بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾

ختام السورة

المراد بالبحر اسم الجنس : أى لو كان البحر بمائه مدادا لكلمات ربى ، وهذا كمـا فى قوله تعالى : **« ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعـده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ان الله عزيز حكيم »** (سورة لقمان آية ٢٧) •

والمراد بالكلمات : اما الكلمات القولية كالقرآن والكتب السماوية، واما مقدورات الله وحكمه وعجائبه وتصاريفه فى الخلق ، وقد سـمى الله عيسى كلمة فقال :**« وكلمته ألقـاها الى مريم »** (سـورة النساء آية ١٧١) وانما جاز تسمية الأفعال والتصاريف الالهية كلمات لأنها أفاعيل يسيرة عليه جل وعلا ، وأمرها رهن بكلمة التكوين **« انما قولنا لشىء اذا أردناه أن نقـول له كن فيكون »** (سورة النحـل آية ٤٠) • وهذا المعنى الأخير فى تفسير الكلمات أقرب دون أعيان الكلمات المكتوبة من القرآن وغيره • ويدل على ذلك التذييل الذى جاء فى الآية الأخرى : **«ولو أن ما فى الأرض من شجرة»** (سورة لقمان آية٢٧) وهو قوله تعالى: **« ان الله عزيز حكيم »** فان العزة والحكمة هما مظهرا القدرة والتدبير، فالله سبحانه وتعالى عزيز لا يغالب ، وله فى خلقه بعزته تصـاريف وأفاعيل لا ترد ولا تقاوم • « لا معقب لحكمه » و « لا راد لفضله » وهو بحكمته يضع كل شىء فى موضعه بتدبير منه وسنة ثابتة لا تتحول، وما دامت ألوهيته وعزته وحكمته فمقتضى ذلك ألا تفنى كلماته وأفاعيله وتصاريفه على حسب العزة والحكمة ، ولو كان المراد : كلماته القولية من القرآن ونحوه لذيل بمثل : ان الله عليم أو سميع أو بصير أو نحو ذلك مما له اتصال بغزارة القول وكثرة الكلام المقول •

وقوله تعالى : **« ولو جئنا بمثله مددا »** مثل قوله فى الآية الأخرى: **« يمده من بعده سبعة أبحر »** والعدد لا مفهوم له ، وانما المراد افادة الكثرة وغزارة المدد •

قدرة الله وسعة علمه :

وهذه الآية الكريمة جاءت بعد انتهاء السورة من قصصها وبيانها ، وما احتوت عليه من العلم والأدلة والبراهين ، وما صرفته للناس من كل مثل • فكانت فى المعنى كتذييل لكل ما تقدم ، كأن الله يقول : هذه بعض

آيات الله فى الكون ، قصصناها عليكم فرأيتم فيها الأعاجيب والغرائب، وتصاريف الخلق ، وقدرة الله العظيمة ، وعلمه الواسع ، وتمكينه لخلقه على تفاوت ومراتب فى هذا التمكين ، وأدلته التى وضعها بين يدى العقل ليعلم بها أن وعد الله حق وأنه قادر على ما يشاء ، وما ذلك كله الا قل من كثر ، ووشل من بحر • فلو أن جنس البحر وماءه وما شاء الله أن يمده به مداد لأعاجيب قدرته وأفانين تصرفاته وحكمته ، لنفد البحر وما مد به قبل أن ينفد ذلك ويفنى : أى أنه لا يفنى أبدا ، لأنه مقتضى الألوهية والعزة والقدرة والحكمة ، وهى صفات الله جل علاه باقية لا يدركها فناء •

بشرية الرسول :

ثم أمر الله نبيه بأن يبين لهم فى صراحة ووضوح أنه ليس قادرا على شىء من فضل الله ، ولا يدعى لنفسه امتيازا على البشر ، وأن لا علم له الا ما علمه الله ، ولا خبر لديه الا ما أخبره به الله ، فانما هو بشر كسائر الناس ، يعلم ما يعلمون ، ويقدر على ما يقدرون ، ويعجز عما يعجزون ، وانما له امتياز واحد : هو أنه يوحى اليه ، فهو نبى مرسل من قبل الله ، أوحى الله اليه بعلم منه ليبلغه للناس ، يتلخص فى شىء واحد : هو أن الله اله واحد •• تلك خلاصة ما جاء به الدين من عقيدة وعمل • فأما دلالة ذلك على العقيدة الصحيحة فان « الاله » يتضمن الاتصاف بكل كمال والتنزه عن كل نقص ، ويكون موجودا قادرا عالما سميعا بصيرا •• الخ الصفات الكريمة ، كما يكون حكيما، يحاسب الناس على ما قدمت أيديهم من خير أو شر • بحسب ما كلفهم به عن طريق الرسالات والكتب والشرائع • ووصف الاله بأنه (واحد) ينفى الشرك ، وينقذ الانسانية من مساوىء الخضوع لغيره فى اللجوء والاستعانة والعبادة والتشريع والمراقبة •• الى غير ذلك •

الايمان بالبعث يقتضى العمل الصالح والتوحيد :

وقد رتب على هذين الصفتين قوله : **« فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا »** وهو بهذا يبين أن المطالب بالتوحيد والعمل الصالح انما هو المؤمن بالله ، الراجى للقائه

فى يوم البعث ، الخائف من حسابه • هذا هو المكلف بالعمل الصالح، وعدم الاشراك بالله فى العبادة • أما من أنكر الله ، وأنكر لقاء الله، فانه لا يخشى شيئا ، وليس هذا فى منزلة تصحح تكليفه وخطابه ، وأن يطلب منه فعل شىء أو ترك شىء •

وبهذا انتهت السورة الكريمة ، واختتمت بما ابتدئت به من افادة الناس بأن مرجعهم الى الله فى حياتهم وبعد مماتهــم ، وأن الدين والشريعة انما جاءت لانذار قوم وتبشير آخرين بيوم عظيم يكون بعد هذه الحياة الأولى ، يجب عليهم أن يحسبوا حسابه ، ويعملوا له • وأساس ذلك هو معرفة الحق فى شأن الألوهية ، والاذعان للواقع فى جانب القدرة والعظمة اللتين تظهر فى الكون آثارهما واضحة جلية • والله أعلم •

* * *

الفهـــــــرس

الموضـــوع	الصـــفحات من	الى
« امركم مرفقا » (من الآية ١٥ الى الآية ١٦) . بيان معانى المفردات : (بسلطان — اعتزلتموهم — ينشر لكم — مرفقا) . . . . التفسير : بيئتهم التى كانوا يعيشون فيها — شرك العقيدة — شرك العمل — منزلة البرهان فى نظر القرآن	٨٤ —	٩٠
٥ — من قوله تعالى : « وترى الشمس اذا طلعت » الى قوله تعالى : « ولملئت منهم رعبا » (من الآية ١٧ الى الآية ١٨) معانى المفردات : (تزاور — تقرضهم — فجوة — بالوصيد) . . . . التفسير : وصف الكهف من حيث موقعه — معنى هداية الله واضلاله — صفة الفتية حال نومهم .	٩١ —	٩٦
٦ — من قوله تعالى : « وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهـــم » الى قوله تعـــالى : « انهم ان يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم فى ملتهم ولن تفلحوا اذا ابدا » (من الآية ١٩ الى الآية ٢٠) . . . . معانى المفردات : (بعثناهم — بورقكم — فليأتكم برزق منه — ليتلطف — يظهروا عليكم — يرجموكم) التفسير : بعث الأموات شبيه بايقاظ النائمين — روح الايمان يظهر فيما ينطق به اللسان — الرجم خير من العودة الى ملة الكفر	٩٧ —	١٠٥
٧ — من قوله تعالى : « وكذلك اعثرنا عليهم » الى آخـر الآية (٢١) فائدة اسناد الأمر فيما يفعله العباد الى الله — استطراد لبيان مغزى القصة — تحقيق يتصل بالمعنى والمغزى — رايى فى ذلك	١٠٦ —	١١٢